عصر إسماعيل

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الجزء الأول

يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل

الطبعة الرابعة

مقدمة الطبعة الرابعة

نشكره سبحانه وتعالى - وهاهى دار المعارف بنشاط أبنائها تعيد طبع هذا الكتاب بعد أن أقبل عليه الباحثون والمثقفون والله ولى التوفيق.

كريمات المؤلف
سنة ١٩٨٧ عبدالرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله . فهذا الكتاب سبق طبعه الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ والطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ وهو يتناول عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل .

والله ولى التوفيق

كريمات المؤلف
سنة ١٩٨١ عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وشغلتُ بعدها بإخراج الحلقات التالية من هذه المجموعة ، وقد أفدت من الانتظار هذه السنين قبل إخراج الطبعة الثانية ، إذ تسنى لى أن أطلع على ما ظهر خلالها من كتب وتراجم ، ومؤلفات ووثائق عن عصر إسماعيل ، يتفق بعضها مع وجهة نظرى فى الكتابة عنه ، ويعضها يعارضها ، وقد يكون رداً عليها ، ثم أمعنت النظر أيضاً فى البحوث والمقالات والخطب التى ألقيت سنة ١٩٤٥ فى دار الأوبرا الملكية ، وفى غيرها من المحافل والمعاهد ، لمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الخديو إسماعيل ، وأعدت النظر فيما كتبت عنه سنة ١٩٣٢ ، لعلى أكون قد أخطأت فى موضع من المواضع ، فأصحح خطئى ، أو انحرفت عن الرأى الصواب ، فأعدل عن رأيى ، ولا غضاضة على الإنسان فى أن يعدل عن رأيه إذا تبين له خطؤه فالحقيقة بنت البحث ، والعصمة لله وحده ، على أنى بعد أن استكملت هذه الدراسة ازددت اطمئناناً إلى صحة ما كتبتُ ودوّنتُ عن عصر إسماعيل ، واعتقدت أكثر مما كنت أعتقد أنى لم أتجاوز فيما ذكرت له أو عليه ، وهذا هو واجب المؤرخ فى التراجم ، فعليه أن يذكر ما للمترجم وما عليه ، أما أن يذكر الحسنات دون السيئات ، أو يقتصر على هذه ويغفل الحسنات ، فهذا ليس من التاريخ الصحيح ، وما لا ينبغى أن يكون أساس البحث والتدوين ، والتاريخ الصحيح يقتضى ذكر الحقائق بأكملها ، لتكون الصور التى يعرضها المؤرخ عن الحوادث والشخصيات صوراً صحيحة ، لا تشويه فيها ولا إبهام .

وعلى ذلك فإنى أعيد طبع هذا الكتاب ، دون أن أغير أو أنقص منه شيئاً .

فالطبعة الثانية هى ذات الطبعة الأولى ، لا تغيير فيها ولا تبديل ، ولم أزد عليها سوى إضافات يسيرة بالجزء الثانى ، لا تتجاوز ثلاثاً ، وقد حرصتُ على أن أجعلها فى هامش الكتاب ، لكى يبقى الأصل كما أخرجته أول مرة ، وأضفت إلى الوثائق التاريخية النص الكامل للائحة تأسيس مجلس شورى النواب ولائحته النظامية ، وكنتُ قد لخصت أحكامها فى الطبعة

الأول ، فأبقيت التلخيص كما هو ، وأضفت إليه نصوص اللائحتين ، وأردت من نشرها استكمال الوثائق التاريخية الهامة عن هذا العصر ، ولم أزد على ذلك شيئاً .

والله أسأل أن يلهمنا قول الحق ، ويجنبنا مواطن الزلل ، ويهدينا سواء السبيل .

أكتوبر سنة ١٩٤٨

عبد الرحمن الرافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

بهذا الكتاب ندخل فى غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية ، إذ كان عهد الخديو إسماعيل أكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثراً .

أخرجنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ ، بسطنا فى الأول منها منشأ الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وكشفنا عن الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الثانى على تتمة المقاومة الشعبية ووقائعها إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب ، ثم أفردنا الجزء الثالث لعصر محمد على ، وفصلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة ، وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وما تم فى ذلك من جلائل الأعمال .

وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد على و « عصر إسماعيل » ، وقد جعلناه فى جزأين ، كتابا مستقلا ، لاشتماله على صفحة قائمة بذاتها فى تاريخ مصر القومى ، وسنحذو هذا الحذو فيما نخرجه بمشيئة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية فنجعل لكل عهد منا كتابا مجتمعاً ، فالكتاب الآتى فى (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) ، والذى يليه عن (مصطفى كامل) ، وهلم جراً .

* * *

إن الحقبة من الزمن التى تولى الحكم فيها عباس الأول ، ثم سعيد ، ثم إسماعيل ، هى صفحة هامة من تاريخ مصر القومى ، لأنها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد على إلى الثورة العرابية .

انقضى عصر محمد على وإبراهيم بعد أن توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة وتأسيس

جيش المصرى ، والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد .

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصح إعتباره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت على عهد محمد على .

ثم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديدة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ترجع إلى نزعة سعيد الوطنية ، وميله إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل على تحريرهم من نير الظلم ، وبث روح القومية فى نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية فى الجيش والإدارة ، ولكن إلى جانب هذه المحامد ، بدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفاً فى ذلك تعاليم أبيه العظيم ، وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التى جرت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها وأغلالها .

ثم جاء عهد إسماعيل ، وهو عصر طويل ، يشغل فيه تاريخ مصر القومى والسياسى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويعد عصراً هاماً ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار ، فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تمخضت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقى وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبى ، وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العهد ، وتجنى من ثمارها وتلمس آثارها بيديها ، فإنها أيضاً تعانى عواقب الأغلاط التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها وحقوقها ومرافقها ، هذا إلى أن معظم القيود والنظم التى تقررت فى ذلك العصر لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق مصر والديون التى كبلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عهد إسماعيل .

* * *

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديو إسماعيل من تركيا أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلا بمصر إلى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ، ومد حدود الدولة المصرية إلى منابع النيل ، وشواطىء المحيط الهندى ، أى إلى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظيماً مجيداً . وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربى ، وإنهاض البحرية المصرية ، وإقامة أعمال العمران فى مختلف النواحى ، وبعث النهضة العلمية والفكرية من

مرقدها ، بإنشاء المدارس والمعاهد ، وتأسيس الجمعيات العلمية ، وتشجيع التأليف والصحافة ، ورعاية العلوم والآداب والفنون ، وأسس نوعاً من الحياة النيابية بإنشائه مجلساً محدود السلطة يعرف بمجلس شورى النواب ، كان له الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية .

فى عصر إسماعيل حدثت نهضة زاهرة ، يزدان بها تاريخه ، ولكن هذه النهضة قد تعثرت فى سيرها لما شابها من إسراف الخديو وبذخه ، وركونه إلى الأوروبيين ، وشديد ثقته بهم ، واعتماده عليهم . فأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تورطه فى القروض الباهظة التى ناءت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن فى حاجة إليها ، فكانت الذريعة التى توسلت بها الدولة الأجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تأليف لجنة تحقيق أجنبية لفحص شئون الحكومة المالية ، إلى تعيين وزيرين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، إلى تغلغل نفوذ الأجانب عامة فى مرافق البلاد ، فهذه الأحداث الجسام قد تصدع لها صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على .

* * *

أثارت هذه الكوارث سخط الأحرار من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، فظهرت فى صفوفهم حركة وطنية تردد صداها فى الصحف وفى مجلس شورى النواب . واتجهت غايتها إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبى ، وتقرير النظام الدستورى أساساً للحكم فيها ، وتبادل زعماؤها الرأى فى اجتماعات عقدوها بدار السيد على البكرى ومنزل إسماعيل راغب باشا ، واجتمعت كلمتهم فى (الجمعية الوطنية) على المطالبة بتأليف وزارة وطنية خالصة للمصريين ، خالية من الوزراء الأوروبيين ، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فاستجاب الخديو إسماعيل لمطالب الأحرار ، وعهد إلى شريف باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبى مسئولة أمام مجلس الأمة (وثيقة ٧ أبريل سنة ١٨٧٩) . فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، فكانت أول وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها أنها وضعت دستوراً على أحدث المبادىء المصرية وقدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، وخولت ذلك المجلس سلطة ، جمعية تأسيسية ، تملك حق إقرار الدستور وتعديله .

على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا إلى ظهور هذه الحركة واطرادها واشتداد

مبدئها ، تجمع كلمة الأمة حولها ، ومناصرة الخديو لها ، فسعت لإحباطها ودبرت مؤامرتها بالاعتراض على أول مشروع مالى للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخلع الخديو ، وكانت تركيا من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت طلب الدول ، وأعلنت خلع إسماعيل وإسناد منصب الخديوية إلى توفيق باشا (يونيه سنة ١٨٧٩).

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الأوروبية ، إلى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العرابية ، فالثورة من هذه الناحية تمدردُ فعل للتدخل الأجنبى الذى وقع فى عهد إسماعيل ، فالثورة الأساسية هى فى جوهرها المطالب التى اجتمعت عليها كلمة الأحرار فى (الجمعية الوطنية) ، والدستور الذى تمخضت عنه الثورة سنة ١٨٨٢ ، مقتبس من دستور سنة ١٨٧٩ .

* * *

فإلى عهد إسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية ، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبةً وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الحركة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى . فى طورها الأخير ، وخفَتَ صوت الحكمة والتعقل ، إلى جانب صوت السيف المقعقع . ومن ثمّ تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها ، والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى ما زلنا نعانيه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢) .

فلبيان التطورات التى تعاقبت على البلاد فى عهد خلفاء محمد على إلى انتهاء عصر إسماعيل ، قد خصصتُ هذا الكتاب ، جاعلا وجهتى فى السعى إلى استخلاص الحقائق والعظات ، من الحوادث وملابساتها . لنتعرف الحاضر على ضوء الماضى . ونصل الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها . عسى أن يكون لنا فى ذلك ما نسترشد به فى حياتنا القومية ، أو نستظهر به على ما نحن بسبيله من جهاد فى سبيل الوطن .

أسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويلهمنا السداد فى القول والعمل ، ويوفقنا إلى ما فيه تحقق الأمل ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

للذكرى

اليومَ ختام العام الخامس لوفاة فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى .

اليوم يطوى الزمان خمس سنوات على احتجابك عنا يا أمين ! وذكراك باقية فى النفوس ماثلة فى الأذهان . يجددها مر الليالى وكر الأعوام .

فإلى روحك الطاهرة الثاوية فى دار الأبدية ، أبعث بتحيات الذكرى ، يرسلها القلب وتفيض بها المشاعر ، ويحملها الرجاء إلى عالم الأرواح .

وإلى بارىء تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء ، أن يسبغ عليها آية السكينة والطمأنينة ، فيانفس أمين ! ، اسكنى إلى جوار ربك راضية مرضية ، ويا روح أمين ! سلام ، وريحان ، وجنة ونعيم ،

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢

عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

الرجعية فى عهد عباس باشا الأول

(١٨٤٨ - ١٨٥٤)

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية ، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التى ظهرت فى عهد محمد على .

ولى عباس حلمى الحكم بعد وفاة إبراهيم ، وفى حياة محمد على باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد على ، لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ، ولم يشبه عمه إبراهيم فى عظمته وبطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة .

نشأة عباس

بذل محمد على شيئا من العناية فى تعويد عباس ولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، وبالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم باشا ، فعهد إليه بالمناصب الإدارية والحربية . فتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغربية . ثم منصب الكتخدائية التى كانت بمنزلة رآسة النظار . ولم يكن فى إدارته مثالا للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، ويحذره من عواقبها ، ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصائح جده وأوامره .

وأما من الوجهة الحربية فقد اشترك مع إبراهيم باشا فى الحرب السورية ، وقاد فيها أحد الفيالق ، ولكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة .

وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا كبيراً . فصار إليه هذا الملك ، دون أن تؤول إليه مواهب مؤسسه ، فكان شأنه شأن الوارث

لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا .

وكان إبراهيم باشا لا يرضيه من عباس سلوكه وميله إلى القسوة وكثيراً ما نقم عليه نزعته إلى إرهاق الأهلين ، حتى اضطره إلى الهجرة للحجاز ، وبقى هناك إلى أن داهم الموت عمه العظيم .

ولاية الحكم

كان عباس باشا متغيباً بالحجاز لما عاجلت المنية إبراهيم باشا ، فاستدعى إلى مصر ليخلفه على دست الأحكام تنفيذاً لنظام التوارث القديم الذى يجعل ولاية الحكم للأرشد فالأرشد من نسل محمد على ، وتولى الحكم فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ) .

أخلاقه

بقى عباس فى الحكم خمس سنوات ونصفاً ، كان يبدو فى خلالها غريب الأطوار ، شاذاً فى حياته ، كثير التطير ، فيه ميل إلى القسوة ، سيء الظن بالناس ، ولهذا كان كثيراً ما يأوى إلى العزلة ، ويحتجب بين جدران قصوره . وكان يتخير لبنائها الجهات الموغلة فى الصحراء ، أو البعيدة عن الإنس ، فبنا عدا سراى الخرنفش ، وسراى الحلمية بالقاهرة ، قد بنى قصراً فخماً بالعباسية (التى سميت من ذلك الحين باسمه) ، وكانت إذ ذاك فى جوف الصحراء . وقد شاهد المسيو فرديناند دلسبس هذا القصر سنة ١٨٥٥ ، فراعته ضخامته ، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه ، فكأنه بنى لنفسه مدينة فى الصحراء ، وبنى قصراً آخر نائياً فى الدار البيضاء ، الواقعة بالجبل على طريق السويس القفر ، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، وقصراً بالعطف (ذكره على باشا مبارك فى الخطط ج ٧ ص ٦٣) . وقصراً فى بنها على ضفاف النيل ، بعيداً عن المدينة . وهو الذى قتل فيه كما سيجىء بيانه .

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد على وإبراهيم ، وخيل له الوهم

أنهم يأتمرون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى الكثير منهم على حياتهم ، فرحل بعضهم إلى الأستانة ، والبعض إلى أوروبا ، خوفا من بطشه ، واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقده على من يستهدفون لغضبه أنه حاول قتل عمته الأميرة نازلى هانم ، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الأستانة خوفا من بطشه .

وسعى فى أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل إبنه إلهامى باشا خليفته فى الحكم ، بدلا من سعيد باشا ، ولكنه لم يفلح فى مسعاه ، ونقم على سعيد الذى كان يحكم سنه ولى العهد ، واتهمه بالتآمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره ألا يلزم الاسكندرية ، وأقام هناك بسرايه (بالقبارى) .

وانتشرت الجاسوسية فى عهده انتشاراً مخيفا ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن يغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصادر أملاكه . وكان نفى المغضوب عليهم إلى أقاصى السودان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر .

وكان عباس مولعا بركوب الخيل والهجن ، يقطع بها المسافات البعيدة فى الصحراء ، وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة ، يجلبها من مختلف البلاد ، ويعنى بتربيتها عناية كبرى ، ويبنى لها الاصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأن هواة الخيل .

أعماله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد على ، فإن حركة النهضة والتقدم والنشاط التى امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا فى عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين ؛ ذلك أن محمد على كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين فى معظم مشاريع الإصلاح ، لكن « عباس » لكونه لم يفكر فى تعهد هذه الإصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم ، وقد تضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده ، ولم يعد إلى الظهور إلا فى عهد سعيد باشا ، ومن هنا نعرف سببا لتحامل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فإنه وإن كانت أعماله لا تدعو إلى الإطراء ، لكنا نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لا تخلو من التحامل ، لتأثرهم من تضاؤل النفوذ الفرنسى فى عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية

يكرهون كل ملك أو أمير يقترن عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسى فى بلاده ، من أجل ذلك تراهم يكيلون المدح جزافاً لسعيد باشا . ونعتقد أن هذا راجع إلى ميوله الفرنسية وعودة النفوذ الفرنسى إلى مصر فى عهده ، على يد المسيو فرديناند دلسبس وأمثاله ممن اتخذهم سعيد بطانته وأولياءه .

فعباس إذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار رجال الموظفين الفرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه . بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم .

وعلى العكس ، بدأ النفوذ الإنجليزى فى عهده على يد المستر (مرى) القنصل البريطانى فى مصر وقتئذ ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة .

ولا يعرف السبب الحقيقى لهذه المنزلة ، سوى أنها نتيجة المصادفة ، فإن الملوك والأمراء المستبدين ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى فى كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكفاءة المستر مرى دخل فيما ناله عند عباس من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به فى السعى لدى حكومة الآستانة بوساطة سفير إنكلترا لتغيير نظام وراثة العرش ، كى يؤول إلى إبنه إلهامى ، وفى رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الإنجليزية لمنع تدخل حكومة الآستانة فى شئون مصر إذ كانت تبغى تطبيق القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات على مصر .

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومهما يكن من السبب فالمستر مرى كان له أثر ظاهر فى اتجاه أفكار عباس ، ويتبين هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولايته الحكم هو إصلاح طريق القاهرة إلى السويس ورصفه بالحجارة ، فجعله معبداً . تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وإن كانت فى ذاتها فكرة عمرانية سديدة إلا أن الموعز بها هو المستر مرى ، وغرضه منها تسهيل سبيل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر ، وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وانجلترا .

وكانت السياسة الانجليزية ترمى إلى تعبيد طرق المواصلات بين انجلترا والهند فى مصر بواسطة إنشاء سكة حديدية ، تصل الإسكندرية بالقاهرة . ومنها إلى السويس ، وكانت تعارض فى أن تنشأ بمصر طريق بحرية للمواصلات ، ولذلك عارضت فى شق القناة البحرية

عباس باشا الأول والى مصر
من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤

لبرزخ السويس ، وحبذت مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس ، وحجتها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها فى الاستعمار طريق الوصول بسفنها الحربية إلى البحر الأحمر ، ثم إلى الهند ، فيتعرض سلطانها هنالك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحبذ فتح القناة ، وتعارض فى مشروع السكة الحديدية ، لأنه مشروع انجليزى .

السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الانجليزية بضم عباس إلى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس ، ثم شرع فى مد السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزى الشهير روبرت ستفنسن Stephenson ، يعاونه مهندسون مصريون ، لكن المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم إنشاء الخط كما يقول المسيو مريو Merruau[1] . ومنهم من صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب ، مثل سلامة باشا إبراهيم ، وراتب باشا ، ومظهر باشا ، وبهجت باشا ، واستخدم عباس فى تمهيد الطريق وتركيب القضبان الجنود والبحارة المصريين ، وانشىء من سكة الحديد فى عهده الخط الموصل بين الإسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ، وتم الخط بأكمله فى عهد سعيد ، ويئس المسيو فردينان دلسبس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل إلا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كما سيجىء بيانه .

وإذا نحن صرفنا النظر عن التزاحم السياسى بين انجلترا وفرنسا ، فما لا شك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أنفع للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة . فإن مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤما عليها كما سنفصله فى موضعه ، ولأن السكة الحديدية قد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها ، بخلاف القناة .

فإصلاح طريق السويس ، والشروع فى مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ، هما من أول ما فكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا العمل الوحيد الإنشائى

---

[1] فى كتابه (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد وإسماعيل .

الذى يذكر لعباس ، لأنه لا يخفى أن السكك الحديدية هى من أعظم دعائم العمران والتقدم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدى أنشىء فى مصر ، بل فى الشرق قاطبة ، فمصر قد سبقت دول الشرق فى أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهى أقوى دول الشرق وقتئذ تأخرت عن مصر فى مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية ، وإنك لتلمح تقدم مصر وسبقها تركيا فى ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ ، فإنه ركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة فتملكه العجب ، لأنه لم يكن رأى القطارات البخارية فى حياته من قبل[2] .

ضبط الأمن

وعُنى عباس باستتباب الأمن ، فضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق ، وطاردهم وعاملهم بالقسوة ، فخشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن فى عهده ، وهذا من خير أعماله .

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءت حالتها فى عهده ، ألغى معظمها (بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على) ، وأقفلت أبوابها ، بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم . فإنه لم يكتف بإغلاق معظم المدارس ، بل أبعد إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر فى ذلك العهد ، مثال رفاعة بك رافع ، ومحمد بيومى أفندى ، ودقلة أفندى ، بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم ، والسبب الحقيقى هو إبعادهم ونفيهم من مصر ، وقد ساءت حالتهم كما بينا ذلك تفصيلا فى ترجمة رفاعة بك رافع[3] ، ومات منهم هنالك محمد بيومى كبير أساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة .

---

[2] انظر كتاب « سياحة السلطان عبد العزيز من الآستانة إلى القاهرة » لمسيو جاردى ص ٤٩ و ٥٣ و ٦٠ .

[3] راجع كتابنا « عصر محمد على » ص ٤٨٨ (من الطبعة الأولى)

[illegible] من تلاميذ المدارس التي ألغاها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها ١٨٤٩ ، وتدعى مفروزة ، إشارة إلى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية .

وقضى على ما بقى من المعامل والمصانع التي أنشأها جده بحجة الاقتصاد في النفقات .

البعثات

وأرسل إلى أوروبا ١٩ طالباً من تلاميذ المدارس المصرية لإتمام دروسهم بالمدارس الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا منذ عهد محمد على .

السودان

لم يعن عباس بالسودان عنايه جده به ، ولم يفكر يوما في زيارة ذلك الإقليم العظيم الذي يعد شطره المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شئون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها كما فعل محمد على الذي لم تمنعه شيخوخته ومتاعبه العديدة من أن يجوب السودان باحثاً متطلعاً .

الجيش والبحرية

نفذ عباس بعض الإصلاحات الحربية التي فكر فيها إبراهيم باشا قبل وفاته ، كتجديد الاستحكامات ، وإنشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فإن الجيش في جملته لم يكن موضع عنايته ، وقد تسرب إلى إدارته الخلل وسوء النظام بعد أن كان مضرب الأمثال في النظام والكفاية على عهد محمد على ، وزاد في اضمحلاله أنه أدمج فيه نحو ست آلاف من الأرناءود ، جعلهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسدسات ، فكانت لهم في عهده الصولة والسطوة ، وشمخوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداً وقواداً ، وجرد عباس الأهلين من السلاح ، وحظر عليهم حمله ، فعاث الأرناءود في الأرض فساداً ، كما اشتهر عنهم من العسف والإرهاق ، وبقى هؤلاء الأخلاط قوام الجيش في عهده .

وظل سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصري ، ولكن يده غلت عن النهوض به وإصلاح شئونه .

وساءت حالة البحرية بعد أن كانت زاهرة ، وأخذت في الاضمحلال ، ويرجع ذلك إلى إهمال عباس أعمال العمران عامة ، ثم إلى سبب خاص ، وهو كراهيته لعمه سعيد باشا ومعلوم أن سعيد كانت نشأته في البحرية ، وكان قائداً عاما للأسطول في عهد محمد على ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحرية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا ، فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف إصلاح السفن ، فسرى إليها العطب والتلف .

اشتراك مصر في حرب القرم

بقى الجيش المصري رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته في حرب القرم ، وهي الحرب الوحيدة التي خاضت مصر غمارها في عهد عباس .

نشبت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد إلى عباس باشا أن يمده بالجند والأساطيل ، فلبى عباس طلبه ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) في ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد إليها النشاط والعمل ، واستدعى إليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهز الأسطول المصري ، وعهد بقيادته إلى الأميرال حسن باشا الاسكندراني ، أحد خريجي البعثات في عهد محمد على (١) .

وأعد حملة مؤلفة في بدء الحرب من نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحي أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء إبراهيم باشا في حروب سوريا والأناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العمارة المصرية ووصلت إلى الآستانة ، ومضت إلى ميدان القتال على نهر الدانوب ، ورابط معظم الجيش المصري في (سلسترا) وكان الروس يهاجمونها ، فبلى المصريون بلاء حسنا في المدافعة عنها ، وأقاموا بها حصن عرف بطابية العرب ، كان له فضل كبير في الدفاع ، واستطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ، واستمرت الحرب إلى عهد

---

(١) ترجمنا له في الجزء الخاص من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ص ٥٣٩ من الطبعة الأولى)

سعيد باشا كما سيجيء بيانه .

وقد ساهم الأسطول المصرى فى الحرب البحرية ، فسار قسم منه إلى شواطىء الأناضول الشمالية بالبحر الأسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية السفن فى نقل القوات الحربية إلى ثغور البحر الأسود ، وبقيت تؤدى واجبها إلى انتهاء الحملة

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها ، وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله ، وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فإن قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لا يسهل اكتشاف حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع فى جنح الظلام ، بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها إلا ما تتناقله الألسنة بعد وقوعها ، ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ، ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) والأخرى ذكرتها مدام أولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد إسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣) .

ويؤخذ من رواية إسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم إليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم خواص خدمه ، ولهم عنده من المنزلة ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى صار أكثرهم رتبة قائمقام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ، وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالهمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن ، فاتخذوا من حداثته مضغ الأقاويل ، فسخط عليهم ، وشكاهم إلى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ، وجردوا من ثيابهم العسكرية ، وألبسهم خشن الثياب وأرسلهم إلى الإصطبلات لخدمة الخيل ، فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانة عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين إليه ، فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم ، فلم ينل بادىء الأمر بغيته ، فلما ذهب عباس باشا إلى قصره ببنها يصحبه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك إلى عباس فأجاب

ملتمسهما ، وأصدر أمرا بالعفو عنهم ، وردهم إلى مناصبهم ، فجاءوا إلى بنها ليقدموا واجب الشكر لمولاهم ، ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم ، فائتمروا به مع غلامين من خدمة سرايه ، يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين ، واتفق الجميع على قتله وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه ، ففى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليه سنة ١٨٥٤م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معهما ، وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير ، وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفى ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا إلى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المؤتمرون الخبر إلى اليوم التالى ولما لم يستيقظ الأمير فى موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا ، فذعرا لهذه الفاجعة ، واتفقا على إخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل إلى القاهرة فى عربة ، ووصلا به إلى قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من أنصار عباس وعلى رأسهم إبراهيم باشا الألفى أن يحولوا الحكم من بعده لنجله إبراهيم إلهامى باشا الذى كان وقتئذ بأوروبا ، فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم ، وكان سعيد باشا وقتئذ بالإسكندرية ، يقيم بسرايه بالقبارى ، فكتبوا سرا إلى محافظ الإسكندرية إسماعيل سليم باشا وأنبئوه بما اتفقوا عليه ، وطلبوا إليه القيام على الثغر حتى يحضر إلهامى باشا ، فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم ، لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد إليه من فوره ، وأنبأه بمحتوى الرسالة ، فشكره سعيد باشا على إخلاصه ، وذهب بصحبته إلى سراى رأس التين ، وأعلن اعتلاءه العرش ، وأجريت حفلة الجلوس ، وأطلقت المدافع ، ثم سافر سعيد باشا إلى القاهرة يصحبه أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا إلى القاهرة ذهب سعيد إلى القلعة وتولى زمام الحكم

تلك خلاصة رواية إسماعيل باشا سرهنك

أما رواية مدام أولمب إدوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الآستانة ، واتخذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا نفسيهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته . وكان

[illegible] من [illegible] من الخيال ، مما يرغب وكيل الأمير في شرائهما ، فجاءا القصر فعلا . [illegible] أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالها ، فاشتراهما وأدخلهما سراى [illegible] . فأعجب بهما عباس . وعهد إليهما بحراسته ليلاً ، قالت مادام أولمب دوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوي البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما ويعجزا عن فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قوتهما لإنفاذ القتل عند سنوح الفرصة ، حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس في النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا إلى السائس أن يجهز لهما فرسا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم في الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدواً إلى القاهرة ، ومن هناك فرا إلى الآستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلي مكافأة سخية على إنفاذ المؤامرة .

وتقول مدام أولمب أدوار إن إلهامي باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما في الآستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثاني ولم يعثر له على مكان ، وقيل إنه أوى إلى بلاد الأرناءود فراراً من القتل(*) .

فالروايتان ، مع اختلافهما في بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى في أن عباس مات مقتولا إثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت في قصره ببنها

ميزة عباس

كان عهد عباس كما ترى خلوا من أعمال النهضة والعمران ، اللهم ما كان من إنشاء سكة حديد بين القاهرة والإسكندرية ، وإصلاح سكة السويس الحجرية .

على أن لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهي أنه لم يفتح على مصر أبواب تدخل الأجنبي ، فلم يمكن للأجانب في البلاد ، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم ، بل ترك خزانة مصر حرة من أثقال الديون الأجنبية التي كبلها بها خلفاؤه من بعده . وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية ، دون أن يستعين بالقروض ، ولم يكن يميل إلى منح الأوروبيين امتيازات باستثمار مرافق البلاد . فهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير ، يمتاز (من هذه الناحية) على سعيد وإسماعيل . فحظ سعيد باشا أنه منح المسيو فرديناند دلسبس امتياز حفر قناة السويس . وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ، وحظ إسماعيل أنه كبل مصر بالديون الفادحة التي اقترضها من البيوت الأوروبية

(*) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب أدوار

Les mysteres de Egypte devoiles par Mme olympe Audouar

* * *

الفصل الثانى

النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا

(١٨٥٤ – ١٨٦٣)

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ، ومنها ما يكون مصدره الملوك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جديدة بأن تعد دورا من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته ، فقد كان ذا نزعة وطنية ممدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ، ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها فى كثير من إصلاحاته وأعماله ، وقوام هذه النزعة أنه كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ورفاهيتهم ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى أصابتهم ، ويخفف عنهم عبء الضرائب التى ينوءون بها ، ويبث فيهم روح الوطنية . ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والإدارة بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراكسة .

نشأته

هو ابن محمد على الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ، ونشأ فى حجر أبيه . محوطاً بعطفه ورعايته . وكان أبوه يعده ويعنى بتربيته وتثقيفه ، وتنشئته النشأة الحسنة واختار له السلك البحرى فدربه على فنون البحرية وجعل شأنه شأن تلاميذها ولعل هذه النشأة قد حببت إلى نفسه مبادىء الديمقراطية فقد كان أثناء دراسته ومرانه زميلا لطائفة من التلاميذ . ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية يعيش عيشتهم . ويسير على نهجهم . وينظر إليهم كما ينظر الطالب إلى أقرانه وأصدقائه ولما أتم دراسته انتظم فى خدمة الأسطول قومنداناً لإحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتاد النظام الذى هو أساس الحياة العسكرية فكان

[illegible] بحرى في ذلك وبملازمة ضباط الأسطول ، ومما يذكر عنه أنه لما نال حظاً من [illegible] البحرية ، وكان وقتئذ « سعيد بك » جعله أبوه معاوناً لمطوش باشا ناظر البحرية [illegible] الأسطول ، وأصدر أمره إليه بأن يمتثل لأوامره ، ويؤدى إليه التعظيم العسكرى ، [illegible] رئيساً له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنه ، احترام النظام ، [illegible] سعيد في المراتب البحرية حتى وصل في أواخر عهد أبيه إلى منصب « سر عسكر [illegible] » أى القائد العام للأسطول

[illegible] نشأة كان لها أثرها في إيلافه المبادىء الديموقراطية ، مما جعله عندما تولى العرش [illegible] المصريين ، ويعمل على ترقيتهم وتقدمهم ورفاهيتهم

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة في أخلاق سعيد ، طيبة قلبه ، وسلامة قصده وكرمه ، وشجاعته وصراحته ، وميله للخير ، وتسامحه ، وحبه للعدل ، ونفوره من الظلم والإرهاق

ولكنه إلى جانب ذلك ، كان ضعيف الإرادة كثير التردد ، لا يستقر على رأى واحد ، ومن هنا جاءت تقلباته في الخطط والبرامج والأعمال ، وانسياقه لآراء خلطائه من الأوروبيين وسرعة تأثره بما يسمعه ، ثم سرعة غضبه ، ورجوعه عن غضبه لأوهى الأسباب ، وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه ، واتجاهه إلى الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية ، وحسن ظنه بالأوروبيين ، وشدة ركونه إليهم ، وميوله الفرنسية التي جعلته يسترسل في الإصغاء [illegible] مسيو فرديناند دلسبس وأضرابه ، وفي عهده أخذ الأجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، ويتطاولون على سلطة الحكومة وسيادتها ، ويشمخون بأنوفهم ، وصار للقناصل نفوذ لم يكن لهم من قبل في عهد محمد على وإبراهيم وعباس

إصلاحاته الزراعية واللائحة السعيدية

بذل سعيد باشا جهوداً موفقة لإصلاح حالة الفلاحين والترفيه عنهم ، فخولهم حق الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، وسن لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحة السعيدية الصادرة في

٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هـ)[1] ، وهي من أعظم إصلاحاته لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان في القطر المصرى ، وهي من آثاره الخالدة التي تذكر له بالخير ، لأن الملكية هي من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان الفلاح محروماً حق الملك في عهد محمد على

وألغى أيضاً نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، ذلك النظام الذى كان معمولاً به في عهد أبيه ، وأخذ في الاضمحلال في عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يحبها

وخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملة واحدة ، ولم تكن هذه المتأخرات بالشيء اليسير ، فقد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مربو[2] ٨٠٠،٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من أعباء المتأخرات القديمة التي كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها

ورخص إلى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذى تقرره هي بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق إمتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذى يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات ، وحرية التصرف فيها ، وحيازة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة ، وبعد أن كان مستعبداً لها ، فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

واقترن تنفيذ هذا الإصلاح بمصاعب جمة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذى يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إمهالهم في الدفع ، حتى يتيسر لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء

---

[1] منشورة في القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٢ ص ١٦٨ وفي كتاب الأطيان والضرائب لجرجس بك حنين ص ٣٨٨

[2] في كتابه (مصر الحديثة) ص ٩٤

الضريبة من ثمنها ، فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى .

وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخولية التى كانت تجبى عن الحاصلات والمتاجر مما تتبادله المدن والقرى فى داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعنات وإرهاق للأهالى ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذ كانت الحكومة تقتضى على المتاجر ١٢ فى المائة من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية ، وهذا يؤدى إلى ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء ، ويضعف حركة المعاملات ، كما أن طريقة تحصيل هذه الضريبة تنطوى على نوع آخر من الإرهاق ، إذ كانت جبايتها موكولة إلى ملتزمين يبتزون الأهالى أكثر من قيمتها ، فألغاؤها فيه تخفيف عن الأهلين وتحرير للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنه لائحة للمعاشات للموظفين المتقاعدين ، وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة .

أعمال العمران

تطهير ترعة المحمودية

عنى سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية ، ذلك أنها منذ إنشائها فى عهد محمد على لم تعن الحكومة بتطهيرها ، وانقضى عهد عباس دون أن يفكر فى أمرها . فلما تولى سعيد كاد الطمى المتراكم على مدى السنين يطمرها ويسد استعمالها . فلا تعود صالحة لمرور السفن ، ولا تجرى فيها مياه الرى بالمقادير التى يتطلبها العمران .

فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، ويكاد تطهيرها فى هذه الظروف يشبه أن يكون احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو موجيل بك كبير مهندسيه فيما يلزم من العمال والجهود لإجراء هذا العمل العظيم . فحسب مقدار ما يجب رفعه من الأتربة من قاعها . فبلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول الترعة الذى يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر أى بمعدل رفع متر ونصف متر فى اليوم ، فاقتضى [illegible] سبعة وسبعين ألف عامل ، وبذلك يتم تطهير الترعة على هذا المقياس فى ثلاثين يوماً .

فأصدر سعيد أمره إلى المديرين بإرسال هذا العدد من الفلاحين ، ولم تكلف المديريات بإرسال العدد المطلوب ، بل [illegible] ، وأرسلت ٥٠ ألف عامل ، ووزع هذا العدد على طول الترعة ، ووزعت عليهم الفؤوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، واحد منهم يحفر الأرض بفأسه ، والثانى يملأ المقطف من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها إلى جانب الترعة ، حيث أمر سعيد باشا بإنشاء طريق زراعى معبد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالسهر على صحة العمال ، فحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير الترعة وإنشاء الطريق فى إثنى وعشرين يوماً ، دون أن يموت أحد من العمال . بخلاف ما وقع حين إنشائها فى عهد محمد على ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعجزهم العمل عن خمسة فى الألف(٣)

فكان هذا العمل الضخم وإتمامه فى هذه المدة القصيرة مدعاة للإعجاب ، لما تجلى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التى تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فرديناند دلسبس على إغراء سعيد باشا بتسخير الآلاف من الفلاحين فى احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذه الإغراء أن يسخر الألوف المؤلفة منهم فى عمل عاد بالضرر الوبيل على مصر والمصريين .

السكك الحديدية والتلغرافات

توفى عباس قبل إتمام الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات وبنها حتى وصل إلى العاصمة ، ولم تكن الكبارى قد بنيت على النيل ، فكان القطار عند اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر إلى آخر

---

(٣) مريو : مصر الحديثة ص ١٢٣

وأنشأ خطوطا للمراقبة على الطريقة الحديثة من الإسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها فى عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة

ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس تكملة لخط الإسكندرية والقاهرة ، وفتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس وعمرانها بالفوائد الجمة . لأنه كان سبباً فى زيادة ورود السفن التجارية إلى هذا الثغر لنقل متاجرها وركابها إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطت حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن إليها شرع سعيد باشا فى إصلاح مينائها

ومن أعماله فى العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها فى مخازن أعدت لها فى بولاق ، وعهد بهذه المهمة إلى العالم الأثرى ماريت (باشا) كما سيجيء بيانه ، وعهد إلى العلامة محمود بك (باشا) الفلكى الرحلة إلى دنقلة لرصد كسوف الشمس بها ، فقام بهذه المهمة واغتنم هذه الرحلة لتحقيق ٤٢ موقعاً من المواقع الفلكية بين أسوان ودنقلة .

وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه فى أدائه طائفة من المهندسين المصريين .

إصلاحاته الحربية وبثه الروح القومية فى الجيش

يشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول حببت إليه الحياة الحربية ، برية كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شئون الجند . وكثيراً ما كان يصرف أيامه فى معسكر الجيش ، وتعرض عليه شئون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير متنقلا فى أنحاء البلاد .

ولقد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصبغه بالصبغة الوطنية . وذلك أن الجيش كان قد اضمحل فى عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه . وفقد الروح التى كانت تبعث عليه صفات العظمة والبطولة فى عهد محمد على وإبراهيم . فعمل سعيد على أن يرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهداً كبيراً فى إصلاح حاله

فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها فى الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن فى ترغيب الانتظام فى سلك الجندية إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف – سنة ١٩٣٢ –) ، وقر فى أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلى بها تلك الطبقات ، ومما زاد فى نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيبتهم عن أهلهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم فى الحروب المتواصلة التى حدثت فى عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مصيرهم .

فلإصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عممها على جميع الشبان ، على اختلاف طبقاتهم . فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل فى نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين ، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً إلى قراهم وعائلاتهم ، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية ، بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجندية ، وترغب الشبان فى الخدمة العسكرية ، لأن العمد والمشايخ هم فى الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخول أبنائهم فى سلك الجيش تكريم للجندية ، وتقويم لنفوس الشبان إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عنهم من جهة الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون أنهم تحت لواء الجيش أحسن حالا مما كانوا عليه فى قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ومظهراً .

وكان لهذا الإصلاح أثره فى إيلاف الأهالى الخدمة العسكرية ، وفى تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون إلى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا ينقلون إليها مبادىء النظام والتقدم والنظافة التى تعودوها فى ظل الجندية .

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلا لألفت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعتادها الشبان من مختلف الطبقات

وكان سعيد باشا ميالاً إلى ترقية الضباط المصريين وإعطائهم حقهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم إلى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت محصورة فى الترك والشراكسة ؛ وقد نقل عنه عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل ، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين

« أيها الإخوان ، إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة ، كدولة الرعاة (الهكسوس) والآشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان ، والرومان ، هذا قبل الإسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول بعضها كالأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين من العرب ، والترك ، والأكراد ، والشراكسة ، وكثيراً ما [illegible] فرنسا عنها حتى حملتها فى أوائل هذا القرن فى زمن (بونابرت) ، وحيث أنى أعتبر نفسى مصرياً ، فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل »[٤] .

ويقول عرابى باشا فى مذكراته تعليقاً على هذه الخطبة ، إنه لما انتهى سعيد باشا من إلقائها خرج المدعوون من الأمراء والعلماء غاضبين ، حانقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ (مصر للمصريين) . قال : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة » .

هذا ما يقوله عرابى باشا ، وهو قول لا غبار عليه ، ونضيف إليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة فى عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد فى حاجة إلى نشوب الثورة العرابية ، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذى أبدعه سعيد باشا ، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لتم الغرض الذى دعا إليه العرابيون فى سكينة وسلام ، ولكانت البلاد فى غنى عن قيام تلك الثورة ، مهما قيل لها أو عليها ، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة [illegible] ، وهى أنها أفضت بالبلاد إلى الاحتلال الإنجليزى ، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية . وكان يهتم بها أحياناً ويجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من [illegible]

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى اهتمامه بشئون الجيش ومرجع ذلك إلى ضعف إرادته ، وقلة حزمه ، وتقلبه فى الرأى . وقد كان هذا الخلق من مواضع ضعفه . فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى فى يومه نقيض ما رآه بالأمس . ولا يثبت على رأى واحد فيما

---

[٤] مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار) ص ١٩

هو يعنى بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه ، فلا يبقى منه إلا النزر اليسير

ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش ، ولم يبق منه إلا ست أورط من المشاة وثلاثة بلوكات من الفرسان ، وبلوكين من الطبجية . ولما سافر فى رحلة إلى السودان أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب أورطتين من الجيش وبقى الأورط الأربع الأخرى بالقاهرة والإسكندرية وبنى سويف ، ثم جمع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية بالقناطر الخيرية . وذلك لخوفه من أن يقوم الجيش بثورة فى البلاد أثناء غيابه بالسودان

وفى سنة ١٨٦٠ أعاد الجيش ثانياً وأعاد إليه الضباط ، ونظم فيالقه . وكانت فرصة الاستعداد للقتال حينما توترت العلاقات بينه وبين تركيا ، بسبب مسألة قناة السويس . وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به فى مريوط وأقام هناك ثلاثة أشهر كان لا ينفك خلالها يجرى المناورات الحربية وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤,٠٠٠ مقاتل كما أحصاه إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا .

وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق ، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده ويلازمهم فى معظم أوقاته .

وذكر عنه المسيو فرديناند دلسبس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً إلى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مقاتل . وذلك لكى يخصص أكبر عدد من المقترعين لأعمال الحفر فى قناة السويس[٥] ومن هذا يتبين لك أن القناة ، علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيجىء بيانه ، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصرى .

البحرية

قلنا أن سعيد باشا نشأ نشأة بحرية ، وانتظم فى سلك الأسطول قبل أن يتولى الحكم ، فكان ميالاً بطبعه ونشأته إلى إحياء البحرية المصرية ، بعد ما أصابها من الاضمحلال والإهمال فى عهد عباس

---

[٥] وثائق عن تاريخ القناة للمسيو فرديناند دلسبس ج ١ ص ٣٣٣

وقد وجه عنايته فعلا إلى ترقية شأن الأسطول . فلما عادت السفن الحربية المصرية من حرب القرم أمر بإصلاحها وإنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن انجلترا خشيت أن تعود إلى مصر قوتها البحرية ، التي كانت لها في عهد محمد علي ، فأوعزت إلى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الأسطول . وصورت للسلطان هذا العمل موجهة إياه أن الأسطول إذا قوي شأنه يصبح خطراً يتهدد تركيا كما كان في عهد محمد علي ، فاستمع السلطان لدسائس انجلترا ، وأصدر أمره إلى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول وإنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية ، وقد ذكر إسماعيل باشا سرهنك في كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الراسية أمام دار الصناعة بالإسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسيم وإنها إذا تركت وشأنها أصابها التلف ، أمر بتكسيرها وبيع أخشابها وإحراق ما لا يصلح منها ، وسرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم في الوظائف الملكية ، وخاصة في مصالحه الرئيسية ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهي التي دعيت مصلحة (الاعجوبية) ابتاع لها كثيرا من البواخر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية في عهد سعيد ، ذلك أن الدول الأوروبية أخذت تستبدل بالسفن الحربية الشراعية السفن الجديدة البخارية التي صارت الأساطيل الحربية تتألف منها ، ولكن مصر قصرت عن مجاراة الأساطيل الأوروبية في هذا المضمار ، ومن هنا أمعنت البحرية المصرية في الضعف وآلت حالها إلى الاضمحلال

ولو كان سعيد باشا على شيء من العزيمة التي امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذي بذلت مصر في سبيل إنشائه ما بذلت من المجهود يتبدد ويتكسر ، ولما صدع لأوامر السلطان في هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتعهد الأسطول ، فيصلح ما يعطب من سفنه ، ويجدده بإنشاء السفن الحربية البخارية بدلا من السفن الشراعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذي كان يجدر به أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ في البحرية يمارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن

أهمل إذن سعيد شأن البحرية الحربية ، على أنه عني بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما نهرية ، والأخرى بحرية

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية ، أسست سنة ١٨٥٤ والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على البواخر

والسبب الذي دعا سعيد باشا إلى تأسيس هذه الشركة أن المراكب الشراعية التي تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد إلى الإسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر في سيرها ، بمعاكسة الريح . فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في خمسة عشر يوما . في حين أن البواخر تقطعها في ست وثلاثين ساعة . ولما كانت الإسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل . فتأخر السفن الشراعية يؤدي إلى أزمة في الأقوات . وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها ، هذا إلى ما في استخدام المراكب الشراعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة ، فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين ، ومعظم رءوس أموالها أجنبية ، ولعل هذه أول شركة أجنبية أسست في عهد سعيد باشا

ولم يكن من أصحابها من المصريين سوى رئيسها الفخري (الذي لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من الماليين الأجانب من مختلف الأجناس ، وهم المسيو رويسنر Ruyssenaers قنصل هولندا العام في مصر ، والمسيو بولاني pppolani ، وكوينج بك Koenig Bey سكرتير سعيد باشا الأوروبي ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسي الري ، وأيدى Aide وليونيداس ليغوس Lyghounes ، ومدة امتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خلاف بينها وبين الحكومة فلا يرفع الخلاف إلى المحاكم بل يحسم بواسطة التحكيم ، وأن بواخر الشركة ترفع العلم المصري باعتبارها تابعة لشركة مصرية

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) ، ولم تكن مصرية إلا بالاسم وكان في إمكان الحكومة أن تشتري البواخر من مالها بدلا من الالتجاء إلى رءوس الأموال الأجنبية ، وقد سوغ أنصار سعيد باشا إعطاء هذا الامتياز لشركة أوروبية بقولهم أن الحكومة تعهدت إلى الشركة بالقيام ببعض أعمال الإصلاح في ترعة المحمودية دون تكليف الخزانة المصرية نفقتها ،

توسيع مأخذ الترعة من النيل ، وتوسيع مصبها في البحر الأبيض المتوسط ، وتطهيرها ، وإنشاء مصبات عند العطف لتسييها

شركة الملاحة البحرية (الشركة المجيدية)

أما الشركة الثانية فهي شركة مساهمة للملاحة البحرية ، تأسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا ، وعضوية مجلس إدارتها جماعة من الوطنيين والأجانب ، وهم نوبار باشا (وكان لم يزل بك) بصفة نائب الرئيس وله في غيبته أن يقوم بأعمال الرآسة وعبد الله بك ، والمسيو دمريكر Dumreicher وحسن كامل بك وإسماعيل صبري بك والمسيو بين وعثمان بك ، ومسيو باستري Pastre ، والمسيو روبيير ، وسعيد أفندي ، وهوج توربرن Huge Thurburn والمسيو زكالى zaccali

وسميت (القومبانية المجيدية) نسبة إلى إسم السلطان عبد المجيد الذي كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ . والغرض منها تسيير البواخر في البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندي ثم الخليج الفارسي وفي البحر الأبيض المتوسط . وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع وتنقل الحجاج ذهابا وإيابا إلى ثغور الحجاز ولها بواخر أخرى بالبحر الأبيض المتوسط ومدة امتيازها ثلاثون سنة . وبواخرها ترفع الراية المصرية ومنازعاتها لا ترفع أمام محاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية ولها مستودعات ومحطات في السويس والقصير ومصوع

ولكن هذه الشركة قد سرى إليها الاضمحلال في أواخر عهد سعيد لفساد إدارتها ، فضمنتها الحكومة وبيعت سفنها على عهد إسماعيل وعوضت الأسهم إلى أصحابها مقسطة على عشر سنوات ضمن مع فوائدها ٣٤٠٠٠٠ جنيه ، وحلت محلها الشركة العزيزية التي أنشأها إسماعيل كما سيجيء بيانه

إصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والعمران في السويس بعد إنشاء السكة الحديدية التي تصلها بالقاهرة . وبعد إنشاء الشركة المجيدية للبواخر واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة في البحر الأحمر فكر سعيد باشا في إصلاح مرفئها وتوسيعه ، وعهد بذلك إلى شركة فرنسية تعرف بشركة (دسو) Dussaud وتعاقد وإياها على إنشاء حوض عائم بالميناء لإصلاح السفن وعلى توسيع الميناء وقد كملت هذه الإصلاح في عهد الخديوي إسماعيل

حروب مصر في عهد سعيد باشا

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا في حربين :

الأولى : حرب القرم

والثانية : حرب المكسيك .

١ – حرب القرم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر في هذه الحرب على عهد عباس باشا ، وحسن بلاء الجيش المصري في الدفاع عن (سلسترا)

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصري بها

ومما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال ، إذ كانوا يقاتلون في شدة البرد خلال شتاء عامي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، ولقي الكثير منهم حتفهم في ميادين القتال ، أو من فتك الأمراض . وقد دافعوا دفاعا مجيدا عن (أباتوريا) ، وهي مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، إحتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة في شبه الجزيرة

واستشهد سليم باشا (فتحي) القائد العام للجيش المصري في حصار (أباتوريا) . ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة ، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها . فبينا هو قائم بأعباء القيادة أصابته رصاصة في جبهته أردته قتيلا ، ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة ، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش . ووقعت وقع الأسى في نفوس الجند والضباط

ذكر المسيو (فانترينيه) Vingtrinier نبأ مقتله في كتابه (سليمان باشا) قال : « إن مصر شعرت بالألم الشديد لموته ، إذ فقدت فيه قائدا فذا في الكفاءة الحربية ، وحلا زعيما محنكا للجيش اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه »

و[illegible] باشا فتحى ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى ، و[illegible] عن [illegible] مبارك (باشا) من أركان حربه . وكان وقتئذ ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، واشترك فى الحرب كما [illegible] فى ترجمته بالفصل التاسع

ونال الجيش المصرى فى حرب القرم ثناء مستحقاً ممن شهدوا حسن بلائه فى القتال نقل المسيو فانربيه فى كتابه (سليمان باشا) ما ذكرته فى هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية قالت

« أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن أبياتوريا . ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب . واحتملوا وحدهم معظم العبء فى الدفاع عن سلستريا »

وقالت فى مواطن أخرى : « إن المصريين يعرفون فى الجيش التركى وفى البلاد التركية بالعرب . وطريقتهم فى القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التى تجمع إلى الشجاعة والإقدام . الذكاء والنظام »[1]

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسى فى حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصرى قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) – « لقد اشترك قسم من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم ، وحين كنت محافظاً لأباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ ألف جندى ، يؤلفون جزءاً من جيش عمر باشا ، ورأيت هذه الفرقة فى المناورات الحربية ، كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب ، بجانب فرقتين من الترك . وأشهد بما كانت تفوق الفرقتين التركيتين فى كل المزايا »

وقال المسيو مريو فى كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى فى عهد سعيد باشا لمناسبة حرب القرم

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى ، واتباعه إياه ، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء ، كل هذه المزايا قامت عليها البينات ، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب ، بل يحس دفاع الجيش المصرى عن [illegible] فى حرب القرم الأخيرة »[2]

وقد غرق الأميرال حسن باشا الاسكندرانى قائد الأسطول المصرى فى تلك الحرب ،

---

[1] سليمان باشا للمسيو فانربيه ص ٥٧٣

[2] مصر حديثة للمسيو مريو ص ١٢

وذلك أنه كان عائداً بأسطوله من الآستانة لإصلاح بعض السفن ، فهبت على الأسطول ريح عاصفة ، وتكاثر عليه الضباب ، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز ، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والضباط ، وعددهم ١٩٢٠ مقاتلا . ولم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الغرقى حسن باشا الإسكندرانى وعثمان بك من قواد الأسطول المصرى .

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعة سباستبول ، وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب الحلفاء

٢ – حرب المكسيك

والحرب الثانية هى حرب المكسيك ، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر فى حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شاءت ميول سعيد نحو نابليون الثالث إمبراطور فرنسا فى ذلك العهد وصداقته له أن يلبى دعوته حينما طلب إليه أن يمده بقوة حربية مصرية تعاون الجيش الفرنسى بها .

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات ، كما هو شأنها إلى اليوم ، وكان يتولى رآسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز Juarez ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هوى فى نفس الإمبراطور نابليون الثالث ، واعتزم أن يتخذها وسيلة لبسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها إمبراطورية تحت رعايته . وتذرع بحق الرعايا الأوروبيين فى حرب لاقوه من الضرر ، فطالبت الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر فلما رفضت [illegible] اخطرا وأسباب ، ثم [illegible] هاتان الدولتان [illegible] جرد على المكسيك حملة [illegible] فى خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فسرعان ما أمده بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى ، والصاغ محمد افندى الماس ، فأبحرت هذه القوة إلى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبلت فى الحرب هناك بلاء حسناً . وشهد لها المارشال فورى Forey قائد الجيش الفرنسى بالشجاعة إذ قال عن جنودها : « إن هؤلاء

[illegible] الجنود [illegible] هو مدون(٨) ، واستمرت الحرب سجالا بين الجيش الفرنسي وقوات [illegible] ، ونصبت الإمبراطورية في عاصمة مكسيك فترة من الزمن ، وجلس على عرشها الإمبراطور مكسيمليان النمسوي سنة ١٨٦٤ . ثم كانت الغلبة لقوات الثورة ، فجلا الفرنسيون عن البلاد ، وقتل الإمبراطور مكسيمليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ . وفي غضون ذلك ظلت الكتيبة المصرية تكافح في تلك البلاد السحيقة بضعاً وأربع سنوات . فقتل في خلالها البكباشي جبرة الله ، فخلفه ألماس افندي ، وفني معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد انتهاء الحرب سوى نفر من ضباطها ، ونحو ثلثمائة من جنودها . ولما جلا الجيش الفرنسي عن المكسيك عادت الكتيبة إلى فرنسا ، فاستعرضها الإمبراطور نابليون الثالث ، بصحبة القائد المصري شاهين باشا ، الذي كان يزور باريس وقتئذ ، فهنأ الإمبراطور ألماس أفندي على شجاعة الكتيبة وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المصريين من رجالها . ووصلت إلى مصر في مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوي إسماعيل بسراي رأس التين بالإسكندرية ، وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريماً لهم ولسائر رجال الكتيبة

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتاً ما . ولم يحدث في عهده مما يسترعي النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها في كتاب « عصر محمد علي » (ص ٤٨٨ من الطبعة الأولى)

وتولى منصب الحاكم العام للسودان في عهد عباس خالد باشا الذي كان يشغله من عهد محمد علي ، ثم عبد اللطيف باشا الذي أنشئت في عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية . ثم رستم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم إسماعيل باشا أبو جبل ، ثم سليم باشا ، ثم علي باشا سري

ولما توفي عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه ، فقد اختص من به فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتمم لمصر ، وفي أول عهده جعل علي باشا شركس حكمداراً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارته ، وإصلاح

---

(٨) راجع تاريخ هذه الكتيبة في البحث المسهب المنشور في مجلة مصر **Revue d'Egypte** بالسنة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره إسماعيل باشا سرهنك في كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦

شئونه ، ولكن الأمير لم يعمل جديداً فيه ، فظهر وباء حمى فعجل بالعودة إلى مصر ثم اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كي يعمل [illegible] فذهب إليه بصحبة طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا ، وذو الفقار باشا ، وإبراهيم بك البيباوي ، ومسيو فرديناند دلسبس ، والدكتور أباته بك ، وأركيل بك أخي نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم في ١٩ يناير سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الأهلين ، فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، وساورته يوماً فكرة إخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن إخلاء السودان يؤدي لا محالة إلى تفاقم الحالة فيه ، إذ تعمه الفوضى . فعدل سعيد عن رأيه ، واعتزم إصلاح حالته ، فأمر بإعفاء الأهالي من المتأخر عليهم من الأموال . وخفض الضرائب تخفيضاً عظيماً ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقي في الأطيان ، لأن السواقي تختلف حسب الأرض ، ودرجة إنتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التي تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الأطيان التي تروى من غير حاجة إلى السواقي فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشاً

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالي يشكون من سوء معاملتهم ، واعتزم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بإنشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء المشايخ والعائلات(٩) ، ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك أسار الكثيرين منهم ، ورسم بإلغاء السخرة ، وأمر مديري الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين ، وألا يرهقوهم في جباية الضرائب ، وقضى ألا يعهد إلى الجنود في تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة

ومن إصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات في صحراء (كروسكو) . لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين

ولما عاد إلى مصر عهد إلى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادي حلفا والخرطوم ، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض [illegible] سكة حديد ووضع مشروعاً لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يتطلبه من النفقات . وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة في إدارتها

---

(٩) ذكر ذلك مسيو فرديناند دلسبس في كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٤٨٨

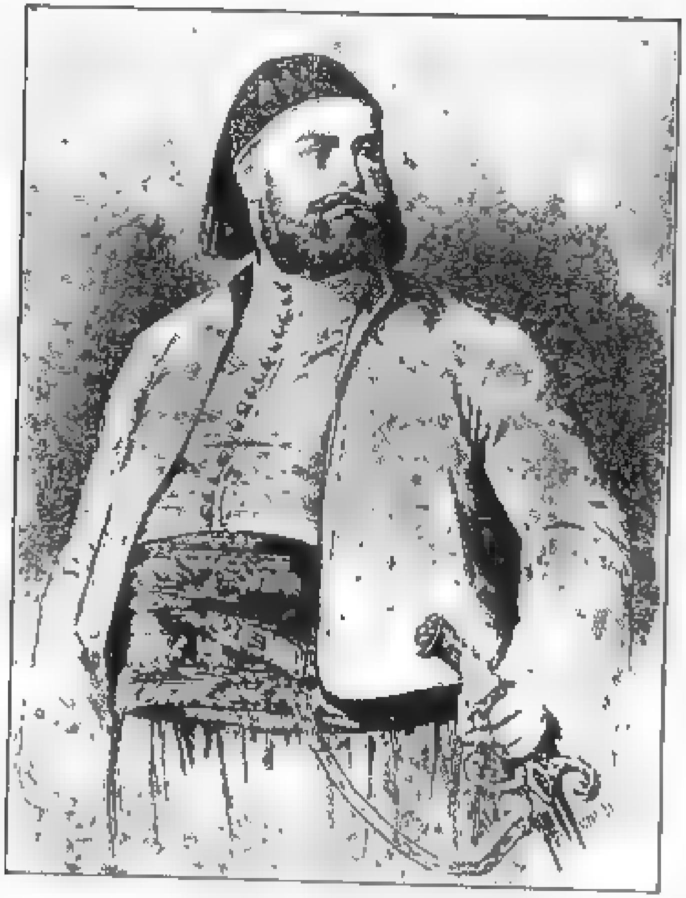

سعيد باشا والى مصر
من سنة ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣

بعضها عن بعض ، ترجع كل منها في شئونها إلى وزارة الداخلية وشأن مديريات القطر المصرى ، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعين أراكيل بك نوبار مديراً لها ، لكى يشرف على الإصلاحات التى قررها ، وقد بقى يتولى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٥٨ ، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يجنحون إلى الاستبداد والظلم ، ويسيئون إلى الأهلين ، فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب حكمدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب ، فكان من أعظم ولاة السودان شأناً ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الأهلين نظار أقسام (مأمورى مراكز) ، ومعاونين ، وعقد رؤسائهم مجلساً ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب ، وتسهيل جبايتها

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية في أنحاء السودان ، فكثر عدد المكتشفين فى عهده ، ولكنه لم يحذ حذو أبيه فى إيفاد بعثات مصرية كالبعثة التى أنفذها محمد على إلى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الأجانب ، وهى ناحية ضعف وقع فيها هو وإسماعيل من بعده

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد إلى الحجاز فى أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضاً سياسياً ، فإنه لم يذهب إلى الحجاز فى موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية ، إذ كان يصحبه من الجند والحاشية نحو ألفى رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع ، واختلفت الآراء فى البواعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق (باشا)(١٠) الذى رافق الأمير فى رحلته أن لها سبباً سياسياً ، وهو استدعاء الحكومة التركية إياه للحضور إلى الآستانة ، فرفض الذهاب إليها ، واعتزم زيارة المدينة لكى ينتحل الأعذار ويجد مسوغاً للرفض ، وبدأ سعيد باشا رحلته فى ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير سنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة إلى السويس ، ومنها إلى (الوجه)

---

(١٠) فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ٩٩ تحت عنوان المدينة منذ عشرين عاماً Médine il y a vingt ans

من ينبع البحر ، ثم سارت الحملة برًّا إلى المدينة المنورة ، ووصلتها فى أول شعبان (١٢ فبراير) ، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى ﷺ غادر المدينة فى اليوم السادس منه ، وسار إلى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) إلى السويس فوصل إليها فى ١٧ منه (٢٨ فبراير) .

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عنايته إلى إحياء النهضة العلمية ، واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس ، وهذا موضع نقد شديد فى تاريخه .

وقد حاول المسيو (مريو) ، وهو من المعجبين بسعيد ، أن يلتمس مسوغاً لهذا التقصير المعيب ، فلم يجد ما ينهض بدفاعه ، قال فى كتابه (مصر الحديثة) :

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس ، فأصابها الاضمحلال والتدهور ، وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعل الباشا يرى من الحكمة إقفالها نهائياً ، بدلا من السعى فى تنظيمها . إذ كان السعى عبثاً لا يجدى »[11] .

وهذا دفاع كما ترى لا يسوغ عمل سعيد ، إذ ليس من المعقول ولا مما يقبله المنطق أن يعالج التقهقر فى المدارس بإقفالها ، بل العلاج المشروع هو تنظيمها وإصلاحها ، وإذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم ، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختل من شئونها

تولى سعيد الحكم وليس بالقطر المصرى من المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على سوى النزر اليسير ، فلم يعمل على إحياء ما اندثر منها بل ظهر عدم اكتراثه بشئون التعليم بإلغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٥٤ ، وكان يتولى نظارتها العلامة على بك مبارك (باشا) فأبعده سعيد ضمن الحملة التى أرسلها لمساعدة تركيا فى حرب القرم واغتنم هذه الفرصة لإقفال المدرسة ، وألغى أيضًا مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥

وأنشأ مدرسة حربية بالقلعة عهد بنظارتها إلى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب .

---

[11] مصر الحديثة للمسيو مريو ص ٨٢

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حربية نقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية ، وأعاد فتح المدرسة البحرية بالإسكندرية .

وفى عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العينى ، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقابلات عهد بنظارتها والتدريس فيها إلى السيدة جليلة تمرهان التى تلقت علومها الطبية فى مدرسة القابلات القديمة المنشأة على عهد محمد على والملغاة فى عهد عباس .

وفترت حركة البعثات العلمية فلم يرسل إلى أوروبا سوى ١٤ طالباً .

ومع جمود حركة التعليم إلى هذا الحد فإنه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها ، فمنح إعانات سنوية لراهبات البون باستور Bon Pastour (الراعى الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والإسكندرية ، ولراهبات الصدقة بالإسكندرية ، ووهب للبعثة الأمريكية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الإيطالية بالإسكندرية إعانة قدرها ٢٤,٠٠٠ جنيه ، ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الإسكندرية لتنشىء بها المدرسة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى ، وهذا من متناقضاته .

نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد

النظام السياسى

بقى الحكم فى عهد عباس وسعيد حكماً مطلقاً يتولاه ولى الأمر إذ كان يجمع فى يده السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فهو المرجع فى كليات الأمور وجزئياتها

وأهمل (مجلس المشورة) الذى أسسه محمد على وانعقد على عهده حيناً وكان نواة لنظام شورى (راجع كتاب « عصر محمد على » ص ٥٧٢) فلم يظهر له أثر فى عهد عباس وسعيد

المجلس الخصوصى

ذكرنا فى كتاب عصر محمد على (ص ٥٧٩) أن محمد على أنشأ سنة ١٨٤٧ مجلساً دعاه (المجلس الخصوصى) ، واختصاصه النظر فى شئون الحكومة الكبرى ، وسن اللوائح

وقوانين ، وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وكان يرأسه إبراهيم بك

وقد أعيد تأليف هذا المجلس فى عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت فى ٨ ربيع آخر سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩) وتولى رئاسته الكتخدا باشا وهو أكبر موظفى الحكومة ، وأعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وترتيب النظم العمومية وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى ، فكان بمنزلة مجلس نظار ، وتولى السلطة التشريعية ، وشاركه فيها مجلس الأحكام . وقد بقى هذا المجلس قائماً إلى أن خلفه مجلس النظار فى عهد إسماعيل

الوزارات

وفى سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات وهى الداخلية ، وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت ، والمالية وعهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل والحربية وتولاها الأمير محمد عبد الحليم ، والخارجية وتقلدها اسطفان بك أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على

النظام القضائى

مجلس الأحكام

وكان فى البلاد منذ عهد محمد على هيئة قضائية عليا تسمى (جمعية الحقانية) أنشئت سنة ١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام ، وهو المجلس الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد وإسماعيل ، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا فى البلاد ، ويتألف من تسعة أعضاء من الكبراء ومن عالمين أحدهما حنفى والآخر شافعى ، وكان أيضاً يشارك (المجلس الخصوصى) فى السلطة التشريعية

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت فى عهد محمد على ، وبقى لها اختصاصها فى المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ، غير أنه أنشئت محاكم أو مجالس جديدة

للفصل فى المسائل المدنية والتجارية تسمى (مجالس الأقاليم) ، بلغ عددها خمسة فى بداءة تأسيسها ، وهى (مجلس طنطا) ويختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة ، و (مجلس سمنود) ويختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقليوبية ، و (مجلس الفشن) ويختص بنظر قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم ، و (مجلس جرجا) ويختص بنظر قضايا أسيوط وإسنا وقنا ، و (مجلس الخرطوم) ويختص بنظر قضايا السودان

وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود) فإنه يتألف من رئيس وعضوين

وعين بكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفى والآخر شافعى .

وكان (المجلس الخصوصى) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين لهذه المجالس ، فكانا بمثابة هيئتين تشريعيتين فى البلاد ، ويتبين من ذلك أن مجلس الأحكام فوق كونه هيئة قضائية عليا كان أيضاً هيئة تشريعية

ولاية القضاء

إن أهم إصلاح قضائى تم فى عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان العمل جارياً على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم[١٢] .

وهذا الإصلاح فضلاً عما فيه من تحقيق الاستقلال القضائى لمصر فإنه منع مصدراً من مصادر الفساد فى النظام القضائى ، فإن قاضى القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال ، وفى ذلك من إفساد القضاء ما لا يخفى عن الأذهان

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

وفى سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام ، فأصدر أمراً بإلغائه ، ويقال إن سبب هذا الإلغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينهجوا طريق الاستقامة ، وقد أمر بإحالة الدعاوى التى كانت من خصائص المجلس على الأمير إسماعيل باشا (الخديو) وكلفه عرض

---

[١٢] مصر الحديثة للمسيو مريو ص ١

ما يبرم عرضه على سعيد باشا ذاته ، أي أنه لم ينشئ هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام [illegible] ولكنه رجع وأمر بإعادة تأليف مجلس الأحكام وأسند رئاسته إلى الأمير إسماعيل باشا سنة ١٨٥٦ ، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه ، وكان سعيد مشهوراً بكثرة تقلبه في الآراء والميول ، وسبب غضبه أنه انتهى إليه أن أعضاءه ارتكبوا رشوة في قضية عرضت عليهم ، فارتأى إلغاءه سنة ١٨٦٠ وألغى كذلك (مجالس الأقاليم) . على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر بإعادة مجلس الأحكام وعين محمد شريف باشا (الذي صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له ، وكان من قبل ناظراً للخارجية ، وأعاد كذلك مجالس الأقاليم ، ولكنه اقتصر منها على مجلسين ، أحدهما بطنطا ، ويختص بنظر قضايا الوجه البحري ، والثاني بأسيوط ، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلي .

وكان العمل أمام (مجلس الأحكام) ومجالس الأقاليم يجري طبقاً للقانون السلطاني والقوانين التي أصدرها سعيد باشا .

وكان مجلسا طنطا وأسيوط بمكانة ابتدائية في المنازعات ، ومجلس الأحكام ينظر فيها بصفة استئنافية ، ولما تولى الخديو إسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممها في المديريات كما سيجيء بيانه .

قضاء الأجانب

بقيت محاكم التجارة التي أنشئت في عهد محمد علي قائمة إلى عهد سعيد وإسماعيل وهي تسمى (مجالس التجار) في الإسكندرية ومصر ، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر في المشاكل الخاصة بالأجانب ، ولكن كثرة نزوح الأجانب إلى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الإدارة لا تستطيع التفرغ لحسمها ، فأنشئ سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون ، يتألف من رئيس مصري وعضوين مصريين ، وعضو أوروبي ، وآخر يوناني ، وعضو إسرائيلي ، وآخر أرمني (١٣)

---

(١٣) انظر كتاب المحاماة فتحي باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات .

ويختص بنظر القضايا التي ترفع من الأجانب على الرعايا المحليين ، وللقنصليات أن ترسل مندوباً من قبلها لحضور الجلسات ، وأحكامه تستأنف أمام (مجلس الأحكام) ولم يكن من خصائصه النظر في المسائل المتعلقة بالعقار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية بعد وجود المحاكم الجديدة في البلاد

ثمرات التدخل الأجنبي

اجتمع في سعيد باشا عيبان جوهريان ، الأول : ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثاني : وهو أكبر خطراً وأسوأ أثراً من الأول ، وهو ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فامتحنت في كيان مصر ثمرات التدخل الأجنبي ، وأهم هذه الثمرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية .

١ – امتياز قناة السويس

نظرة عامة

يعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون إنه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للإنسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون إلى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى بتقريبها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضاً الاستعمار الأوروبي ، لأنها مكنت الدول الاستعمارية من إرسال الحملات والتجاريد الحربية من طريق [illegible] إلى آسيا وأفريقية لإخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الأطلنطي ورأس الرجاء الصالح ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمكاره والأخطار .

فمن الوجهة الأوروبية لا جدال في أن فتح قناة السويس عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الأوروبي .

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شؤماً على البلاد واستقلالها [illegible] أصبحت مطمعاً لدول الاستعمار ، وجعلتها تسعى سعياً حثيثاً للاستيلاء على مصر ، وتضاعفت جهودها القديمة لتحقيق هذا الغرض ، ومن المحقق أن مساعي انجلترا خاصة في احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وسعياً في ذلك أنها أرادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الموصل إلى الهند ، وتستأثر بوضع يدها عليه ، وهي حجة لا أساس لها من الحق والإنصاف ولكنها الأمر الواقع الذي توحي به مطامع الفتح والاستعمار . فانجلترا بعد فتح القناة صارت أكثر تطلعاً وأقوى تحفزاً إلى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تفوت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يفطن إليها إسماعيل باشا عندما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به إلى غايته

وإذا كان المؤرخون الإفرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا ، فإننا نعده بالعكس أكبر غلطة له في تاريخه ، لأنه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعماري في مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفاً للمطامع الأوروبية

ويزيد في تبعته أنه كان مخالفاً لرأي أبيه العظيم محمد علي ومعارضته في فتح القناة ، ويعلم عندما منح امتيازه أنه خالف وصايا أبيه الذي كان يعد القناة بسفوراً ثانياً يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر .

إن للمسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة ، إذ صار ينظر إليها كأنها هي مسألة قناة السويس ، فكأنها اندمجت فيها ، وتتبدل أوضاعها تبعاً لهذا الاندماج . وصار النظر إليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطاً بوجهة نظرها في مسألة القناة ، ومعنى ذلك أن [illegible] جعلت خطتها في مسألة القناة أن تسعى جهدها في وضع يدها عليها وعلى [illegible] التي تجتازها ، وأن يكون بيدها مفاتيح القناة ، ولذلك وضعت نصب عينيها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذه الطريق البحرية الخطيرة الموصلة إلى مستعمراتها في الشرق

وأصبح فتح القناة يعادل في تأثيره الاستعماري بالنسبة للمسألة المصرية غزوة [illegible] مصر . [illegible] عرفت ، كيف أن الحملة الفرنسية جعلت انجلترا تتطلع إلى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس . والفارق بين الحادثين أن انجلترا قد أخفقت في تحقيق مطامعها التي أثارتها الحملة الفرنسية ، وارتدت عن الكنانة دون أن تنال منها منالاً ، وسويت المسألة المصرية في عصر

محمد علي طبقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التي كفلت لمصر استقلالها الداخلي التام . وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة ، ومن ثم تغيرت أوضاعها ، وسعت انجلترا من جديد في تحقيق أطماعها القديمة التي أحبطت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية . ولقد كان هذا الدور شؤماً على البلاد ، إذ [illegible] به [illegible] سيئة في مكنت انجلترا من تحقيق أطماعها في مصر ، فإن فتح القناة في عهده ، وبيع إسماعيل أسهم مصر فيها إلى الحكومة الإنجليزية [illegible] خطوة نحو الاحتلال

فسعيد باشا لم ينظر إلى القناة كعمل حيوي لمصر ، والأغلب الظن أنه لم يوازن بين مزاياها ، ومضارها ، بل نظر إلى فائدتها للإنسانية فحسب ، ولقد زينت له مصالح المسيو فردينان دلسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهي أن النظر إلى القناة من وجهة فائدتها للإنسانية هو وهم لا يليق بالأمم التي تقدر معنى الوجود والحياة ، لأن حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للإنسانية ، وليس في تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً أمة رضيت أن تضحي بأية مصلحة لها مهما ضؤلت ، بله استقلالها ، في سبيل خدمة الإنسانية ، والحق أن هذه أوهام لا تجوز إلا على الأمم المستضعفة ، فنحن على العكس نرى الأمم التي نتخذها مثالاً للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحي بمصالح الأمم والإنسانية جمعاء تحقيقاً لأطماعها الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل في سبيل السيطرة على العالم ، واستعباد الشعوب

إن أضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق أن يقال إن سعيد وإسماعيل يستحقان الإعجاب لأنهما خدما الإنسانية بإنفاذ مشروع القناة ، والحقيقة المؤلمة أنهما بعملهما هذا قد مهدا السبيل لاحتلال انجلترا مصر

والآن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنقول : إن سعيد باشا بمنحه المسيو دلسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلي :

أولا : أن القناة عرضت استقلال مصر للخطر . ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذي بصيرة في الأمور ، فقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء في المشروع

ومما يذكر في هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce قنصل انجلترا في مصر وقتئذ إلى حكومته ينبئها بالخبر ، ويقول في ختام رسالته [illegible] فتح القناة سيؤدي إلى

زيادة المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ فيها مراكز للدول الأجنبية فى هذه البلاد .. ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب تمتد درجة إلى التدخل المسلح فى شئونها، وهذا التدخل يفضى إلى الاحتلال التام . ويتوقع أن تحدث هذه النتائج فى مصر ذاتها »

فهذا التنبؤ الذى أدركه القنصل الإنجليزى سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر فى السياسة ، وهو ما وقع على مر السنين ، فإن انجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها فى احتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أى بعد اثنى عشر عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ ، ومن مصادفات القدر أنه عندما فتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الإنجليزية ، وعندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضاً يشغل هذا المنصب .

ويدخل فى هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضة انجلترا فى فتح القناة ، وجرت مفاوضات بشأن إقناعها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الإنجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فيتبين من ذلك أن انجلترا لم تكن تخفى نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية

وفى هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال وأصالة الرأى : « إن منح امتياز القناة إلى المسيو دلسبس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعيها للأوروبيين »(١٤)

ويقول المسيو كوشرى Cocheris : « إن هذه الارتباكات المالية والتدخل الأوروبى المشئوم فى شئون مصر يرجع فى الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس إلى المسيو دلسبس »(١٥)

ثانياً : أن سعيد باشا بقبوله إنشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثابتة للتدخل الأجنبى ، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها

---

(١٤) تاريخ مصر المالى ص ٣ المؤلف لم يعلن اسمه (ويظنه المسيو بابونو Paponot) ويعد كتابه من أهم المراجع فى بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل

(١٥) المركز الدولى لمصر والسودان للمسيو كوشرى ص ٦٧

ثالثاً : أنه أسرف فى منح الشركة امتيازات وحقوقاً جعلتها شريكة مصر فى سيادتها وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كما سيجىء بيانه

رابعاً : لم تستفد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناة بل على العكس أضرتها اقتصادياً ، لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلى القناة المائية التى أصبحت ملكاً لشركة أوروبية ، فخسرت مصر الأرباح التى كانت تعود عليها من مرور المتاجر فى وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية ، وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة . وهذا من غير شك خسران كبير .

خامساً : على الرغم من مضار المشروع لمصر فإنها أنفقت عليه من مالها نيفاً وستة عشر مليون جنيه ، بذلت فى أسهم اكتتبت فيها ، وأملاك تنازلت عنها ، وأعمال قامت بها ، وتعويضات أدتها للشركة ، وقد خسرت هذه الملايين فى وقت كانت أحوج ما تكون إليها ولإنفاذ مشروع كان شؤماً عليها من كل الوجوه

ولئن عادت القناة يوماً إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمناً باهظاً وتضحيات جسيمة ، ويكفى أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها ، ثم حرمت ما هو أعز من المال ، وهو الاستقلال ، وعندما تسترد مصر استقلالها تاماً فستكون قد حرمت استقلالها بسبب القناة ردحاً طويلاً من الزمن ، وهو حرمان لا يعوض بمال .

نبذة وجيزة فى تاريخ المشروع

لم يسبق لحكومة مصرية قديمة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملاحة تخترق برزخ السويس

فى عهد الفراعنة والفتح الإسلامى

وإنما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم ، وتسير محاذاة وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوباً فتخترق البحيرات المرة ثم تصب فى البحر الأحمر

وفى عهد الفتح الإسلامى أنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين .

الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يبتدئ خليج مصر اليوم حتى القاهرة ومنها إلى عربية ، ومنها إلى العباسة ، ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة .

في عهد الحملة الفرنسية

وفي عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون كما أسلفنا في الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية (ص ١٢٤) في وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع إلى المسيو (لوبير) كبير مهندسي الري والطرق والجسور ، فقضى عامين في درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة ، وقدم تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير أن تحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى مع بحر مويس بقرب بوباسطة (الزقازيق) ، ومن بحر مويس إلى فرع دمياط ، ومنه إلى ترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية ، وحبذ المسيو لوبير أيضاً فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطينة) على البحر الأبيض المتوسط ، ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأً أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لوبير مشروعه في كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادي عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التي ينفذ فيها المشروع ، ونفقات إنفاذه ، ويقع هذا البحث في أكثر من ثلثمائة صفحة ، وهو من أجلّ الأبحاث التي وضعها علماء الحملة الفرنسية

في عهد محمد علي

جاء المسيو فردينان دلسبس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١ ، على عهد محمد علي باشا ، مرشحاً لمنصب مساعد القنصل الفرنسي ، فأبدى الباشا نحوه عطفاً كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو دلسبس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلاً لفرنسا في مصر سنة ١٨٠٣ واتصل فردينان دلسبس بالأمير محمد سعيد ، إذ عهد

إليه أبوه أن يعنى بتربيته الرياضية ، فعلّم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة في ركوب الخيل ، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما ، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا

وقد وقع في يد المسيو دلسبس وهو في الإسكندرية بحث المسيو لوبير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وأكب على هذا البحث يدرسه درساً عميقاً ، فلم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية ، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصري ، وطوحت به المناصب السياسية إلى مختلف الأقطار ، على أنه كان لا يفتأ يفكر في أمر هذا المشروع

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملاحة موضع البحث والتفكير في أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لوبير تقريره عنه في عهد نابليون ، وكان الخطأ الذي وقع فيه المسيو لوبير إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبة يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق برزخ السويس

على أنه في سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم هيئة فنية لدرس مشروع حفر القناة ، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع في أواخر عهد محمد علي ، واستمروا على عهد عباس ، وعاونتهم الحكومة في إجراء تلك المباحث ، وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل لينان بك (باشا) وسلامة أفندي إبراهيم (باشا) وإبراهيم بك رمضان وطائل أفندي وغيرهم ، وانتهت اللجنة إلى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال ، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا

وكان محمد علي منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة ، غير راغب فيه ، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة ، فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع ، بل كان يردهم بلطف وحكمة ، ويسمعهم ويجيبهم ، وفي الوقت نفسه يضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه .

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد إلى شركة إنجليزية مد سكة حديد بين القاهرة والسويس ، حتى لا تكون هذه السكة ذريعة إلى التدخل الأجنبي ، وكذلك أعرض عباس

ـ لأول عن مشروع القناة ، وضرب صفحاً عن أبحاث اللجنة ، وحاول مسيو فردينان دلسبس أن يقنعه بفائدة المشروع ، وأرسل تقريراً عنه إلى المسيو رويسنير Ruyssenaers قنصل هولندا العام فى مصر ليعرضه على عباس ، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولاً ، واتجه فكره ـ تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الإسكندرية والسويس ، بدلاً من شق ترعة ملحة ـ البحرين ، فأصلح الطريق بين مصر والسويس ، وجعله صالحاً لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة ، ثم شرع فى إنشاء سكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه ، ويئس المسيو دلسبس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول

فى عهد سعيد

فلما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فردينان دلسبس خيراً بنجاح فكرته ، على يد صديقه القديم ، فأرسل إليه يهنئه بارتقاء العرش ، ويبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض التهانى ، فأجابه سعيد على تهنئته ، واستدعاه إلى مصر ، فسرعان ما جاء الإسكندرية (فى نوفمبر سنة ١٨٥٤) ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ذاكراً صداقته القديمة ، ثم اصطحبه فى رحلة من رحلاته الحربية التى كان يسير فيها على رأس جنده ، وسار معه من الإسكندرية إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الأمير يقود فى هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل

فاغتنم المسيو دلسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا فى أمر المشروع ، وكان لمهارته فى ركوب الخيل أثر فى تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطى صهوة جواد أهداه له الأمير ، فوثب به يوماً عن حاجز من الأحجار ، على مرأى من قواد الجند من حاشية سعيد ، فأعجبوا به وبمهارته وفروسيته ، وفى مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذى كانت له منزلة كبيرة لدى سعيد باشا

وفى اليوم التالى ، فاتح المسيو دلسبس سعيد باشا فى أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وفق إليه خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره[١٦] ، بالرغم من أن سعيد باشا كان يصرح بأنه لا يخالف وصايا أبيه فى الإعراض عن فتح القناة ، فإنه ضعف أمام إغراء المسيو دلسبس ،

---

(١٦) مراسلات ويوميات [illegible] عن قناة السويس للمسيو دلسبس ج ١ ص ٩

وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده فى تحقيقه ، واستدعى قواد جنده ، وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين إعجاباً بفروسية المسيو دلسبس ، فسارعوا إلى استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم وسعيد فى قصر النظر سواء

فانظر إلى ما صارت إليه شئون الدولة فى عهد سعيد ، وكيف كانت عظائم الأمور يبت فيها من غير بحث أو روية ، ولا نظر فى العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذى أصاب مصر فى عهد خلفاء محمد على ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعاً خطيراً كقناة السويس يقرر فى رحلة صحراوية ، من غير تمحيص ولا تفكير ، وأن مجرد إعجاب « رجال الدولة » بفروسية المسيو دلسبس ومهارته فى ركوب الخيل كان كافياً لإقرار المشروع . !

ولم يفت المسيو دلسبس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار إليها ، فى شىء من التهكم والسخرية ، قال فى هذا الصدد : « جمع سعيد باشا قواد جنده ، وشاورهم فى الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا إلى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منح الباشا ذلك الامتياز العظيم »[١٧] .

وقال فى موضع آخر : « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع واستدعى قواد جنده ، ودعاهم إلى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى مشروع « صديقه » ، فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن نظروا إلىّ بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رءوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة »[١٨]

وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٤٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور ، وليس من عادتى أن أقلد الناس فى ما يتمون ويطلبون »

---

(١٧) صور قناة السويس ص ١٥

(١٨) صور قناة السويس ص ٤٠

منح امتياز القناة

(٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤)

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو دلسبس ضيفاً عنده محفوفاً بالإكرام والرعاية ، ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس ، واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة[19] . وهكذا نال دلسبس بغيته التي كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة

وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تمييزاً له عن عقد الامتياز الثاني المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذي سيرد الكلام عنه .

وقد عهد سعيد باشا إلى مهندسيه لينان بك ، وموجيل بك . أن يرافقا المسيو دلسبس إلى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ووضع تقرير إليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأيهما من قبل في جانب المشروع .

فقام المهندسان الفرنسيان والمسيو دلسبس بهذه المهمة ، وانتهى بهم البحث إلى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهي أن تنشأ القناة مستقيمة في أضيق نقطة في البرزخ : بين موقع بيلوزة (بور سعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر.

حصص التأسيس

ثم جمع المسيو دلسبس من بعض الماليين حصص التأسيس لشركة القناة التي أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصة خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص إلى أسهم خاصة في الشركة عندما يتم تأليفها

---

[19] فتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ على أن عقد الامتياز ينتهي في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكاً لمصر

لجنة دولية لدرس المشروع

واستصحب المسيو دلسبس باتفاقه مع سعيد باشا (في نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع ثانية ، بعد اطلاعها على تقرير لينان بك وموجيل بك ، لتبدي رأيها في صلاح المشروع وإمكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس إلى نجاحه ، فيقبلون على الاكتتاب في أسهم الشركة عند تأليفها

فذهب أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه لينان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحة

شروط الامتياز

(٥ يناير سنة ١٨٥٦)

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو دلسبس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦م – (٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) صدق فيه على الامتياز السابق منحه إلى المسيو دلسبس . وضمنه شروط الامتياز التي خولها الشركة ، وكانت شروطاً فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهاك خلاصتها :

١ – منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستمد من النيل ، وتصب في القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للري والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ، ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز) .

٢ – تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها ، وهي مساحات شاسعة على طول القناة والترعة المزمع

[illegible] بتعويض كبير مدين من الخديوي (٢) نزلت عنها الحكومة بلا مقابل مع إعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضي القابلة للزراعة التي تستصلحها الشركة وترويها وتزرعها ، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ ريّها (مادة ١٠)

٣ – خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز ، في مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) . ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة

٤ – على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التي تنشئها الشركة إذا أرادوا ري أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة في مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨)

٥ – منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني وصيانتها وملحقات المشروع ، دون دفع أي رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفي الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية ، والعوائد عن جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (مادة ١٣) .

٦ – حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة ، وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ١٦) .

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله ، أو يفتح بابا للمشاكل ، وهو وجوب أخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المهمات والمعدات Materiel et approvisionnements المخصصة لأعمال المشروع البحرية ، وأن تدفع للشركة قيمتها التي تقدر بالتراضي أو بناء على تقدير الخبراء

وليس ما يمنع الشركة أن تبالغ في تقويم المعدات التي خصصتها أو تخصصها في المستقبل للمشروع . أو أن تتعمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولكي تخلق العقبات التي تعترض حق مصر في استرداد القناة

ثم إن المادة ١٦ لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة لها ، كالمباني ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة في رجوعها للحكومة ، دون مقابل ، فالعقد الثاني

---

(٢) رسائل ومذكرات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٣ ص ٣٥٦

كما ترى صيغ في أسلوب مجحف بحقوق مصر كل الإجحاف ، وهذا يدلك على الروح التي أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره إلى « صديقه » المسيو دلسبس (كما يصفه في العقد) ولم يراجعه في شيء من نصوصه .

٧ – خوّلت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد في النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

٨ – في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ في المائة من صافي الأرباح السنوية (مادة ١٨)

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف إسماعيل باعت هذا النصيب إلى البنك العقاري بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك .

٩ – يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) . وتعهدت الحكومة ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) . وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذي تطلبه الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لإجراء أعمال الحفر والإنشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم .

وكان عقد الامتياز الأول (مادة ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديري الشركة ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر في عقد الامتياز الثاني ، وهذا العقد يقضي بإلغاء النصوص الواردة في العقد الأول مما يخالف أحكام العقد الثاني ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثاني على أنه : « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فرديناند دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز » . ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت في عقد الامتياز الثاني حق تعيين مديري الشركة . وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها في تنفيذ العقد

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التي ترى الحكومة لزوم إنشائها في منطقة القناة لا تتكلف بها الشركة ، وقد أغفل هذا النص في العقد الثاني ، وفسر إغفاله بأن

لا حق للحكومة في إقامة الحصون في هذه المنطقة

وإنك لترى في هذه الشروط روح التساهل والإسراف التي تعاقد بها سعيد باشا مع الشركة ، فإنه خولها مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية في حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حق تملكها ، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فإن المسيو دلسبس هو الذى تولى تحرير العقد ووضع فيه ما شاء من النصوص والأحكام.

مقاومة انجلترا للمشروع

اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثماني ، على أنه كان معتزماً تنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسبس العهود والمواثيق ألا ينظر إلى هذا التصديق إلا كمظهر شكلي ليس بذى بال ، وفي الواقع إن ما نالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلي طبقاً لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضرورياً لصحة الامتياز ، ولكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه ، فذهب إلى الآستانة يلتمس فرمان التصديق . فألفى معارضة المشروع من السفير البريطاني بإيعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا في ذلك الحين

وكانت السياسة الإنجليزية ترمي حينذاك إلى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسي في مصر ، وخوفاً على طريق المرور إلى الهند تحت سيطرة دولة سواها .

فقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الأسواق المالية إذ ألقت في روع الماليين أن المشروع خيالي لا يمكن تحقيقه

معاضدة سعيد للمشروع

على أن سعيد باشا قابل هذه المقاومة بمعاضدة المسيو دلسبس في مشروعه ، وكانت صداقته لدلسبس تدفعه إلى تذليل العقبات لإنجاح المشروع ، فبذل له أولاً المبالغ المتوفرة في خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ ألف جنيه ليستعين بها على العمل

تأليف الشركة

وفي ٥ نوفمبر ١٨٥٨ عرض دلسبس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقيت إقبالا عظيما ، وغطت أسهم الاكتتاب عدة مرات ، وتألفت الشركة في ديسمبر سنة ١٨٥٨ .

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، ثم قسم السهم إلى خمسين فصار عدد الأسهم ٨٠٠,٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الأصلي الآن (سنة ١٩٣٢) حوالى ١٥٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠٠ فرنك .

واكتتب سعيد باشا بـ ١٧٧,٦٤٢ سهماً[21] أى بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ، ودفع جزءاً من ثمنها وقسط الباقى على سنوات .

البدء في حفر القناة

(٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)

وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسبس بصحبة أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطئ البحر الأبيض ، في الموقع الذى أنشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد ، وأقيم هناك احتفال حافل ضرب فيه دلسبس أول معول في أرض القناة ، واقتدى به الحاضرون ، فكانت تلك الضربة إيذاناً بالشروع في العمل ، وكانت في الواقع أول ضربة في صرح استقلال مصر

ثم أخذ العمال يعملون في حفر الأرض ، ولم يكن قد صدر الفرمان العثماني بالتصديق على الامتياز ، ولكن سعيد أراد أن يضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال

وقد هاج هذا العمل غضب الحكومة الإنجليزية . فسعت سعيا لدى تركيا لوقف العمل .

---

[21] (٢١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ١ ص ١٣٢

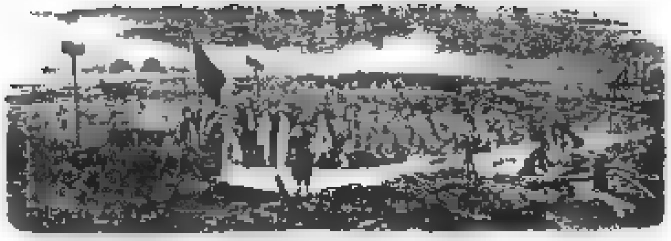

بدء العمل فى حفر القناة (٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩)

ونرى فى الصورة المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال المصريون يشتغلون فى حفر القناة

ومرت ظروف ساعدت انجلترا فى مسعاها ، ففى مايو سنة ١٨٥٩ شبت الحرب فى ربوع إيطاليا بين فرنسا والنمسا ، فمالت فرنسا إلى مجاملة انجلترا ، وتراخت فى تأييد المشروع إرضاء للحكومة الإنجليزية ، وكادت انجلترا تنجح فى مسعاها لإحباط المشروع ودبرت مع الباب العالى خلع سعيد باشا ، وجاء الأسطول الإنجليزى إلى ثغر الإسكندرية فى يونيه سنة ١٨٥٩ (٢٢) ، ولكن التدبير لم يتم ، وتردد سعيد فى الأمر ، وعهد إلى شريف باشا وزير الخارجية وقتئذ أن يرسل للمسيو دلسبس كتاباً يطلب إليه فيه وقف العمل(٢٣) ، على أن الحرب بين فرنسا والنمسا ما لبثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين الهدنة المعروفة بمعاهدة (فيلا فرنكا) Villa Franca ، فعلت كلمة فرنسا فى ميدان السياسة العامة ، وعادت إلى مناصرة المشروع وتأييده ، غير أن الحكومة الإنجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الآستانة حتى جعلتها تصدر أمراً إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ، وأوفدت مندوباً عنها يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد

فعاد نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى تركيا لحملها على إبطال هذا الأمر ، وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى فى نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا إلى رعايتها إياه ، وعاد إلى معاضدة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تماديه فى تعضيده أن سخر الفلاحين ليعملوا فى حفر

---

(٢٢) ورد ذكر الأسطول الإنجليزى وحضوره إلى الثغور المصرية فى كتاب « مرسلات ويوميات ووثائق عن القناة » ج ٣ ص ١٢٨

(٢٣) مرسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٣٣

القناة . وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥,٠٠٠ عامل ، كانوا يقاسون الشدائد والأهوال فى عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالوبال والخسران

وقد سار العمل فى إعداد المشروع وحفر القناة الملحة حتى جرت فيها مياه البحر الأبيض حتى بحيرة التمساح ، وذلك فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ (٢٤) ، وفى هذه المرحلة وصلت القناة فى عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً لإسماعيل إتمام ما بدأ به ، والوصول بالمشروع إلى نهايته

٢ – بدء القروض الأجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداءة نذير الكوارث المالية والأحداث السياسية التى أصابت البلاد فى عهد إسماعيل وتوفيق .

ولا ندرى ما الذى حمل « سعيد » على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحكومة لم تكن فى حاجة مُلحّة إلى الاستدانة من البيوت المالية . فإن سنوات سعيد كانت فى الجملة سنوات يُسْر ورخاء ، ولم تقع فى خلالها حروب طويلة تستنفد موارد الحكومة المالية

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدر لها فى الميزانية ، فاضطر سعيد إلى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض حجة لتسويغ عمله ، فإن « سعيد » فإنه كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان – لأسباب غير مالية – يصرف أحياناً معظم قواته الحربية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزانة لا تسمح باستبقاء جيش عرمرم يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسى هو الذى دعاه إلى مذهب الاستدانة من الخارج ، ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبى

وفى ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) : « إن سعيد باشا يرجع الفصل التعس فى

---

(٢٤) مرسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ٦

عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا »(٢٥) .

وقال فى معرض المقارنة بينه وبين محمد على وإبراهيم :

« لقد استطاع محمد على وابنه الأكبر إبراهيم أن ينهضا بالبلاد ويجاهدا فى سبيل استقلالها ، ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر ، دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك »

ذلك ما يقوله أوروبى خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على ملاده ، فهو يصارحنا فى كتابه بأن الاستدانة من أوروبا كانت عملاً تعساً

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمى ٣,٢٤٢,٨٠٠ جنيه إنجليزى من بنك فروهلنج وجوشن بلندن بفائدة ٧ فى المائة ، أما قيمته الحقيقية فكانت ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً ، أى أن مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وزيادة ، وتعهدت بوفاء هذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوى من رأس مال وفوائد ٢٦٤٠٠٠ جنيه ، أى أن مجموع الأقساط ٧,٩٢٠,٠٠٠ جنيه ، فى حين أن أصل الدين ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، وعدا هذا القرض الثابت فإنه ابتدع طريقة السندات على الخزانة وهى أن يستلف من المرابين ديونا سائرة بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة ، وتلك وسيلة خطرة على مالية البلاد ، لأنها استدانة لا ضابط لها ولا حساب ، ولا رقابة عليها ، فإذا اندفعت الحكومة فى سبيلها تورطت فى الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت إلى الخطر الذى ينجم عن الاستزادة منها

وقد اختلفت الآراء فى إحصاء الدين السائر الذى استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على أنه كان متلافاً للنقود ، لكثرة نفقاته على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق فى حسابه

وإذا أخذنا بإحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عرف عنه الاعتدال فى كتابته كان الدين العام الذى تركه سعيد حين وفاته ١١,١٦٠,٠٠٠ جنيه(٢٦) ، فإذا استبعدنا منه الدين

---

(٢٥) تاريخ مصر المالى ص ١

(٢٦) تاريخ مصر المالى ص ١٢

الثابت بلغت الديون السائرة ٧,٨٦٨,٠٠٠ تقريباً ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد فى ذلك العصر

ولو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة ، لكان محتملاً أن تغير المصير وتتبدل النتائج فى تاريخنا القومى

وفاة سعيد باشا

(١٨ يناير سنة ١٨٦٣)

ذهب سعيد باشا إلى أوروبا ليستشفى من مرض عضال أصابه ، ولم ينجع فيه دواء فرجع إلى الإسكندرية فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشتد به ويهد من قواه حتى أدركته منيته فى صبيحة ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام(٢٧) ، ودفن بالإسكندرية بمسجد النبى دانيال ، ولا يزال قبره هناك .

• • •

---

(٢٧) من التوفيقات الإلهامية للواء محمد مختار باشا ص ٦٤٠ ، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره المسيو دلسبس فى وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٠

الفصل الثالث

عصر الخديوى إسماعيل

(١٨٦٣ - ١٨٧٩)

نظرة عامة

إن عصر الخديوى إسماعيل هو فى مجموعه صورة لتاريخ مصر القومى والسياسى والاقتصادى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إلى مقدمات الثورة العرابية ، وإذا أردنا أن نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا فى مقدمة الكتاب عصر له أثره النافع كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تخلله به من أخطاء وأرزاء أفضت إلى تدخل الدول الأجنبية فى شئون مصر ، وتصدّع لها بناء الاستقلال المالى ثم السياسى .

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا أن نلخص عصر إسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، ويعد من ناحية أخرى عهد القروض المشئومة والأغلاط المتلاحقة التى عصفت باستقلال البلاد

وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العصر ، وتلمس آثارها بيديها ، فإنها أيضًا تعانى إلى اليوم نتائج الأرزاء والأحداث التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غاليا ، من مالها ، وحقوقها ، وحريتها ، واستقلالها

ويعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر ، لأن معظم القيود والمساوئ التى حلت بمصر على عهده لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق البلاد ، والديون التى كبلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عصر إسماعيل

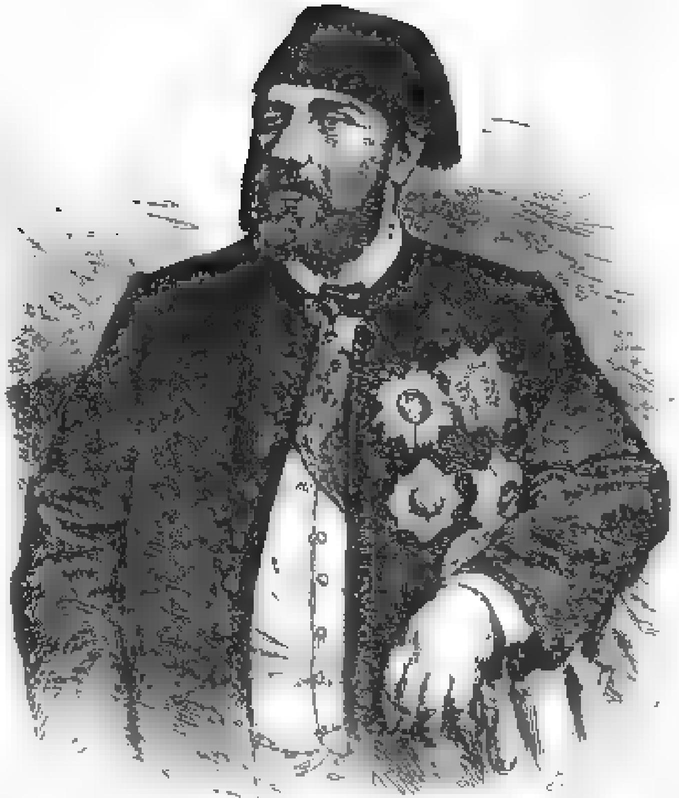

اسماعيل باشا (خديو مصر)
من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

نشأة إسماعيل

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على ، وهو ثانى أنجال إبراهيم باشا ، من والدة غير والدة أخويه الأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل

ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، فى قصر المسافرخانه بالقاهرة (بالجمالية) ، وعنى أبوه بتعليمه ، فتعلم مبادىء العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلاً من الرياضيات والطبيعيات .. وأرسله أبوه إلى فينا عاصمة النمسا ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، ليعالج بها من رمد صديدى أصابه ، ولتكمل تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل إلى باريس لينتظم فى سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير أحمد رفعت أخوه ، والأميران عبد الحليم وحسين من أنجال محمد على ، ونال فى باريس حظاً من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، وأتقن اللغة الفرنسية كتابة وكلاماً ، وبهرته باريس وما فيها من جمال وروعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميوله الباريسية ، التى لازمته طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى فى أن يجعل القاهرة باريساً ثانية . ولو كلفه ذلك أن يمد يده إلى القروض التى ناءت بها البلاد ، والظاهر من مبلغ تعلمه أنه لم ينل من المعارف والثقافة فى باريس أو فى فينا حظاً كبيراً ، بل اقتصر على مبادىء من العلوم ، ولم يستفد من مكثه بباريس إلا نصيباً قليلاً من العلوم الهندسية والحربية ، وأتقن اللغة الفرنسية التى كان يتكلمها كأحد أبنائها ، وكان له فى ذكائه بعض العوض عما ينقصه من العلوم

عاد إسماعيل إلى مصر فى عهد ولاية أبيه إبراهيم باشا ، ولما مات إبراهيم خلفه فى الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عمه ويجفوه ، فلما تولى الحكم شعر إسماعيل وإخوته بكراهية عباس لهم ، ثم مات محمد على ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الأمراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل إسماعيل وبعض الأمراء إلى الأستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وأنعم عليه بالباشوية ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس فى أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الأستانة لقى من عمه سعيد باشا عطفاً كبيراً ، وعهد إليه برآسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئة قضائية فى البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ فى مهمة سياسية لدى الإمبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول فى توسيع نطاق استقلال

مصر بعد اشتراكها مع حلفائها في حرب القرم ، فأدى إسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من كياسة [illegible] ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحة في مؤتمر الصلح بباريس ، [illegible] وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) في رحلته موفداً من قبل سعيد . [illegible] مثواه . ثم عاد إلى مصر .

ولم يكن إسماعيل يفكر أثناء حكم سعيد باشا في أن يؤول إليه العرش من بعده ، إذ كان يحجبه عنه أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت ، ولكن حادثاً فجائياً ساقته الأقدار سنة ١٨٥٨ رفع عنه العقبة القائمة في سبيله ليكون وليا للعهد ، ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا إليها أمراء البيت العلوى ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم أحمد رفعت ، أما إسماعيل فقد اعتذر عن إجابتها لوعك في صحته ، ولما كان الأميران عبد الحليم وأحمد رفعت عائدين إلى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهما ، سقطت العربة التي تقلهما في النيل عند كفر الزيات ، فغرق أحمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح إسماعيل بعد غرق أخيه ولى عهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة القديم

وقد مرن إسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولى للعهد ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائمقام) أثناء غيبته عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب إلى الحجاز لزيارة المدينة المنورة في أوائل سنة ١٨٦١ .

وكان سعيد يبدى لابن أخيه ارتياحه من الطريقة التي أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية إلى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد إليه إخماد فتنة بعض القبائل في السودان ، فاضطلع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء .

ولما أدركت سعيد الوفاة خلفه على عرش مصر في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣

سياسة مصر الخارجية في عهد إسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجية ، لأنها كانت ذات الأثر البعيد في شئونه الداخلية . ولعل ذلك ناشئ عن أن إسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والمسائل المرتبطة بها في المكان الأول من الأهمية ، وتليها المسائل الداخلية

فنبحث إذن عن سياسة مصر الخارجية ، ولهذه السياسة وجهتان : وجهة علاقة مصر بتركيا ، والثانية علاقتها بالدول الأوروبية

فيما يتعلق بتركيا كانت الخطة التي رسمها إسماعيل ، هي توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد إلى الإستقلال التام .

ولا شك أن هذه نزعة ممدوحة ، تعد من مفاخر إسماعيل ، فإن الوصول بالبلاد إلى استقلالها التام هي الغاية التي ترمى إليها الحركة القومية

أما فيما يختص بعلاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان إسماعيل يصدر عن فكرة أخرى ، تنافى فكرته في علاقته بتركيا . فبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة التركية ، إذ هو لا يحامى مصر من النير الأجنبي المالى والسياسى ، بل كان يتسبب في تطويقها بسلاسل التدخل الأوروبى ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى كسبته مصر في عصر محمد على .

ولو أنه بذل في سبيل جعل البلاد حرة من أخطار التدخل الأجنبي جزءا ولو يسيراً مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لحقق مشروع الإستقلال التام لمصر والسودان ، ولاقترن اسمه في التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لا يحسب حسابا للتدخل الأوروبى ، وما ينطوى عليه من المطامع التي تهدم كيان الإستقلال ، وهذا الخطأ الجسيم ، في سياسة إسماعيل الخارجية ، ناشىء عن نزعته الأوروبية ، فإن هذه النزعة جعلته يثق بأوروبا ، والدول الأوروبية ، والجاليات الأوروبية ، ثقة عمياء ، ويركن إليها ، ويعتقد فيها حسن النية . ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية . ففتح أبواب البلاد على مصراعيها للتدخل الأجنبي ، وسمح للأوروبيين أن يتغلغلوا في مرافقها ، ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة في حكومتها ، وبلغت به الثقة في سلامة نياتهم حداً جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الأجنبية . حتى صار للأجانب في عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل ، وانقلب هذا النفوذ إلى حقوق ومزاعم ادعوها ، وما لبثوا أن نالوها ، بإنشاء صندوق الدين ، وفرض رقابة أجنبية على مالية البلاد ، وتعيين وزيرين أجنبيين في الوزارة المصرية كما سيجيء بيانه

فسياسة إسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروبية كانت إذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الأجنبي المالى والسياسى ، مما نشعر بنتائجه السيئة إلى اليوم (١٩٣٢)

هذه كلمة إجمالية عن سياسة إسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروبية تمهد ب إلى بيان هذه السياسة تفصيلا فيما بعد .

١ – سياسة إسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جعل إسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من السيادة التركية التي فرضتها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١ (١) ، أي أنه أكمل العمل الذي بدأه محمد على ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد على كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصري ، أما إسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الأستانة ، ليحصل على الفرمانات التي وسع بها نطاق الإستقلال .

وليس يخفى أن وسيلة محمد هي صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ، تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومي ، أما وسيلة إسماعيل فلا تستثير في النفوس إحساس المجد والفخار ، هذا فضلا عن أنها من الأسباب التي دعت إسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الاجنبية ، فكانت من هذه الناحية من العوامل التي أدت إلى تصدع بناء الإستقلال الحقيقي ، وقد بذل إسماعيل تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على الإمتيازات التي نالها ، إذ لم تكن حكومة الأستانة تصدر فرمانًا إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشا والهدايا ، يقدمها إسماعيل لرجال الأستانة ، على اختلاف مراتبهم ، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته ، والصدور العظام ، فبلغت هذه الأموال طوال حكمه نحو إثنى عشر مليوناً من الجنيهات

بدأ إسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ورجال حكومته ، فلما تولى الأريكة المصرية ذهب إلى الأستانة ليقدم له فروض الولاء ، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا ، وتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ودعاه إلى زيارة مصر ، فوعده بتلبية الدعوة

---

(١) ج (عصر محمد على) ص ٣١٠ وما بعدها (الطبعة الأولى)

زيارة السلطان عبد العزيز مصر

(إبريل سنة ١٨٦٣)

بر عبد العزيز بوعده ، فجاء مصر في شهر إبريل سنة ١٨٦٣م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقضى في ضيافة إسماعيل عشرة أيام ، لقى فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ما جعل لإسماعيل منزلة كبيرة عنده .

ولا غرو فقد كان عبد العزيز هو السلطان العثماني الوحيد الذي جاء مصر زائراً ، بعد السلطان سليم الذي دخلها فاتحاً . فكانت هذه الزيارة تكريماً كبيراً لإسماعيل ، وتعظيماً لشأنه .

واغتنم هذه الفرصة ، فاستغل المنزلة التي نالها ليكسب من تركيا حقوقًا ومزايا جديدة ، واستعان إلى جانب ذلك بالمال يبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف القاهرة ، حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده بستين ألفا من الجنيهات رشوة ليتخذ منه عونًا في مساعيه لدى الحكومة التركية ، وعاد عبد العزيز من زيارته مغتبطا بما لقيه من الإكرام ، ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام إسماعيل لينال رغائبه .

تغيير نظام توارث العرش وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

أول ما وجه إليه إسماعيل جهده ، هو العمل على تغيير نظام توارث العرش ، فقد كان النظام القديم الذي فرضه فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا ، كالنظام المتبع في تركيا .

سعى إسماعيل جهده في أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله ، ونجح في مسعاه ، بفضل المثابرة ، والدأب على الطلب ، وبفضل الأموال الطائلة التي بذلها في الأستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعي من الأسباب الأولى لديون إسماعيل ، وليس ثمة شك في أن هذه التضحية المالية لا توازيها الفائدة التي نالتها مصر من هذا التغيير . لأن طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تهم البلاد حتى تبذل في سبيلها هذه الملايين ، هذا إلى

أي كلفت مصر تضحية مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشترطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ ألف جنيه عثماني ، إلى ٧٥٠ ألف ، أي إلى ما يقرب من الضعف ، وهي زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر ، فبلغت نيفاً وخمسة عشر مليون جنيه مصري لغاية سنة ١٩٤١ ، وهي السنة التي زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتملتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية إلى دائني تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصماً من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فإذا حسبنا خسارة مصر في زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، لبلغت نيفاً وخمسة وعشرين مليون جنيه مصري ، عدا فوائدها ، وهي خسارة جسيمة لا مبرر ولا مسوغ لها .

ومن الإسراف في القول ما يزعمه بعض المؤرخين أن إسماعيل قصد بسعيه في هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير هو ما كان بينه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم من الشقاق والشحناء ، ولم يكن إسماعيل يخفي كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الأميران أيضاً لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لإسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى في حرمانهما من وراثة العرش وجعلها في ذريته من صلبه .

وقد اغتنم حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس ، ليبتزوا من أموال مصر ما تصل إليه أيديهم ، فقد بذل الأميران عبد الحليم ومصطفى فاضل أموالاً طائلة في الآستانة ، لإحباط مساعي إسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن إسماعيل كان أكثر مالاً ، وأعز جانباً ، فنجح في مسعاه ، وهكذا كان للمال الأثر الفعال في نفوس حكام الآستانة .

وساعد إسماعيل في نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقتئذ كان يميل أيضاً إلى تغيير نظام توارث العرش ، ويتمنى أن يئول عرش تركيا من بعده إلى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد إسماعيل في مسعاه ، كي يمهد السبيل لنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان .

كانت نتيجة مساعي إسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣) القاضي بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتي سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده ، ومن هذا إلى أكبر أبنائه ، وهلم جرا

ونص في هذا الفرمان على إمكان زيادة الجيش المصري إلى ثلاثين ألف جندي ، وكان في الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، وإقرار حقها في ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود

السلطنة العثمانية ، ومنح الرتب المدنية لغاية رتبة ثانية[2]

واستتبع هذا التغيير صدور فرمان آخر في ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥ يونيه سنة ١٨٦٦)[3] ، بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصراً .

وقد أبلغ الباب العالي الفرمان السابق إلى الدول العظمى التي اشتركت في إبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ثم جعل له صفة المعاهدة التي تربط تركيا دولياً إزاء مصر ، بحيث لا تملك تعديله إلا بموافقة مصر ، وخاصة لأنه صدر مقابل زيادة في الجزية .

قلنا إن هذا التغيير في نظام التوارث لا يعد مكسباً كبيراً لمصر ، حتى يبرر ما تحملته من التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى الخديو توفيق ، أكبر أنجال إسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذي اعتلى العرش حينما خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان ينتظره الأب من ولده ، ومضى إسماعيل سنوات النفي ، واحتمل غصصه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه في محنته ، وإذا أغضينا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى أنه في عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الإنجليزي ، وكان عليه جانب كبير من تبعة وقوعه ، فلو لم يتقرر نظام التوارث الجديد ، لكان جائزاً أن يخلف إسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا .

وقد كان صدور الفرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين إسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذي كان ولياً للعهد طبقاً لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت الكراهية بينه وبين عمه الأمير عبد الحليم بن محمد علي ، فإنه كان يتطلع إلى الأريكة المصرية ، فجاء هذا الفرمان قاضياً على آماله .

وأدت هذه الحالة إلى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل إسماعيل وجعله يبذل جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال في سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأجدى .

وأفضت هذه الكراهية ، وما استتبعها من الدسائس والمؤامرات ، إلى رحيل الأميرين المذكورين [illegible] من مصر ، [illegible] الآستانة وأوربا مقراً لهما ، وانضم الأمير مصطفى

---

[2] قاموس [illegible] والقضاء لفيليب جلاد ج ٢ ص ٧٣

[3] الوثائق [illegible] السلطنة العثمانية ([illegible]) ج ٣ ص ٢٥٥ وقاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣٦

دسائس على حكومة السلطان عبد العزيز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وظل كما بدءه إسماعيل فى هذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم إلى أحرار تركيا الناقمين على الحكم الاستبدادى فيها ، والذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذه وماله . ومن هنا جاءت تسميته بأبى الأحرار فى تركيا

أما عبد الحليم ، فقد نفاه إسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل أن الأمير دبرها . فاتخذ إسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه

فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب خديو

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل إسماعيل يبذل المال بسخاء من ضفاف البوسفور . فحصل فى ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، يخوله وحلاه لقب (خديو) ، بعد أن كان (واليًا) ، فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين ، وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى إدارة شئونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشئون الضبط للجاليات الأجنبية(٤)

فتور العلاقات ثم الجفاء بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبثت أن اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الخصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهرى فى هذا التحول إلى رغبة إسماعيل فى الانفصال عن تركيا ، والظهور بمظهر العاهل المستقل .

ذكر محمود باشا فهمى فى كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) أنه فى خلال حملة كريت (التى سيرد الكلام عنها) طلب إسماعيل من الباب العالى أن يخوله حق تعيين سفراء مصر لدى الدول الأجنبية ، فرأى الباب العالى أن مقصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض أن غضب إسماعيل ، وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من

---

(٤) قاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣٢

جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة إذا لم تجب طلباته

وذكر إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين إسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد رواية محمود باشا فهمى ، وكلاهما معاصر لهذه الحوادث ، قال إنه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديو إلى شاهين باشا قائد الجيش المصرى فى حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة فى الانضمام لمصر ، فأخذ هذا يتودد إلى زعماء الجزيرة ، ويجتذبهم بالمال والعطايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصرى فى كريت ، فاضطر إلى استدعائه ، وجعل مكانه قائداً آخر هو الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ

وقد تعددت الحوادث والمظاهر التى تدل على سعى إسماعيل للانفصال عن تركيا

فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأساً فى صدد إنشاء النظام القضائى المختلط ، دون وساطة الباب العالى ، واشتراكه فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل ، وإقامته به قسماً خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز ، لتسليح الجيش المصرى ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد إسماعيل ، وتتوقع أن يستعد ويتأهب لإعلان الاستقلال التام .

واستفاضت الأنباء بأن تركيا عازمة على إرسال جيوشها إلى مصر بعد إخماد ثورة كريت ، وخشى إسماعيل أن تنفذ تركيا يوماً وعيدها ، فاستعد للدفاع والحرب ، وأنشأ حصوناً جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ، ورمم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترنج بانجلترا نحو مائتى مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، ويلاحظ أن كثيراً من هذه المدافع باقية إلى اليوم فى حصون الإسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصدأ من الإهمال وتوالى السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التى أنشئت فيها وهى سنة ١٨٦٩ ، أى السنة التى اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا

وازدادت العلاقات فتوراً بين البلدين لدعوة إسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان هذه الدعوة إغفالاً لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلك الخديو . ثم بكريت

إسماعيل لهذا الاحتجاج ، واستمر ماضياً في دعوته . وأقام حفلات القناة برئاسته وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها

وكان معتزماً إعلان استقلال مصر التام في تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تؤيده في غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكم بين إسماعيل والباب العالي

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وما فيه من القيود

كان من نتائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦) ، حمله رسول من الباب العالي إلى مصر عقب انقضاء حفلات القناة ، فجاء صدمة لآمال إسماعيل ، إذ بينا يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل إلى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته .

قيد السلطان بهذا الفرمان حقوق الخديو ، فنص فيه على أنه لا يجوز له أن يقترض قروضاً جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها ، ويحصل على إذن من السلطان بعقدها[*] ، وكان السبب الظاهر لهذا التقييد غيرة الباب العالي على مصالح مصر ، واستياءه من تورط إسماعيل في الديون الباهظة التي استدانها .

وفي الحق أن إسماعيل كان في حاجة إلى من يغل يده عن الإسراف في الاستدانة ، ويقيده في تصرفاته المالية ، وحبذا لو أن هذا القيد جاء من ناحية الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذي كان ينعقد كل عام . على أننا لا نعتقد أن الباب العالي كان يقصد إلى مصلحة مصر في تقييد إسماعيل بهذا القيد ، بل أغلب الظن أنه كان يرمي إلى استرداد حقوق جديدة لكي يكيد للخديو ويسيء إليه

وقد استاء الخديو من هذا الفرمان ، ولم يعقد احتفالا حافلا لتلاوته بالأبهة المعتادة . بل قرىء في قصر النيل دون ضجة ولا إعلان

---

[*] راجع نص الفرمان في القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٣

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن إسماعيل أخذ يسعى في تحسين علاقاته بتركيا ، لما رأى أنه في حاجة إلى عضدها ، بعد أن خذلته الدول الأوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد إلى الآستانة في صيف سنة ١٨٧٢ يصحبه إسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا في إعادة المياه إلى مجاريها . وبذلوا هناك ما بذلوا من مظاهر الولاء ، ومن المال والرشا والهدايا ، حتى عادت علاقات الود بين الخديو والحكومة التركية

فنال في سنة واحدة فرمانًا في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابق منحه إياها . وينسخ القيود الواردة في فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطًّا شريفاً في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد .

وقد ابتهج الخديو ابتهاجا عظيماً لورود الفرمان والخط الشريف إلى مصر يحملها كبير كتاب المابين ، وعقد لتلاوتهما احتفالاً فخماً في ديوان الشورى بالقلعة وقرئا بحضور المدعوين ، وأطلقت المدافع إيذانًا بهذا النصر المبين ، ونشر نصهما في الجريدة الرسمية[1] .

وكان من نتائج صدور الفرمان والخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ذلك القرض المشئوم الذي كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلي :

الفرمان الجامع

(٨ يونيه سنة ١٨٧٣)

لم يكتف الخديو إسماعيل بهذا الفرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التي نالتها مصر منذ تولية محمد علي حكم مصر بطريق التوارث إلى ذلك العهد ، فقصد إلى الآستانة في صيف سنة ١٨٧٣ متذرعاً بالأموال يرشو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه في

---

[1] الوقائع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٢

وحوله جمع من أركان حكومته وبطانته كنوبار باشا وزير الخارجية ، وإسماعيل صديق وزير الداخلية ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس الخصوصي العالي) وغيرهم ، وما زال يسعى حتى نال الفرمان المؤرخ ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٩٠)[٢] ، وهو الفرمان الجامع الذي ثبت المزايا الواردة في الفرمانات القديمة والحديثة ، وتتلخص هذه المزايا في الحقوق الآتية :

١ – توارث عرش مصر في أكبر أنجال الخديو ، ومن بعده إلى أكبر أولاد هؤلاء الأكبر وهلم جرا .

٢ – تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية [illegible] مع ما صار إلحاقه بها من قائمقاميتي سواكن ومصوع وملحقاتهما .

٣ – حق الحكومة المصرية في سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

٤ – حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

٥ – حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية .

٦ – زيادة الجيش إلى أي عدد يبتغيه الخديو .

٧ – حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التي يجب لإنشائها استئذان الحكومة التركية .

وصفوة القول أن هذا الفرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة في الاستقلال التام ، ما عدا الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه عثماني ، وعدم عقد المعاهدات السياسية ، وحق التمثيل الخارجي ، وعدم صنع المدرعات الحربية .

وقد نشر هذا الفرمان في العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر في ١٧ يوليه سنة ١٨٧٣

عودة الجفاء

على أن هذه الفرمانات لم تصل إلى إحلال الوئام بين مصر وتركيا محل الجفاء والخصام ، بل على الرغم من الظواهر [illegible] تركيا كانت لا تخلص النية نحو مصر ، كما أن إسماعيل كان

---

[٢] الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية لنور ادونجيان أفندي ج ٣ ص ٣٤٥

سيئ النية نحو تركيا ويعمل على أن لا يتردد في [illegible] مصر [illegible] يستطيع إلى ذلك سبيلا .

وقد [illegible] سوء نية تركيا نحو مصر من تدخلها لدى أوروبا في خلافها مع الخديو إسماعيل ، ذلك الخلاف الذي أدى إلى خلعه كما سيجيء في موضعه ، فإن مطالب الحكومات الأوروبية في هذا الخلاف كانت مطالب جائرة لا يقرها عدل ولا يسيغها منطق ، وضرب من الاعتداء على حقوق مصر [illegible] تحقيق أطماعها الاستعمارية ، وبادرت من ذلك [illegible] في الانضمام إلى الدول الأوروبية ، والخروج عن [illegible] ، ولم يكتف [illegible] في التخلص من إسماعيل حتى بادرت بإرسالها [illegible] بخلعه من منصب الخديوية ، وتعيين نجله توفيق باشا خديوا . ولم يكن هذا العمل لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا أيضا ، بل كان تمكينا للنفوذ الأجنبي في مصر ، ولكن تحفظ السياسة التركية وسوء نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول . وتلك أول مرة خلع فيها ولي الأمر في مصر من عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية ، وممالأة الحكومة التركية ، وفي ذلك أعظم الجنايات على حقوق مصر واستقلالها .

٢ – سياسة إسماعيل حيال الدول الأوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة إسماعيل الخارجية الركون إلى الدول الأوروبية وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلطاته السياسية ، لأنه من المعلوم أن الدول والحكومات الأوروبية على اختلاف أجناسها ، إنما ترمي إلى تحقيق أطماعها الاستعمارية في بلاد الشرق قاطبة ، ومصر في طليعتها .

وتلك لعمري حقيقة يعترف بها الأوروبيون المنصفون ، فقد كتب المسيو (فان بملن) Van Bemlen وهو قاض هولندي تولى القضاء في المحاكم المختلطة على عهد إسماعيل يقول في هذا الصدد :

« إن علاقات الحكومات الأوروبية بمصر لا تقوم إلا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، و[illegible] على الأثرة و[illegible] تحللها من شعور العطف و[illegible] بالواجب نحو مصر ، ومعظم الأوروبيين الذين جاءوا إلى هذه البلاد كانوا من أحط الطبقات ،

ولم يكن همهم إلا الإثراء على حساب البلاد (٨).

هذا ما يقوله قاضٍ أوروبي عادل مثقف سبر غور الأمور في مصر، وتلك هي الحقيقة التي [illegible] في كتابه. ولكن الخديو إسماعيل لم يفطن إلى تلك الحقائق.

وهنا يبدو الفرق جليًّا بين محمد علي وإسماعيل. فمحمد علي كان يقتبس من تمدن الأوروبيين وسائل النهضة والتقدم، ويستعين بخبرة علمائه [illegible] ولكنه وقف نفسه بحذر تدخل الأوروبيين حكومات وجاليات في شئون البلاد، ولا يطمئن إليهم، ويعمل في عهده [illegible] من تدخل النفوذ الأوروبي، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة المدنية والاقتصادية. ويكفيك دليلاً على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إنفاذ مشروع قناة السويس، رغم إلحاح الماليين والسياسيين الأجانب عليه، وكذلك لم يقبل أن يعهد إلى الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية. كل ذلك لكي يصون البلاد من خطر التدخل الأجنبي.

لكن إسماعيل، لنزعته الأوروبية، لم يحسب حسابًا لهذا التدخل، ولعله كان يتوهم حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر، فما زال الوهم متسلطًا عليه حتى أدرك خطأه في آخر عهده، إذ رأى الدول والجاليات الأوروبية، التي طالما تودد إليها، ومكن لها من مرافق البلاد، تضطره إلى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاء لديونه، ورأى النفوذ الأوروبي يشل سلطته، فحاول عبثًا أن يقاومه أو يضع له حدًّا، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحل، فلم يستطع له دفعًا، وانتهى الأمر بأن اقتلعته إرادة الدول الأوروبية عن الأريكة الخديوية.

والآن نتكلم عن سياسة إسماعيل نحو الدولتين اللتين تنافستا على النفوذ والسلطة في مصر، وهما فرنسا وإنجلترا.

فرنسا

كانت السنوات الأولى من حكم إسماعيل هي الفترة التي أخذ فيها نفوذ الأجانب يتغلغل في البلاد، ماليًّا واقتصاديًّا [illegible] هذا النفوذ في أواخر عهده [illegible]

وكان لفرنسا بادئ الأمر نفوذ أدبي كبير على إسماعيل، وهذا يرجع أولاً إلى تربيته

---

(٨) مصر وأوروبا للقاضي فان بملن ج ١ ص ١١٦.

الفرنسية، والسنوات التي قضاها في باريس، ومعاشرته عظماء الفرنسيين، وصداقته لبعضهم، ورغبته في تقليدهم في معيشتهم، ومحاكاة مدنيتهم وعوائدهم [illegible] النهضة بمصر والاقتصاد التي شهدها [illegible] والتي تعد من أخص مظاهرها الغربية.

وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسي، وهو صلة الخديو إسماعيل بالإمبراطور نابليون الثالث، وصداقته له وإعجابه به، وما كانت عليه فرنسا في عهده من الأبهة والعظمة، ورغبته في كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما.

ويتجلى لك مبلغ النفوذ الفرنسي، في أنه لما قام الخلاف بين إسماعيل وشركة قناة السويس في أوائل عهده بالحكم، ارتضى تدخل الإمبراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف، ورضي أن يجعله حكمًا بينه وبين الشركة، مع أنه يعلم بالبداهة أن إمبراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون حكمًا عادلاً في مثل هذا الخلاف، وأن حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية. وقد أصدر نابليون الثالث فعلاً حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ عدة ملايين من الجنيهات.

ويبدو هذا النفوذ أيضًا في استخدام إسماعيل لطائفة من الفرنسيين في كثير من معاملاته المالية وقروضه، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائيين من الفرنسيين.

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه في حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩، فالقناة في ذاتها عمل فرنسي، وواضعها فردينان دلسبس يمثل كفاءة فرنسا الفنية والهندسية، وكانت أوجيني إمبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية في إبان مجدها وعزها، وهي التي رأست حفلات الافتتاح، متقدمة ملوك أوروبا وأمراءها وأقطابها في السياسة والعلوم والفنون، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيذانًا بما بلغه النفوذ الفرنسي في مصر من القوة وسمو المنزلة.

على أن هذا النفوذ أخذ في الاضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ – ١٨٧١، فإن هزيمة فرنسا في هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية في أوروبا والشرق، وثل عرش الإمبراطورية، وكان من أولى نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق إسماعيل الذي كان يعتمد عليه في مهمات الأمور، ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل في مصر، مخليًا الطريق للنفوذ الإنجليزي.

إنجلترا

لا جرم أن انتصار ألمانيا فى الحرب السبعينية كان له تأثيره فى المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مهد لإنجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى فى هذه المسألة ، ومكنها من الانفراد بالتدخل فى شئون مصر ، حتى انتهى إلى الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ . فلا يخفى عنك أنه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ فى مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد إنشاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة إحداهما على مصير البلاد ، ولكن صوت فرنسا فى المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت إنجلترا هذه الفرصة لإنفاذ إرادتها فى وادى النيل ، اعتبر ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العرابية سنة ١٨٨١ ، واعتزمت إنجلترا احتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالإخفاق لو اشتركت فرنسا معها فى العمل ولكن فرنسا تركت إنجلترا تحتل البلاد وحدها ، وهذا يرجع إلى أسباب عدة لا محل لبسطها الآن ، وسنتكلم عنها فى موضعها ، ولكن لا شك أن من بين هذه الأسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذى يتهددها من ناحية ألمانيا .

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لكان من تنافسها هى وإنجلترا فى المسألة المصرية ما يكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولكن التوازن بينهما قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، وأخذت كفة إنجلترا ترجح فى شئون مصر ، وأخذ إسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لما أصابها من الضعف ، ويتجه ببصره تلقاء إنجلترا ، ويتودد إليها

على أن إنجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيداً لاحتلالها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتطلع إلى السودان ، وتمد أصابعها إليه تمهيداً لفصله عن مصر ، يدلك على ذلك سلسلة من الأعمال ترمى إلى تحقيق تلك المطامع . فمنها أنها أوعزت إلى الخديو إسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزى الشهير حاكماً لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدته عملت على أن يخلفه فى هذا المنصب إنجليزى آخر وهو الكولونيل غوردون (باشا) ، وسعت لتخويله سلطة كبرى لا رقابة عليه فيها للحاكم المصرى العام كما سيجىء بيانه

وفى سنة ١٨٧٠ عهد الخديو إلى شركة إنجليزية تدعى شركة جرينفيلد بإنفاذ مشروع توسيع ميناء الإسكندرية والقيام بأعمال الإصلاح فيه مقابل عدة ملايين من الجنيهات

واستغلت إنجلترا فرصة ارتباك إسماعيل المالى لكى تزيد فى ورطته . وتجلت هذه النية واضحة فى شرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وإن هذه الصفقة كانت أول ضربة ضربتها إنجلترا إلى صرح الاستقلال المصرى

وفى سنة ١٨٧٧ أوعزت إلى الخديو أن يعين غوردون باشا حكمداراً (حاكماً عاماً) للسودان ، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطراً ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر أسند فيها هذا المنصب السامى إلى أجنبى .

فهذه الحوادث لم تقع عبثاً ، بل هى مظاهر لامتداد النفوذ الإنجليزى فى بلاط الخديو منذ سنة ١٨٧٠ .

وقد توثقت العلاقات الودية فى هذه الحقبة من الزمن بين الخديو وإنجلترا ، وتعددت مظاهرها ، فعقدت إنجلترا ومصر فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معاهدة لتسهيل تبادل البريد وعقدتا فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة للتعاون على إبطال الرقيق .

ويظهر لك مبلغ حرص إسماعيل على كسب رضا إنجلترا ، وتجنب مخالفتها ، أنه لما جرد سنة ١٨٧٥ حملة إلى شواطىء الصومال الواقعة على المحيط الهندى لبسط نفوذ مصر فى شرق أفريقية والوصول من هذه الجهة إلى أملاكها فى خط الاستواء ، استاءت إنجلترا من هذه الحملة ، وأرسلت إلى إسماعيل تعترض على إنفاذها ، فبادر الخديو إلى الاستجابة لاحتجاجها ، واسترجع الحملة إلى مصر استبقاء لعلاقات الود بينهما .

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد وإياها معاهدة اعترفت فيها إنجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية . فكانت هذه المعاهدة مظهراً من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وإنجلترا

على أن هذا الود لم يمنع إنجلترا من أن تضمر الشر لمصر ، وتعمل على إخضاعها للرقابة الأجنبية . ولما اشتد الخلاف بين الخديو والدائنين سعت سعيها فى خلعه ونجحت فى مسعاها سنة ١٨٧٩ ، فكان هذا ختام [illegible] التى اتبعها إسماعيل حيالها .

* * *

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التي واجهت إسماعيل في أوائل عهده بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول إليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذي عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فرديناند دلسبس على مشروعه ، وخشي أن يكون نصيبه الإخفاق ، ولكن إسماعيل باشا بادر في أول اجتماع له بوكلاء الدول وأفضى إليهم بعزمه على تأييد المشروع

فقناة السويس يرجع إتمامها إلى تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكد يتولى المشروع في خطواته الأولى ، حتى عاجلته المنية ، فلولا اتجاه إرادة إسماعيل إلى تعضيد المشروع وإنفاذه ، لكان مصيره الحبوط لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبس عن المضي فيه ، ولعل إسماعيل أراد بذلك أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراءهم وثناءهم ، ويستحق في نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فعضد المشروع بكل قوته ، واحتمل تبعة إتمامه ، كما احتمل سعيد تبعة البدء فيه والتصميم على إنفاذه .

سعي إسماعيل في تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقرر أن إسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التي نالتها الشركة في عقد الامتياز ، فسعى جهده في تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد

ومما يؤثر عنه أنه قال يوماً : « إني أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة » وقيل أنه فكر يوماً في أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع ، ولو حقق هذه الفكرة لجعل القناة حقيقة ملكاً لمصر ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى في إلغائها وهي

١ – تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية عشرين ألف باستمرار[1] ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض فى حال نقصهم أو عجزها عن تقديم هذا العدد .

٢ – ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التى كلفت بمقتضى العقد إنشاءها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تغتصبه منهم حسب تقديرها .

٣ – ملكية الشركة لجميع الأراضى التى ترى أنها فى حاجة إليها لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة ، وإعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عنها ، وملكيتها لجميع الأراضى التى تستصلحها وتزرعها ، وإعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات .

٤ – إضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وقد فاوض إسماعيل الشركة لإلغاء هذه الشروط ، واعتمد فى مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججاً وأسانيد قوية تأييداً لطلباته ، وكانت حجته فى إلغاء الشرط الأول رغبته فى إلغاء السخرة ، لأن هذا الشرط هو إقرار فعلى لتسخير العمال والفلاحين فى العمل لفتح القناة ، وهذا ما لا يتفق ومبادىء الإنسانية .

وحجته بالنسبة للشرط الثانى والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملكية العقارية والتى كانت متبعة فى مصر وقتئذ ولا تجيز التنازل للأجانب عن ملكية الأراضى والعقارات

وكانت أولى خطواته فى تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقاً مع الشركة فى ١٨ مارس سنة ١٨٦٣[2] يقضى بأن تتولى الحكومة إنشاء الترعة فى القسم الممتد بين النيل ووادى الطميلات ، ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة ، وقد عرفت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الإسماعيلية ، وغرض الخديو من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة ، وانتزاعها ملكية الأفراد من الأطيان التى يقتضيها إنشاؤها ، وكان عمله فى هذا قرين الحكمة والسداد

ووفد إسماعيل وزيره نوبار باشا إلى الأستانة ، ثم إلى فرنسا ، للسعى فى تخفيف شروط

---

[1] بلغ هذا العدد ٢٢ ألفاً فى أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٣٤ من وثائق القناة للمسيو دلسبس)

[2] وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٢٩٠

الامتياز وأوضح مطالبه فى رسالة بعث بها نوبار إلى الشركة[3] وتتلخص فيما يلى

١ – إنقاص عدد العمال الذين تلزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفاً) يضر بالبلاد والزراعة

٢ – زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم ، لكى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة

٣ – إلغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى ، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدتها إتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها

وقد عارضت الشركة فى هذه المطالب ، بحجة أن إنقاص عدد العمال من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع ، ويطيل مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر ، مما يكبد الشركة خسائر جسيمة ، وأن تمسكها بالأراضى القابلة للاستصلاح ، وللترعة من رأس الوادى إلى القناة ، من المسائل الجوهرية ، التى لا تتنازل عنها .

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتد الجدل حول مطالب إسماعيل ، وهبّت الصحف والدوائر السياسية والمالية فى فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة فى إبطالها ، وارتضى الخديو أخيراً تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيس ، للفصل فى النزاع ، فكان هو الخصم والحكم ، لما كان معروفاً عنه من تأييده للشركة ، وعطفه على المسيو فرديناند دلسبس ، ويرجع هذا العطف إلى أن المشروع فى ذاته عظيم النفع لفرنسا ، وإلى أن دلسبس يمت إلى الإمبراطورة أوجينى بصلة قرابة بعيدة

الحكم فى النزاع

أصدر نابليون الثالث حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بما يأتى

١ – إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وإلزام الحكومة فى مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك

---

[3] بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ – وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٣٥٠

٢ – تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضا قدره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك

٣ – حل الأراضي المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣,٠٠٠ هكتارا تقريبا(٤) منها ١٠,٢٦٤ هكتارا على جانبي القناة البحرية وملحقاتها ، و ٩,٦٠٠ هكتار بترعة المياه العذبة ، وثلاثة آلاف هكتار مباني الشركة

٤ – إعادة الأراضي الأخرى التي اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠,٠٠٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك(٥) .

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما ألزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الإمبراطور نابليون الثالث ٨٤,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا = (٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه) ، وبيانها كما يأتي بالجنيهات :

جنيه	
١,٥٢٠,٠٠٠	مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة
٦٤٠,٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة
١,٢٠٠,٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن دعواها في ملكية الأراضي
٣,٣٦٠,٠٠٠	مجموع التعويضات

وإذا علمت أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم على مصر بأدائها ، وأنها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة

ويعد هذا الحكم من الأحكام الجائرة في التاريخ ، لأنه بني على أسباب لا يسيغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الإمبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن [illegible] وهي

الأول : [illegible] تقديم العمال المصريين [illegible] هذا التعويض على أن [illegible]

---

(٤) [illegible]

(٥) [illegible] ج ٤ ص ١٧٦

بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وأن إخلالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة إلى جلب عمال من أوروبا ، تدفع لهم فروقاً في الأجرة ، وإلى استحضار آلات تغني عن الأيدي العاملة ، وتكلفها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسئولة عن هذه الفروق والنفقات ، وقد قدر بهذا المبلغ الضخم (١,٥٢٠,٠٠٠ جنيه)

ولا مراء في أن هذا السبب ظاهر فيه التعسف والهوى ، لأنه من التأمل في شروط الامتياز يتبين أنها لا تتضمن « التزاماً » من الحكومة بتقديم أي عدد من العمال ، بل كل ما ورد في العقدين أربعة أخماس العمال يكونون من المصريين (مادة ٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) ، فليس في العقد « التزام » بالمعنى القانوني يؤدي إلى الحكم بتعويضات فيما إذا لم تسخر الحكومة العدد الذي تبتغيه الشركة من العمال ، بل كان على الشركة أن ترغب العمال في العمل بالأجور التي تعرضها عليهم ، أما جعل العمل إجبارياً بواسطة سلطة الحكومة ، فأمر لم تلتزم به الحكومة أصلا في عقد الامتياز .

الثاني : تنازل الشركة للحكومة عن إتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذي أنشأته فيها، وقد رتب الحكم على هذا التنازل إلزام الحكومة بتعويض للشركة مقابل النفقات التي بذلتها في الجزء الذي أنشأته وحرمانها من الأرباح التي كانت تنالها من استغلال الترعة بعد تمامها ، وقدر هذا التعويض بمبلغ ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٤٠,٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضي بألا تلزم الحكومة إلا بما أنفقته الشركة فعلا على الجزء الذي أنشأته ، ما دامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان إسماعيل باشا مستعداً لأدائه ، ومقداره باعتراف الشركة ٧,٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٣٠٠,٠٠٠ جنيه) ولكن التحيز والهوى جعلا نابليون الثالث يكيل المال جزافاً للشركة

الثالث : تنازل الشركة عن ملكية الأراضي التي تبين من الحكم عدم لزومها لإنفاذ المشروع ، وقد قدرت في الحكم بـ ٦٠,٠٠٠ هكتار ، وهنا أيضاً ظهر الغرض والتحيز للشركة ، لأن هذه الأراضي هي جهات صحراوية جرداء ، لم تكن الشركة قد استصلحتها بعد ، واتضح أن إنفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمناً لها على اعتبار ما سيئول إليه أمرها في المستقبل !! فجعل لكل هكتار (فدانين تقريباً) خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة في هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه) ، وهكذا قضت « عدالة » نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا [illegible]

ساحة لبناء ملكه فى حوزتها ، وهذا من أغرب ما يجىء فى معرض الظلم والجور

والخلاصة أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفقة المغبون ، وخرجت الشركة بحكم [illegible] مبيناً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو أن وصفه المسيو فرديناند دلسبس بأنه «السند الأساسى للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها»(٦) ، وكذلك كانت مراحل المشروع منذ البدء فيه إلى ما بعد إتمامه شؤماً ووبالاً على البلاد .

وغنى عن البيان أن الحكمة كانت تقضى بألا يورط الخديو إسماعيل فى مثل هذا التحكيم ، الذى جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو أنه استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيماً لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة فى العمل ، إذ كان كل شىء معلقاً على الأيدى العاملة المصرية ، ولولا تلك الأيدى النشيطة القوية ، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ، دون أن تحرك مصر ساكناً ، ولكن شاء جد مصر العاثر أن يركن إسماعيل إلى «العدالة الأوروبية» ، فوقع على يدها ما رأيت من الظلم والاجحاف .

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد إسماعيل والشركة إتفاقاً فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضى بما يأتى :

١ – تحديد مواعيد الأقساط المقررة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة

٢ – استبدال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات القناة المالحة .

٣ – التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى

٤ – مبيع أراضى تفتيش الوادى(٧) للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك (٤٠٠ ألف جنيه)

٥ – حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حرماً للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد على شرط ألا يكون ذلك الاحتلال عائقاً للملاحة

---

(٦) [illegible] ص ٢٦٧

(٧) [illegible] ١٧٠٠٠ [illegible]
[illegible] للشركة

٦ – شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضى لمباد تنشئها لمصلحتها كالبريد والتلغراف والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة ، وأن تدفع للشركة المبالغ التى تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة

ثم أبرم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاق مكمل مع الشركة يتضمن الشروط الواردة فى عقد الامتياز الأصلى مع التعديلات المترتبة عليه(٨)

تصديق السلطان – واتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩

وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦(٩) .

وعقد إسماعيل والشركة اتفاقاً آخر فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ ، ألغى فيه الشرط الخاص بإعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، وأعطاها مقابل ذلك تعويضاً قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات مقابل عشرة ملايين فرنك(١٠)

انتهاء العمل وافتتاح القناة

(نوفمبر سنة ١٨٦٩)

وانتهى العمل فى حفر القناة واتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، فكأن العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلو متراً ، وأنشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الاسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ .

وأقام إسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات الفخمة التى لم يعرف التاريخ لها مثالاً يدانيها فى الإسراف والتبذير

ويكفيك دليلا على مبلغ ذلك الإسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على أصح تقدير ١،٤٠٠،٠٠٠ جنيه ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم

---

(٨) و(٩) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥

(١٠) كتاب «تاريخ قناة السويس» للمسيو شارل رو Roux ج ١ ص ٥٠١

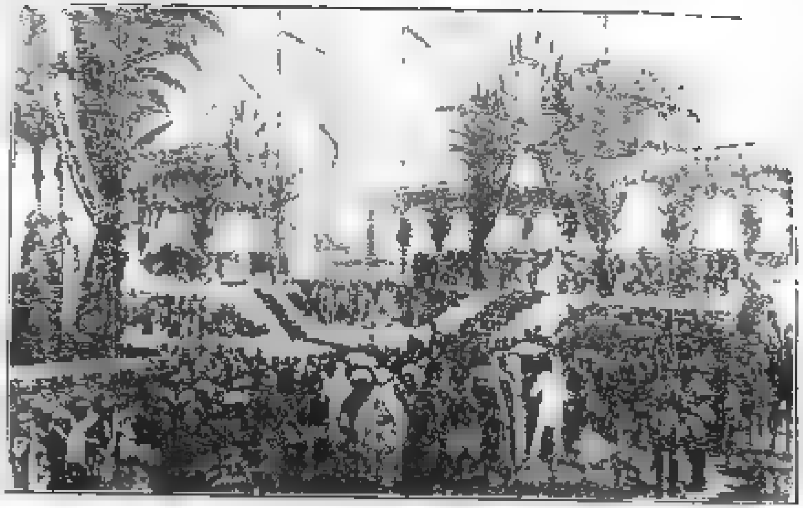

حفلة افتتاح قناة السويس ببورسعيد
يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاث منصات ، خصصت المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعوين ، والثانية لرجال الدين الإسلامي ، والثالثة لرجال الأكليروس ، وجلس في المنصة الكبرى . الخديو إسماعيل . أوجيني امبراطورة الفرنسيين . فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا وملك المجر . الأمير فردريك ويلهلم ولي عهد بروسيا . الأمير هنري أخو ملك هولندا والأميرة قرينته . السير هنري إليوت سفير انجلترا بالآستانة وعقيلته الليدي إليوت . الأمير مورا . الأمير محمد توفيق باشا ولي العهد . الأمير هو هنلوه . الجنرال اجناتييف سفير روسيا في الآستانة ومدام اجناتييف . الأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصي العالي ومجلس الوزراء . نوبار باشا وزير الخارجية . شاهين باشا وزير الحربية والبحرية . رياض باشا خازندار الخديو . المسيو فرديناند دلسبس . الأمير عبد القادر الجزائري . المسيو دوبست والكونت أندراسي من وزراء النمسا . البارون بروكتش سفير النمسا في الآستانة إلخ إلخ

وقد ألقى الشيخ إبراهيم السقا في هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة العربية . ثم تلاه مونسنيور « بوير » واعظ نابليون الثالث الذي جاء خصيصاً من فرنسا لحضور الاحتفال وألقى خطبة تبريك باللغة الفرنسية

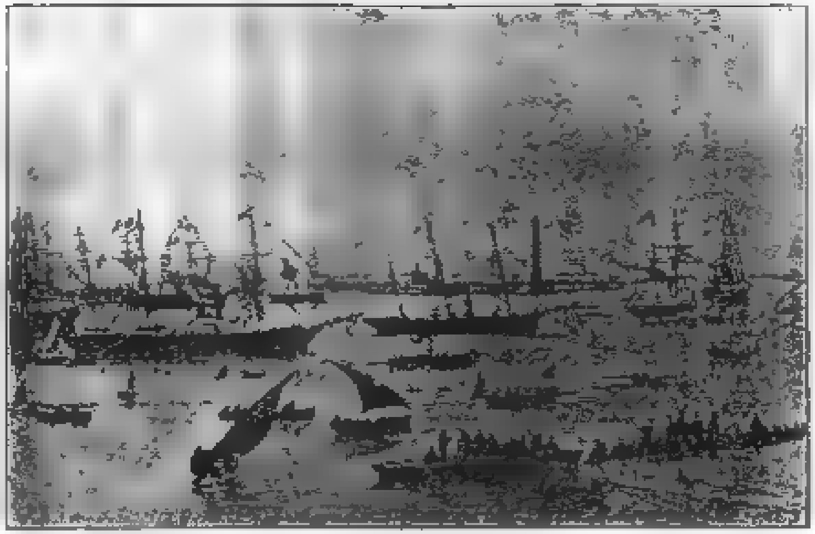

دخول البواخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس
في صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
إيذاناً بافتتاح القناة للملاحة
وترى في مقدمة البواخر السفينة (ليجل) L'Aigle تقل الإمبراطورة أوجيني

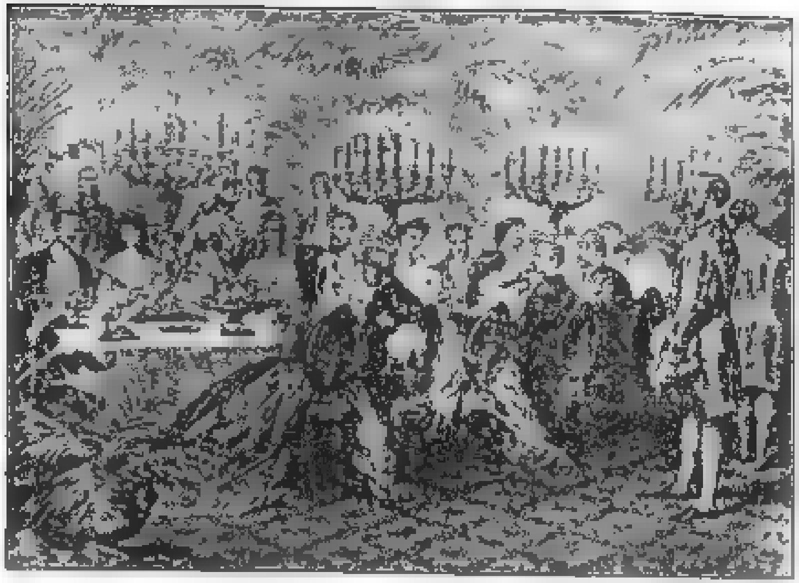

إحدى الحفلات الفخمة التي أقيمت ابتهاجاً بافتتاح قناة السويس

وليمة العشاء التي أقامها الخديو إسماعيل لضيوفه في قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد مدت الموائد في جنبات الحفلة لألوف المدعوين ، وترى في صدر المائدة الرئيسية الإمبراطورة أوجيني إمبراطورة الفرنسيين ، وعن يمينها فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا ، وعن يسارها الأمير فردريك ولهلم ولي عهد بروسيا ، وإلى يمين الإمبراطور فرانسوا جوزيف عقيلة السير اليوت سفير انجلترا بالأستانة ، ثم الجنرال اجناتييف سفير الروسيا في الأستانة ، وإلى يسار ولي عهد بروسيا عقيلة سفير الروسيا ، ثم السير هنري اليوت سفير انجلترا بالأستانة ، وأمامهم الخديو إسماعيل ، وإلى يمينه أميرة هولندا ، فالأمير مورا ، وإلى يسار الخديو أمير هولندا ، ثم مدام دي بوار ، ثم المسيو فرديناند دلسبس

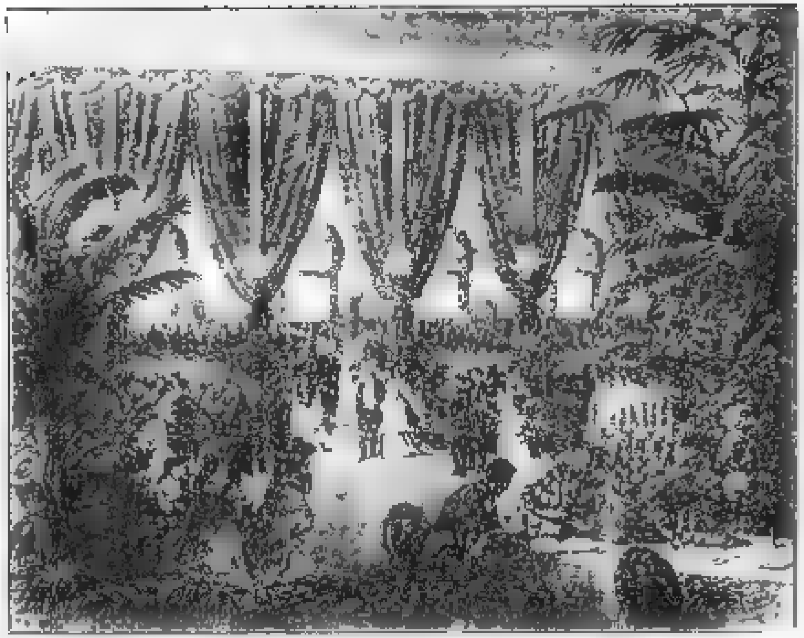

(البالو) أو حفلة الرقص التي أقامها الخديو إسماعيل في قصره بالإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجاً بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصورة السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس
Inauguration du Canal de Suez للمسيو نيكول Nicole وهذا الكتاب وضع خصيصاً
لوصف حفلات القناة والصور التي فيه من رسم ريو Riou

يصبح فى حفلات لا طائل منها فى الوقت الذى استهدفت فيه الحكومة والبلاد لأشد ضروب الضيق المالى

خسائر مصر المالية فى إنشاء القناة

يقدر مؤلف «تاريخ مصر المالى» ما خسرته مصر فى إنشاء القناة ، من ثمن أسهمها فى الشركة ، وما دفعته لها من التعويضات ، وما دفعته فى إنشاء ترعة الإسماعيلية ، واسترداد أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦٬٨٠٠٬٠٠٠ جنيه[11] .

وهذا التقدير هو أقرب الإحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة لمجلس شورى النواب بجلسة ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وإيراداتها ومصروفاتها ، فقد جاء فيه أن مجموع ما دفعته فى قناة السويس ١٦٬٠٧٥٬١١٩ جنيه مصرى ، وهذا الإحصاء يقل عن إحصاء المستر إدوين دى ليون Edwin de Leon قنصل الولايات المتحدة العام فى مصر على عهد إسماعيل ، فإنه قدره بمبلغ ١٧٬٤٢٣٬١٧٨ جنيه إنجليزى[12]

ومن هذه المقارنة يتضح أن إحصاء مؤلف تاريخ مصر المالى هو الرقم الوسط الذى يصح الاعتماد عليه ، وسنجتهد هنا فى أن نضع مفردات هذا الإحصاء طبقاً للبيانات التى أوردناها .

جنيه	
٣٬٤٢٦٬٠٠٠	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣٬٣٦٠٬٠٠٠	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة
٤٠٠٬٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١٬٢٠٠٬٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩
١٬٢٠٠٬٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١٬٤٠٠٬٠٠٠	نفقات حفلات القناة
١٠٬٩٨٦٬٠٠٠	
٥٬٨١٤٬٠٠٠	فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك
١٦٬٨٠٠٬٠٠٠	مجموع الخسارات

---

(11) تاريخ مصر المالى ص ١٣٦ ، ولم يذكر المؤلف مفردات هذا الإحصاء

(12) فى كتابه (مصر الخديوى) The Khedives Egypt طبع سنة ١٨٧٧ ص ٤١٧

ولا تحسبن أن فى رقم الفوائد وما إليها مبالغة ، فإن المستر إدوين دى ليون يقدرها فى حسابه بمبلغ ٦٬٦٦٣٬٠٠٠ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه)

وإذا علمت أن نفقات إنشاء القناة بأكملها بلغت بحسب إحصاءات الشركة ٤٥١٬٦٥٦٬٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها معظم هذه النفقات ، وإذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت من أسباب ارتباكها المالى ، كان الجواب أنها لم تنل من القناة أية فائدة ، بل عادت عليها بالويل والخسران ، إذ كانت مقدمة الاحتلال الإنجليزى ، وفى ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد «يمكننا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذى ما زال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة لما أمكن دلسبس أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً لما نحن فيه من الاحتلال الأجنبى ، وما سنراه نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير»[13]

بيع أسهم مصر فى القناة

كان لمصر من أسهم شركة القناة ١٧٦٬٦٠٢[14] سهماً ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى نصف أسهم الشركة ، لأن مجموع الأسهم ٤٠٠ ألف سهم .

وقد اكتتب فيها سعيد باشا واشتراها بمبلغ ٣٬٤٢٦٬٠٠٠ جنيهاً ، ولا ريب أن امتلاك هذا المقدار من الأسهم كان من شأنه أن يجعل لمصر شيئاً من الهيمنة على الشركة وإدارتها ، ويخولها حق التدخل فى شئونها ، كما أنها مورد أرباح وفيرة تعود على الخزانة المصرية بأعم الثمرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع أسهمها بدرجة فاقت كل تقدير

ولكن إسراف إسماعيل أبى إلا أن يحرم مصر هذه الثروة الصحيحة . ففى سنة ١٨٧٥ أعوزه معين من المال ينصب بين يديه ، بعد القروض الباهظة التى استدانها ، والأعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزانة ، ففكر فى بيع أسهم مصر فى القناة وعرضها محلاً للبيع

وقد بدأ بعرضها على فرنسا ، فترددت فى الأمر ، ولكن الحكومة الإنجليزية ما لبثت أن علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة

---

(13) تاريخ الدولة العلية ص ٣١٧ للمرحوم محمد بك فريد

(14) عددها فى الأصل ١٧٧٬٦٤٢ ، باعت منها الحكومة من قبل ١٠٤٠ سهماً فصار الباقى ١٧٦٬٦٠٢

واشترت هذه الأسهم بثمن بخس أربعة ملايين من الجنيهات الإنجليزية ، وبهذه الصفقة ضاع إسماعيل على مصر للبرة التى بقيت لها من مشروع عناه

خسائر فادحة

وقد سمت قيمة هذه الأسهم (فى سنة ١٩٢٩) ٧٢ مليون جنيه ، وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨,٦٠٠٠٠٠ جنيه ، ومجموع ذلك يف ومائة مليون جنيه وعشرة ملايين من الجنيهات ، أى أن خسارة مصر من هذه الناحية بلغت إلى تلك السنة

١١٠٠٠٠٠٠٠ — ٤٠٠٠٠٠٠ = ١٠٦٠٠٠,٠٠٠ جنيه

وثمة خسارة أخرى أصابت مصر إذ تنازلت عن ١٥ فى المائة من أرباح القناة التى كانت تؤول لها بمقتضى عقد الامتياز ، تنازلت عن هذه الحصة بسبب قروض إسماعيل مقابل ٢٢ مليون فرنك أى ٨٨٠،٠٠٠ جنيه ، وقد بلغت قيمة هذا النصيب الآن (سنة ١٩٣٢) نحو ٢٠ مليون جنيه ، وهو يغل إيراداً لا يقل عن ٨٦٩،٠٠٠ جنيه فى السنة

وهذه الأرقام تدلك على مبلغ ما أصاب مصر فى الصفقتين من الخسران المبين.

* * *

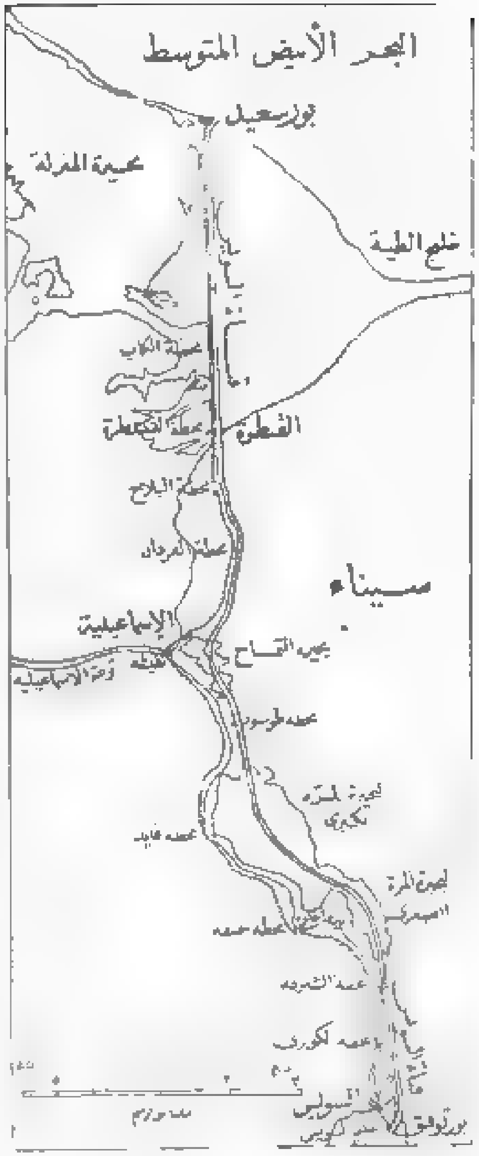
البحر الأبيض المتوسط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
خليج الطينة
محطة الكاب
محطة القنطرة
القنطرة
محطة البلاح
محطة الفردان
سيناء
الإسماعيلية
بحيرة التمساح
نفيشة
ترعة الإسماعيلية
محطة طوسون
البحيرة المرة الكبرى
محطة فايد
البحيرة المرة الصغرى
محطة جنيفة
محطة الشلوفة
محطة كبريت
السويس
بورتوفيق
ترعة السويس
مقياس الرسم

قناة السويس وتواريخها الهامة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ منح سعيد باشا امتياز القناة إلى المسيو دلسبس

٥ يناير سنة ١٨٥٦ : شروط الامتياز

٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ : ابتداء العمل فى حفر القناة.

٦ يوليو سنة ١٨٦٤ : حكم الإمبراطور نابليون الثالث.

١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ : افتتاح القناة للملاحة

٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ : بيع أسهم مصر فى القناة إلى انجلترا.

٧ أبريل سنة ١٩١٠ . رفض الجمعية العمومية المصرية مد الامتياز

١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ : انتهاء الامتياز وعودة القناة إلى مصر

الفصل الخامس

السودان في عهد إسماعيل

من مآثر الخديو إسماعيل التي تخلد ذكره في تاريخ مصر القومي أنه وجه عنايته وهمته إلى إتمام فتح السودان ، والوصول إلى حدود مصر الطبيعية . ومعلوم ، أن هذه الحدود تشمل وادي النيل ومنحدراته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، إلى منابع النيل والأقيانوس الهندي جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً إلى صحراء ليبيا (لوبيه) غرباً .

ولقد أكمل إسماعيل من هذه الناحية العمل الذي بدأه محمد علي ، فوسع نطاق السودان ، وبسط الحكم المصري في أنحائه ، ومدّ رواق الحضارة والعمران على ربوعه .

توسيع نطاق السودان

بينا في كتاب « عصر محمد علي » (ص ١٩٢ الطبعة الأولى) مدى فتوح مصر في السودان على عهد محمد علي ، وذكرنا أن حدود السودان وصلت شرقاً إلى البحر الأحمر ، وضمت إقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقي نهر عطبره . ووصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع في نطاقها ، وبلغت الحملات والتجاريد جنوباً إلى جزيرة (جونكر) تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض .

فلنذكر الآن الفتوح المصرية في الأقطار السودانية على عهد إسماعيل ، وخلاصتها أن مصر فتحت مديرية فاشودة ، وضمت محافظتي مصوع وسواكن نهائيًّا إلى أملاكها ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكة (أونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنّهيت ، وبلاد البوغوس ، وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب ، وضمت محافظتي زيلع وبربرة الواقعتين على خليج عدن ، فيما يلي بوغاز باب المندب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة في الجنوب الشرقي من الحبشة ، ودخلت سواحل الصومال

ـبه في أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندي ، ثم إلى رأس (حافون) وبذلك كله انفسحت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنوباً إلى بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا . وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود (وداى)

وسنذكر فيما يلي هذه الفتوح تفصيلا .

فتح فاشودة

(سنة ١٨٦٥)

في سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشودة احتلالا رسمياً ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حربية دائمة لمنع تجارة الرقيق فسدّت الطريق أمام النخاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال خط الاستواء ، وصارت فاشودة عاصمة المديرية المسماة باسمها .

ولفاشودة أهمية كبرى ، نالتها من موقعها الجغرافي والحربي ، فإنها تعد مفتاح النيل الأعلى ، لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبي السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط وبحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء .. ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وفي الجهات الجنوبية منه إلى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية

ولا يخفى أن فاشودة هذه هي التي قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين انجلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتها كتيبة من الجنود الفرنسية بقيادة الكولونيل مرشان Marchanod. فاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا الاحتلال ، وارتكنت على أنها من الأراضي المصرية . ثم انتهى النزاع بانسحاب الفرنسيين منها وبقائها من أراضي مصر ، وقد اكتسبت شهرة دائمة بسبب هذا النزاع الذي دار حولها .

وقد غير الإنجليز اسمها ، وسموها الآن (كودوك) ، وغيروا اسم مديرية فاشودة ، فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لكي يمحوا من الأذهان اسم فاشودة وما يثيره من ذكرى الخلاف السياسي الذي قام بشأنها سنة ١٨٩٨ . والذي كانت حجة انجلترا فيه أن هذا البلد من أملاك مصر

فليذكر المصريون على الدوام اسم (فاشودة) . فإنه من الأعلام التاريخية التي تسجل في وجه الغاصب حق مصر الخالد في السودان

ضم سواكن ومصوع

قلنا في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد علي) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا في حدود السودان المصري على عهد محمد علي ، لأنه إذ رأى ضرورتهما للسودان ، وأنهما منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لإقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل إيجار سنوي قدره ٢٥ ٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا في ظل الحكم المصري .

على أن إسماعيل رأى إلحاقهما بصفة نهائية إلى أملاك مصر ، فاستصدر في سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان بإحالة قائمقاميتي سواكن ومصوع إلى عهدته ، وجعلهما فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذي تكلمنا عنه (ص ٧٩) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها . فمحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس علبة إلى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهي محافظة سواكن إلى حلة (رهيطة) عند بوغاز باب المندب

وقد عمرت مصوع وسواكن في ظل الحكم المصري ، ذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها وبين اليابسة بجسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم إنشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعت ، وبني فيها ديوان المحافظة ، وآخر للجمرك ، ومساكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة . وأنشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة إلى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان تجمع مياه الأمطار في سفح جبل قريب من المدينة (١٥)

وظلت المحافظتان ملكاً لمصر إلى نشوب الثورة المهدية ، فلما اضطرت حكومة الخديو توفيق

---

(١٥) الوقائع المصرية العدد ٣٥١

إلى الفرار بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار في نظر الدول الاستعمارية نهباً مقسماً ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتواطئها مع الإنجليز ، واحتلت عاطفة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحتلها إلى اليوم ، (١٩٣٢) وتسمى هي وملحقاتها مستعمرة (الأريترية) أما سواكن فقد جُعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة عاطفة تابعة لحكومة السودان

فتح إقليم خط الاستواء والوصول إلى منابع النيل

أسلفنا القول أن الحملات والتجاريد المصرية التي قادها البكباشي سليم بك قبطان في عهد محمد علي بلغت جزيرة جونكر تجاه غندكرو (راجع عصر محمد علي ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتياً ، بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة في تلك الجهات تقر سلطة الحكومة فيها ، فاعتزم إسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة في تلك الأصقاع . وما يليها جنوباً حتى منابع النيل ، ولكنه لم يجد [illegible] في أن يعهد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصري . بل عهد بها إلى جماعة من الإنجليز ، وهذه مواطن ضعف في سياسته أدى إلى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلي :

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزي المشهور الزحف إلى الجهات الجنوبية لغاية منابع النيل وضمها إلى أملاك مصر.

رحلته في عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر في السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه إلى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه إلى تحقيق هذا الغرض ، موفدين من قبل الجمعية الجغرافية الإنجليزية ، فجاءا بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (أكروي) ومنبع النيل منها . وكان ذلك في ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ ، وسمياها باسم الملكة فكتوريا ، ملكة إنجلترا في ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا).

أما السير بيكر فآثر أن يسلك في اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوباً في النيل فبلغ في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ غندكرو التي وصلت إليها حملات البكباشي سليم بك قبطان في عهد محمد علي سنة ١٨٤١ ، وأخذ يتأهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرحالتان اسبيك وجرانت قد التقيا به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنبآه أن هنالك بحيرة أخرى أخبرهما بها الأهلون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسماها بحيرة (ألبرت) باسم الأمير ألبرت زوج ملكة إنجلترا

ثم عاد إلى غندكرو ، ومنها إلى الخرطوم فبلغها في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ ، وعاد من هناك إلى بربرة فسواكن ، وأقلع إلى إنجلترا ، وقد صحبته امرأته الثبتة ، في هذه الرحلة الطويلة ، وقاسمته مخاطرها ومتاعبها ، وكان لها الفضل الكبير في نجاحه في مهمته التي رفعته إلى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فإن اسمه يقترن دائماً باكتشاف بحيرة ألبرت إحدى منابع النيل الكبرى .

مهمته في عهد إسماعيل

(١٨٧١   ١٨٧٣)

انقضت خمس سنوات تقريباً على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ يصحب الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس . ورغب الأمير إلى الخديو إسماعيل أن يعهد إليه بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد إسماعيل في قبول الطلب ، إذ كان يبغي التودد إلى الحكومة الإنجليزية

لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الإنسانية ، بل كانت الحكومة الإنجليزية ترمي إلى تمهيد السبيل لتحقيق أطماعها الاستعمارية في وادي النيل ، وبيان ذلك أن إنجلترا بعد إنفاذ مشروع قناة السويس أخذت تتطلع إلى احتلال مصر ، وترمق أملاكها في السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل في شئونه ، لكي تخلف مصر وما هي فيه ، [illegible] سماها السير صمويل بيكر ثم لكولونيل غوردون من بعده ، إلا كمهمة [illegible] استعمارية

وقد كان الخديو إسماعيل [illegible] حتى أن يبسط

---

(١) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر [illegible] ص ٢١

عدد معه فى السودان على يدى بكر وغردون وضرابهم ، من دعاة الاستعمار الإنجليزى لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا لمصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الإنجليزية التى كانت ولا تزال ترمى إلى إقصاء النفوذ المصرى عن السودان

قبل إسماعيل إذن ما عرضه عليه ولى عهد انجلترا . وأصدر مرسوماً إلى السير صموئيل بيكر يعهد إليه فيه ببسط نفوذ مصر فى الأصقاع الكائنة جنوبى غندكرو ، وتنظيمها ونشر التجارة فيها ، ومصادرة تجارة الرقيق وإنشاء المحطات الحربية فيها . وجعله قائداً لحملة جردها لهذا الغرض مؤلفة من ١٧٠٠ مقاتل ، وأنعم عليه برتبة فريق فصار يعرف ببيكر باشا ، وجعله حاكماً على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات ، تبتدئ من أول أبريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره ١٠٬٠٠٠ جنيه فى السنة

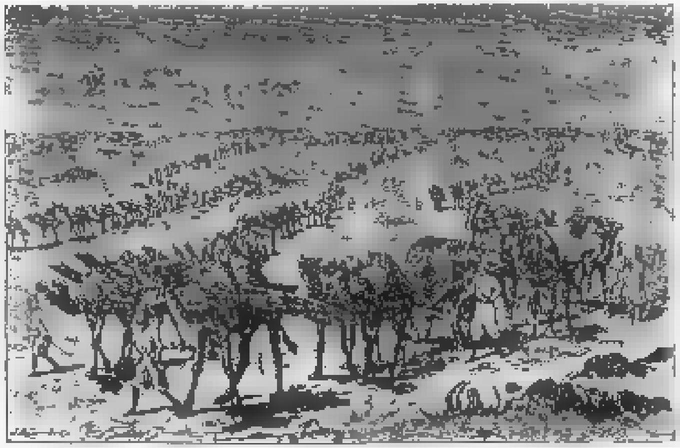
نقل جنود الحملة وذخيرتها على ظهور الإبل من مصر إلى السودان فى صحراء النوبة أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

وقد صحبته فى هذه الحملة زوجته النبيلة كما صحبته فى رحلته الأولى ، ورافقته فى الرحلات البعيدة التى قطعها . وشهدت الوقائع التى خاضها ، فكانت له نعم العضد الصادق الأمين . وامتدح بيكر صفاتها فى كتابه (الإسماعيلية) الذى أورده لذكر هذه الحملة ، وأشاد ته من الجهود فى معالجة المرضى والجرحى ، وما كانت تبثه فى النفوس من روح الشجاعة والإقدام ، وما أسدته من حسن التدبير لنجاح مهمته ، فكانت مضرب الأمثال فى ـه تؤديه لزوجها من جليل الخدمات ، ومشاركتها إياه فى المهام الجسام

جهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة ، وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة إلى الخرطوم . واقتضى نقلها متاعب جمة ، إذ لم يكن فى استطاعة البواخر اجتياز الشلالات ، فنقلت أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل فى صحراء النوبة ، وكذلك نقلت المهمات الثقيلة [illegible] وسة ، أما بيكر باشا فقد سار بحراً من السويس إلى سواكن ومنها إلى بربرة على ظهور الإبل فقطع المسافة بينهما فى أربعة عشر يوماً ، واستقل من بربرة باخرة نيلية حتى بلغ الخرطوم

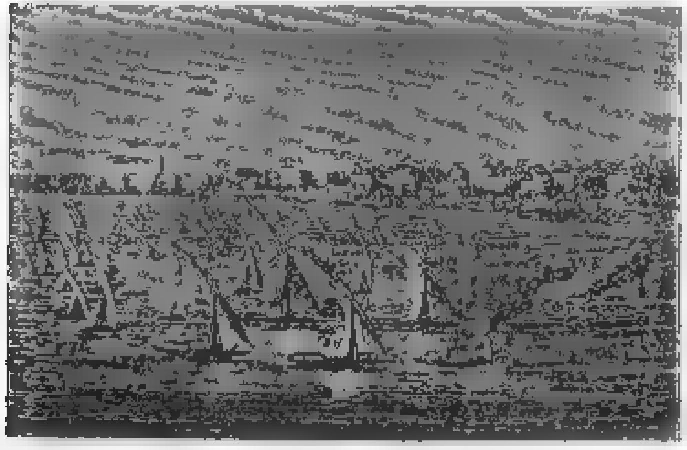
الأسطول الذى أقل الحملة من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح إقليم خط الاستواء وكان مؤلفاً من ثلاثين سفينة شراعية وباخرتين

وصل بيكر باشا إلى الخرطوم ، فى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ (١) فى حملة تقلها ثلاثون سفينة وباخرتان قاصداً جهات خط الاستواء ، فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوبى فاشودة) وبنى هناك محطة عسكرية

---

(١) الإسماعيلية للسير صموئيل بيكر باشا ص ١٠١ و ١٤٣

[illegible] وفي عهد الأريكة الخديوية في ذلك العصر [illegible] هذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوباً حتى بلغ غندكرو التي وصل إليها من قبل البكباشي سليم بك قبطان في عهد محمد علي

رفع العلم المصري على غندكرو

بلغ بيكر غندكرو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ (١٨) ، فرفع عليها العلم المصري يوم ٢٦ مايو في احتفال عسكري مهيب ، أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى أملاك مصر

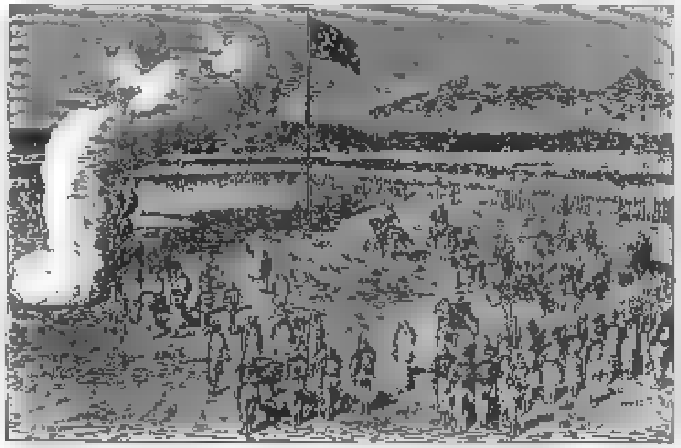

حفلة رفع العلم المصري على غندكرو ([illegible] إعلان ضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

كان هذا اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ السودان ، إذ اصطفت الجنود المصرية بغندكرو في صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، وبلغ عدد الجند الذين حضروا الاحتفال ١٫٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفاً يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رؤوسهم الكوفيات متدلية على أكتافهم ، وساروا تتقدمهم الموسيقى إلى مكان الاحتفال حيث نصبت سارية

---

(١٨) الإسماعيلية للسير صموئيل بيكر جـ ١ ص ١٠١ و ١١٣

[illegible] مراكبهم في حلة عسكرية بديعة [illegible] [illegible] الجند ، [illegible] من محصن [illegible] [illegible] من الجميع الإعلان الرسمي الذي قرر فيه رسمياً ضم هذه [illegible] أملاك مصر ، وعندما تم تلاوة الإعلان رفع العلم المصري على السارية الكبيرة ، وحيوه تحية جميلة بالسلاح العسكري ، وأطلقت المدافع تحية وإجلالاً

وقد سمى بيكر باشا غندكرو (الإسماعيلية) باسم الخديو إسماعيل ، وجعلها عاصمة [illegible] خط الاستواء (مصر الخريطة ص ١٢٥)

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ (١٩) استأنف السير في النيل الأبيض (٢٠) ، فأسس بنفسه معسكره

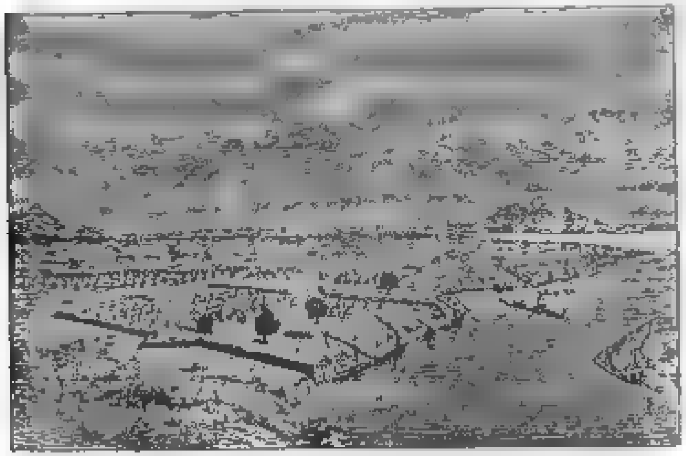

المعسكر المصري في غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢

---

(١٩) الإسماعيلية للسير صموئيل بيكر ص ١٩٢

(٢٠) [illegible] الأبيض على مجرى النيل من منابعه إلى الخرطوم ، ويسمى بين بحيرة ألبرت [illegible] [illegible] بحر الغزال ثم بحر السوباط ويسمى بحر الجبل ، أو بحر الزراف ، ويتفرع عنه قبل التقائه ببحر الغزال فرع يسمى بحر الزراف ، ويسير المجريان ثم [illegible] على شكل دلتا إلى أن يلتقيا بالنيل ، ويستمر اسم النيل الأبيض إلى أن يلتقي بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم ، ويقصر بعض علماء الجغرافيا اسم النيل الأبيض على مجرى النهر من ملتقى السوباط بالنيل إلى الخرطوم

وحصوناً في عدة بلاد بأعالي النيل ، منها (الإبراهيمية) على بحر الجبل ([illegible]) وقد سماها بهذا الاسم تذكاراً لإبراهيم باشا أبي الخديو إسماعيل ، وأنشأ حصوناً أخرى في (فاتيكو) ثم في (فويرة) الواقعة على نيل فيكتوريا

فتح مملكة أونيورو

(سنة ١٨٧٢ – ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة في زحفها ، ففتحت مملكة « أونيورو » المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقاً واحتلت عاصمتها « ماسندى » في أبريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريقه) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية وأعلن بيكر باشا باسم الخديو دخول هذه المملكة في أملاك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبنى في ماسندى داراً للحكومة المصرية بالقرب من دار كابريقه ، وشيد حصناً لإقامة الحامية المصرية .

على أن كابريقه ما لبث أن ظهرت خيانته ، فانتقض على الحامية المصرية ، وقامت

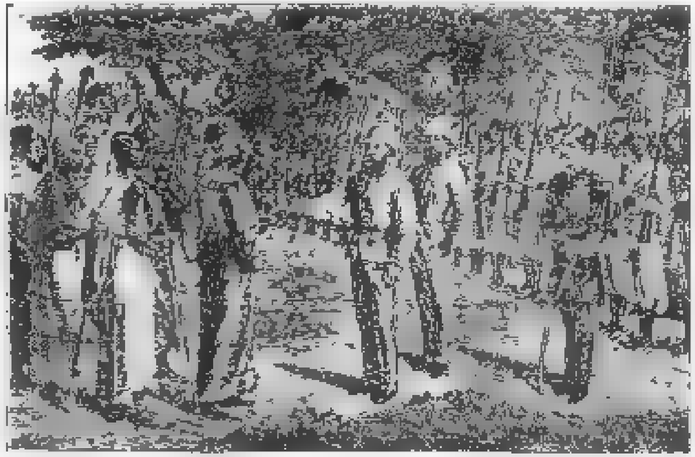

وصول ملك أونيورو بصاحبه بيكر باشا والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائمقام عبد القادر بك حلمى سنة ١٨٧٢

الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره

ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندى إلى شاطئ نيل فيكتوريا لتأوى في مكان حصين

وأعلن بيكر باشا خلع الملك كابريقه ، وولى مكانه ملكاً آخر من الأسرة الحاكمة يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريقه على عرش أنيورو بعد وفاة الملك السابق ، فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقى على ولائه لخديو مصر ، وجرد حملة على كابريقه غلبته على أمره

ولاء ملك أوغندة لمصر

وقد وفد على بيكر باشا رسل من الملك (امتيسى) ملك أوغنده المجاورة لمملكة أنيورو ، والواقعة شمالي بحيرة فيكتوريا وغربيها ، وعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر ، فأكرم بيكر وفادتهم ، وبادل مليكهم الرسائل والهدايا . وبقى (امتيسى) موالياً لمصر ، ونقم على كابريقه خيانته ، وما جنته من الحروب جزاء انتقاضه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعالي النيل وزنجبار على شاطئ المحيط الهندى .

وعاد بيكر إلى الإسماعيلية (غندكرو) في أبريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف في قيادة الجند وإدارة المديرية رءوف بك أحد ضباط الجيش المصرى ، ورجع إلى الخرطوم ، ومنها إلى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديو بالقاهرة (أغسطس سنة ١٨٧٣) فأنعم عليه بالنيشان العثماني ، وأنعم على القائمقام عبد القادر بك حلمى برتبة الميرالاى ، والملازم محمد أفندى برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم في بسط سلطة مصر في منطقة خط الاستواء

وقد بلغت نفقات هذه الحملة ٨٠٠٠٠٠ جنيه ، تحملتها خزانة مصر في وقت اشتد بها الضيق المالي ، فكان هذا المبلغ من تضحيات مصر في سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم في ربوع السودان

والميرالاى عبد القادر بك هو من أركان حرب بيكر باشا ، وهو ضابط كفء شجاع ، كان له فضل كبير في نجاح الحملة ، وقد امتدحه بيكر في مواطن كثيرة ، وأشاد بصفاته في كتابه

(الإسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته وإخلاصه[21] ، وترى رسمه في الصور التي نقلناها عن هذا الكتاب

وعبد القادر بك هو الذي صار فيما بعد عبد القادر باشا حلمي حكمدار السودان سنة ١٨٨٢[22] ، وله المواقف المحمودة في المدافعة عن سلطة مصر في السودان ، كما سيجيء بيانه في موضعه

وكان يعارض السير بيكر في مهمته جعفر مظهر باشا حكمدار السودان حينذاك ، (لغاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشا رأى بثاقب نظره أن في إسناد هذه المهمة إلى أجنبي خطراً على مصالح مصر ، وكتب بذلك تقريراً أرسله إلى الخديو إسماعيل ينبهه فيه إلى ذلك الخطر ، وأشار بإسناد هذه المهمة إلى ضباط أركان الحرب من الجيش المصري ، ولكن إسماعيل لم يلتفت إلى هذا الرأي الحكيم ، ولم يعمل به ، واستمر يحسن الظن برواد الاستعمار

تعيين الكولونل غردون (باشا) مديراً لخط الاستواء

(١٨٧٤ – ١٨٧٦)

لم يكد يمضي قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل بيكر ، وخلو منصب مدير خط الاستواء ، حتى خلفه إنجليزي آخر ، وهو الكولونل غردون الذي صار فيما بعد (غردون باشا)

ومن الغرابة بمكان أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير إنجليزيان لهما مقام معلوم في نظر الجمهور البريطاني والحكومة الإنجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل إن أصبع السياسة الإنجليزية كان لها دخل في هذا التعيين . فكما أن الحكومة الإنجليزية هي التي أوعزت إلى الخديو إسماعيل بوساطة ولي عهد انجلترا أن يسند هذا المنصب إلى السير بيكر ، فإنها هي أيضاً التي سعت لديه في إسناده إلى الكولونل غردون سنة ١٨٧٤

فالسياسة الإنجليزية كانت تمد خطتها من عهد للتدخل في شئون السودان ، وهذا [illegible] بدأته في بلاد مديرية خط الاستواء ، لأنها المنطقة التي جعلتها المرحلة الأولى لبرنامجها [illegible]

---

[21] الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٦٨ و ١٢٣

[22] كرشري : المركز الدولي لمصر في السودان ص ٢٦٦

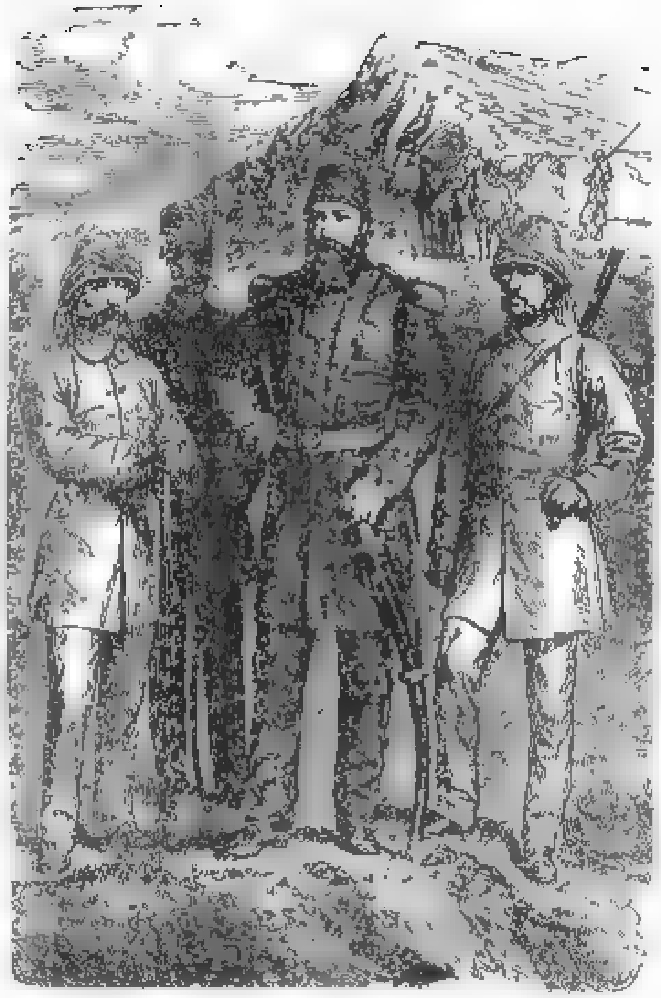

صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد إسماعيل وحوله أركان حربه وهم القائمقام عبد القادر حلمي بك فالمهندس هيجنبوثام Higgenbotham ، ثم الملازم بيكر

منابع [illegible] هي مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر حياة لمصر

وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على الكولونل غردون بالذات . فإنه الرجل الذي كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل ما لديه من تضحية في سبيل التوسع البريطاني ، وقد دلت خاتمته المحزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمتها [illegible] يدها على السودان بعد نشوب الثورة المهدية

ويدلنا على تدخل السياسة الإنجليزية في تعيينه أنها أقنعت الخديو بأن يجعل له من السلطة أكثر مما كان للسير صموئيل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعاً لحكمدار عموم السودان ، لكن غردون عين حاكماً لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلاً في عمله ، وقصر الخديو سلطة حكمدار السودان على الجزء الشمالي لغاية فاشودة ، وجعل الأقاليم الاستوائية التي تمتد من جنوبي فاشودة[٢٣] إلى خط الاستواء تحت سلطة غردون ، وفي هذا من إطلاق يده في الجزء الجنوبي من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام المصري ما لا يخفى على اللبيب ، كل هذا بسعي السياسة الإنجليزية وتدبيرها

جاء الكولونل غردون إلى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديو وكلفه الرحلة إلى السودان لتولي منصبه فيها ، وكان حكمدار السودان وقتئذ (إسماعيل باشا أيوب) ، فأرسل له الخديو أوامره في هذا الصدد ، وأمره بتعضيدها والحفاوة بغردون عند قدومه ، وبإجابته إلى كل ما يطلبه ، فاضطر للعمل بهذه الأوامر على ما فيها من غضاضة .

وأنعم الخديو على الكولونيل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ، وصارت رتبته العسكرية مساوية لرتبة حكمدار السودان ، مع أن منصبه الرسمي لم يزد عن كونه (مدير خط الاستواء)

توسيع نطاق الحكم المصري في مديرية خط الاستواء

مضى الكولونل غردون إلى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواكن ، ولما بلغ الخرطوم [illegible] صحبته إلى مقر سلطته ، فتحركت حملته [illegible] على ظهر [illegible] وصحبه من الخرطوم إبراهيم أفندي فوزي ، أحد ضباط الجيش المصري الذي صار فيما بعد اللواء إبراهيم باشا فوزي . وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى نشوب الثورة المهدية ، وشهد معظم وقائع الثورة إلى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ، وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله في ذلك كله كتابه المشهور (السودان بين يدي غردون وكتشنر)

وصلت الحملة إلى فاشودة ، بعد مسير سبعة أيام في النيل ، فاستقبلها مديرها بالحفاوة اللائقة ، وشهد غردون وإبراهيم أفندي فوزي « ما وصلت إليه البلاد وقتئذ من العمران والتقدم والحضارة بعناية الحكومة »[٢٤] .

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت إلى محطة سوباط ، وهي الكائنة على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ثم سارت جنوباً حتى بلغت الإسماعيلية (غندكرو) حيث يقيم رءوف بك ، الذي استخلفه السير صموئيل بيكر في الحكم [illegible] بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون بالحفاوة والتكريم ، وأطلعه على أحوال البلاد وشئونها ، وقد أبقاه غردون قليلا ، ثم ما لبث أن أقاله من عمله وأمره بالعودة إلى مصر .

وقد رأى غردون أن مناخ الإسماعيلية ليس صحياً ، فنقل مركز الحكومة إلى (اللادو) ، فصارت من ذلك العهد عاصمة مديرية خط الاستواء .

وبعد أن تولى شئون الحكومة في تلك الجهات تابع السير جنوباً حتى بلغ بحيرة (ألبرت) ، واستولى على عشرة مراكب من سفن الأهلين ، استخدمها لاكتشاف شواطئ البحيرة ، واستقدم من الخرطوم العدد الكافي من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها ، وأنشأ بالدفلاي شمالي بحيرة ألبرت (ترسانة) لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة . واستطاع عمال الترسانة أن يفكوا أجزاء بعض البواخر ، ويركبوها ثانية في البحيرة ، ولما تم تركيب أول باخرة ، استقلها الكولونيل غردون باشا وحاشيته وإبراهيم فوزي (باشا) ، وساروا بها في لجج البحيرة ، فكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن البخارية ، وقد كان منظر الباخرة موضع دهشة الأهلين ، قال إبراهيم فوزي (باشا) في هذا الصدد « كان الأهالي يقفون على شواطئ البحيرة كلما اقتربنا منها صفوفاً متعجبين مندهشين من رؤية الوابور ، إذ لم يكونوا قد رأوا السفن البخارية من قبل ، وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا

---

[٢٣] [illegible] فاشودة وخط الاستواء ، [illegible]

[٢٤] السودان بين يدي غردون وكتشنر ج ١ ص ٥

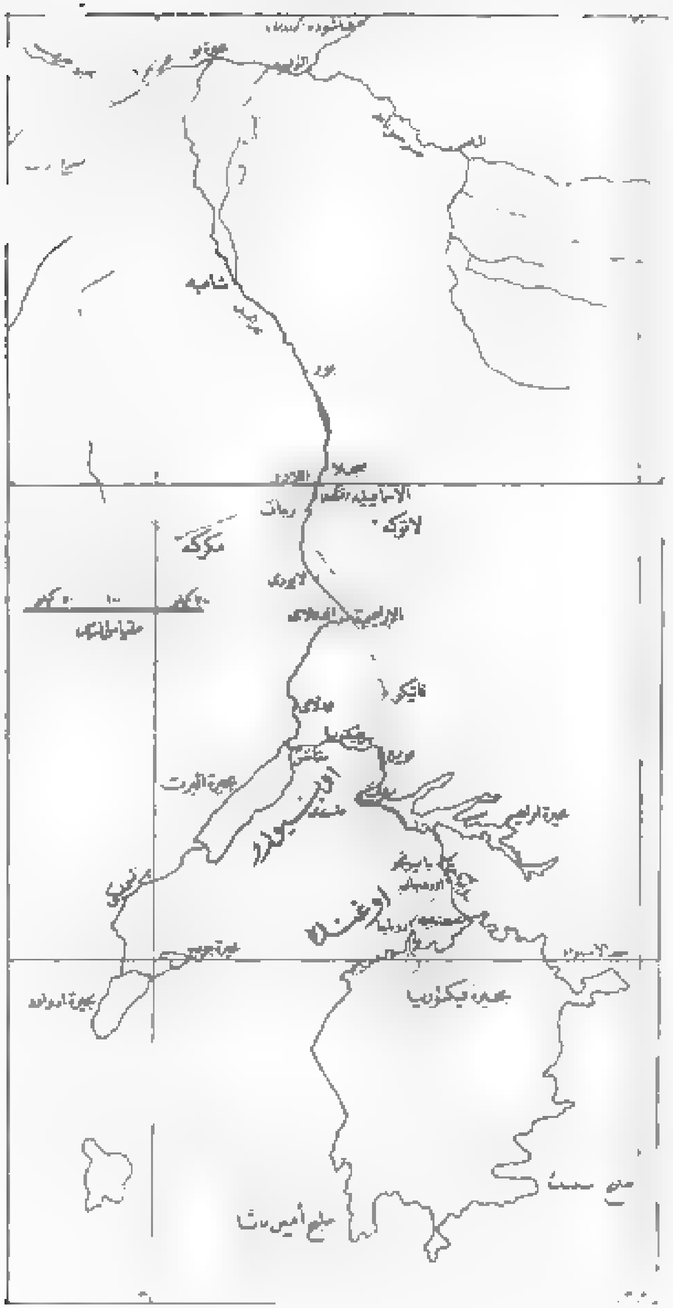

خريطة مديرية خط الاستواء والخط المنقوط يبين الطريق الذى سلكه الكولونل شايى [illegible]
أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

صحبته بحروب فى كتيبة نقله مع جماعته إلى البحيرة .

وهكذا كان الفتح المصرى يحمل معه أينما سار أسباب الحضارة والعمران

وقد أنشأ الكولونل غردون باشا عدة نقط عسكرية حصينة على شاطئ النيل ، وحصن النقط التى أنشأها بيكر باشا من قبل ، فقد أنشأ نقطة (سوباط) على ملتقى نهر سوباط بالنيل و (الناصر) على نهر سوباط ، و (شامبه) و (بور) و (اللادو) و (لابورى) و (دوفيليه) و (الدفلاى) على النيل الأبيض (بحر الجبل) ، و (مكركه) جنوبى بحر الغزال و (مروك) على نيل فيكتوريا ، و (مقانقو) الواقعة على مصب نيل فيكتوريا فى بحيرة ألبرت (انظر مواقع هذه البلاد على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٢٥) .

وقد لقى الجنود المصريون فى هذه الحملات البعيدة المتاعب المضنية لبعد المسافات وصعوبة المواصلات ورداءة الطقس ، وكانت الأمطار تهطل عليهم ليل نهار كأفواه القرب ، واستهانوا بالمخاطرات والمفاجآت الجمة ، واحتملوا كل هذا العناء بصبر وثبات وشجاعة تسجل لهم فى أنصع صفحات تاريخنا القومى .

بسط حماية مصر على مملكة أوغنده

(سنة ١٨٧٤)

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شايى لونج بك Chaille Long bey ، وهو ضابط أمريكى ، دخل فى خدمة الجيش المصرى سنة ١٨٧٠ ، وعين سنة ١٨٧٤ رئيساً لأركان حرب غردون باشا حين ولايته على مديرية خط الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه فى السودان ، ودافع بعد ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة فى كتب قيمة ، تعد من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) ، و (الأنبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) ، و (أفريقيه الوسطى) ، عدا ما نشره فى المجلات الكبرى دفاعا عن مصر واستنكاراً لمطامع الانجليز فى وادى النيل

ذكر شايى لونج بك فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) أنه هو الذى انتدبه غردون إلى عاصمة الملك (امتيسى) ملك أوغنده ، وأنه أدى مهمته ، ووصل إلى عاصمة أوغنده ،

وعقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وقد رفع معاهدة إلى الخديو إسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت[25] ، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعاهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية ، ولكنها فُقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطاني أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى هامة .

وقال في موضع (آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الانجليزية إلى أوغنده في ابريل سنة ١٨٧٥ وجدت بحاشية الملك امتيسى ، ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الذى أرسله غردون بعد معاهدة الحماية مندوبا عن الحكومة المصرية في بلاط الملك[26] وذكر أن نفوذ مصر قد امتد إلى كل الأصقاع التي تحيط ببحيرة فيكتوريا ، وخاصة مملكة أوغنده ، وأن الملك امتيسى كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر[27]

مذكرة شريف باشا إلى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات

وأورد في كتابه (ص ٢٦) المذكرة التي أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر في ذلك الحين إلى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات إلى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولى) الواقعة على نهر سومرست[28] ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة في (ماسندى) عاصمة مملكة (أونيورو) ومحطة أخرى في (أورندجانى) على نهر السومرست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (ريبون[29]) ، وأخرى في كل من (ماكنقو) و (الدفلاى) ، وعلى ذلك بسطت مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، ويستشهد على هذه المذكرة في ضمن وثائق الخارجية

ونشرت (الوقائع المصرية) بيان الآتى عن أوغنده : « ورد تلغراف من المديرية الاستوائية من سعادة غردون باشا في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك امتيسى طلب من عساكر لأجل إقامتهم في بندر حكومته ، فأرسلت إليه مائة وخمسين عسكرياً ، ورتبت ثلاثين عسكرياً في بلدة (فويره) ومثلها في بلدة (مكنشة) . فكانت تلك الجهات والحالة هذه في حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلت إلى (مقاطو) في ٢٧ جمادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (رولى) ، والبحر هناك[30] جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة ، وشطوطه معمورة بكثرة الناس فيه ، وأراضيه صالحة للزراعة .

وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى (مرولى) و (أورندجانى) و (امتيسى) عاصمة أوغنده ، ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة »[31] .

هذا ما ذكرته « الوقائع المصرية » ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، وفيها تأييد للحقائق التي أوردها شاى لونج بك ، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغنده ومنطقة البحيرات إلى مصر في عهد الخديو إسماعيل .

موقف غردون

ذكر غردون في رسائله إلى أخته أن شاى لونج بك أرسل إلى الخديو إسماعيل تقريراً امتدح فيه ولاء امتيسى ، فنال رضاء الخديوى وأرسل إلى لونج بك عربة جميلة هدية للملك[32]

وظاهر من لهجة غردون في رسائله إلى أخته أنه لم يكن مرتاحاً إلى إحكام مصر روابطها بأوغنده ، وملكها . فقد ذكر[33] أن الملك امتيسى أقسم يمين الولاء لمصر في مارس سنة ١٨٧٦ ،

---

[25] مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٢ الكولونيل شاى لونج بك
L'Egypte et ses Provinces Perdues par Chaille Long bey

[26] وقد قال في عودته من أوغندة إلى الرجاف في أغسطس سنة ١٨٧٥
خريطة مديرية خط الاستواء والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونيل شاى لونج بك في مسيره إلى أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التي قبل بمقتضاها حماية مصر لمملكته

[27] مصر ومديرياتها المفقودة الكولونيل شاى لونج بك ص ٢٤

[28] هو الاسم الذى أطلقه الرحالة اسبيك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه في بحيرة ألبرت ، ويسمى أيضاً نيل فيكتوريا

[29] حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا

[30] [illegible]

[31] الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ [illegible]

[32] [illegible] ص ١٤٢

[33] [illegible]

وأنه (أي غردون) كان يبغي بقاء ملك أوغنده مستقلاً ، ولكنه هو الذي دعا الحامية المصرية التي كان غردون معتزماً جعلها في (أورندجاني) إلى الاستقرار في عاصمة أوغنده (دوبابجا) (٣٤) ، وقد استقرت بها فعلاً في أغسطس سنة ١٨٧٦ (٣٥) .

وغنى عن البيان أن غردون لم يكن يبغي من استقلال أوغنده دفاعاً عن مصلحتها ، بل كان ما يبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لانجلترا . وقد سحب فعلاً حاميته عنها بعد فصل السودان ، وهكذا يتبين لك أن غردون لم يكن مخلصاً النية لمصر مثل شايي لونج بك ، بل كان يخدم السياسة الإنجليزية أثناء تقلده منصب الحكم في مديرية خط الاستواء وكذلك عند ولايته حكماً عاماً للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجيء بيانه .

اكتشاف بحيرة (إبراهيم)

(سنة ١٨٧٤)

اكتشف الكولونيل شايي بك لونج ، سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (إبراهيم) إحدى البحيرات التي ينبع منها النيل ، وهي الواقعة شمال بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (إبراهيم) باسم إبراهيم باشا أبي الخديو إسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غلب عليهم الاسم الأصلي في مصورات الجغرافيه (الأطالس) الحديثة وكتبها ، لأن معظم الجغرافيين من الأوربيين يأبون أن يطلقوا اسماً عربياً مصرياً على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسمون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (ألبرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (إدوارد) ، أما بحيرة (إبراهيم) فيروق لهم تسميتها بغير هذا الاسم المصري فيعيدون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمري ليس من الحق ولا من الإنصاف في شيء .

ومن واجب مهندسي مصر وأساتذة الجغرافيا والتاريخ أن يصروا على هذه التسمية باسم (بحيرة إبراهيم) ويتخذوه علماً لها في مباحثهم ودروسهم ومؤلفاتهم وأطالسهم حتى يرسخ هذا الاسم في أذهان النشء والجمهور ، وفي وثائق الحكومة وخرائطها ، ويذيع بين الناس في

---

(٣٤) وتسمى أيضاً [illegible] على اسم ملك

(٣٥) رسائل غردون إلى أخته ص ١٧٦

مصر وشرقي [illegible] كما ذهب [illegible] بحيرة (فيكتوريا) [illegible] و [illegible] (إبراهيم) حتى بالإدعاء من الأعلام الجغرافية التي أصبحت على خريطة الأسماء الأخرى . فإن اكتشاف هذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصري ، باسم مصر ولحساب مصر ، في عهد إسماعيل بن إبراهيم ، وبجهوده ورعايته ، ومكتشفها قد اختار لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديو إسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضي باحترام هذه التسمية واتباعها (انظر الخريطة ص ١٢٥)

وقد ذكرها العلامة جورج شوينفرت Schweinfurth في خريطته التي وضعها بيان خط سير أرنست لينان دي بلفون من الرجاف إلى بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة إبراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك في أغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون في خريطته (بحيرة كيوجا أو بحيرة إبراهيم) ، وهي تشمل كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها .

وللكولونل شايي لونج بك رسالة مسهبة في مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعة ٣ عدد ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على إغفال اسم بحيرة إبراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافه وخدماته لمصر في مديرية خط الاستواء

وفي الحق أن الكولونل شايي لونج بك يجب أن يقترن اسمه بأسماء مكتشفي منابع النيل ، فالرحالتان (اسبيك) و (جرانت) اكتشفا بحيرة فكتوريا ومنبع النيل منها ، والسير (صموئيل بيكر) اكتشف بحيرة ألبرت ، و (شايي لونج بك) اكتشف بحيرة إبراهيم ، ومجرى النيل من أورندجاني إلى مروولي ثم إلى فويره

وقد ذكر في كتابه « مصر ومديرياتها المفقودة » ص ١٤٨ أنه بعد أن اكتشف بحيرة (إبراهيم) قصد إلى (ماسندي) عاصمة (أونيورو) ، فألفى ملكها القديم (كاباريقه) يناصب الحكومة العداء ، وأن كاباريقه هذا هاجمه في قوة من ٦٠٠ مقاتل ، فانسحب لونج بك إلى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا

وذكر غردون باشا (٣٦) أن كاباريقه أخلى (ماسندي) في يناير سنة ١٨٧٦ وأن المواصلات أعيدت إلى هذه العاصمة

---

(٣٦) في رسالة إلى أخته ص ١٦٥ ، ١٧٦

استعفاء غردون من منصبه

(سنة ١٨٧٦)

بقى الكولونل غردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ ، وعاد إلى القاهرة . ومنها إلى انجلترا ، ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التى تولى حكمها ، وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لأنه لم يلبث فى انجلترا ثلاث سنوات إلا قليلا ، حتى تدخلت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو لتعيينه فى منصب أكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حكمدار عموم السودان . فصارت أقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجىء بيانه

مصير مديرية خط الاستواء

عندما غادر غردون باشا منصبه الأول سنة ١٨٧٦ استخلف فى خط الاستواء وكيله الكولونل « بروت » Prout ، وهو ضابط أمريكى التحق بخدمة الجيش المصرى وخدم تحت لواء غردون ، وفى عهد حكمدارية غردون باشا للسودان جعل براهيم بك فوزى مديراً لخط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور إدوار شنتزر Eduard Schnitzer وهو طبيب ألمانى صحب غردون فى السودان واعتنق الإسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص لمصر ، فبقى يتولى الحكم فى خط الاستواء إلى نشوب الثورة المهدية ، ولم تستطع قوات المهدى أن تستولى على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللادو إلى ودلاى جنوباً ليكون بعيداً عن غزوات المهديين ، وبقى فى مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الإنجليز إلى إخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديو توفيق برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر ، فصار يعرف بأمين باشا ، وأرسل إليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فآثر البقاء فى منصبه ، مخلصاً لمصر وحكومتها ، معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت إمرته ، ولكن الإنجليز أبوا عليهم البقاء ، فأرسلوا الرحالة استانلى بحجة « إنقاذ أمين باشا » . والواقع لإجلائه عن مديرية

خط الاستواء والقضاء على سلطة مصر فيها ، فاضطره استانلى سنة ١٨٨٩ إلى الجلاء عنها ، وبانسحاب أمين باشا من مديرية خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الإقليم ، وانتهزت انجلترا فرصة فاحتلت أوغندة وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء .

ولما تم استرجاع السودان ١٨٩٨ أكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ المجحفة التى جعلت إدارة السودان مشتركة بين مصر وانجلترا ، وعدلت حدوده طبقاً لأهواء الإنجليز . فبعد أن كانت حدود السودان المصرى تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند (مسجلا) شمال غندكرو ، والآن تنتهى عند (نيمول) – الإبراهيمية – وبذلك اغتصبت انجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديم ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت فى سبيل فتحها وتعميرها ما بذلت من الجهود والأموال ، والضحايا والرجال

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق ممنوعاً من عهد محمد على ، ولكن هذا المنع لم يكن إلا اسمياً ، وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا ، بعلم الحكومة وبصرها ، وبتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق ، وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة ، وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق .

فلما تبوأ إسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم ، وأن يكسب ثناء الإنسانية فى مقاومة تجارة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل

فى سنة ١٨٦٣ أرسل إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان وقتئذ يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم . فصدع الحكمدار بالأمر وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين « كاكا » و « فاشودة » ، وأطلق سراحهم . وأعادهم إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين ضبطوهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق ألا يعودوا إلى النخاسة

وكان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ أثر كبير فى سد طريق النيل فى وجه تجار الرقيق الذين

ءوا يقتنصون الأرقاء فى جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم فى السفن وأصدر إسماعيل أمره بتحرير كل عبد أو جارية يثبت على سيدها أنه أساء معاملتها

وفى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا وإسماعيل أيوب باشا بذلت الحكومة جهوداً موفقة فى محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديو أيضاً إلى السير صموئيل بيكر ثم إلى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه المهمة كما تقدم بيان ذلك تفصيلا

فى الحق أن الخديو إسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة

لكن من الحق أن نقول أيضاً أن عمله كان فى حاجة إلى شىء من الحكمة والروية فإن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء فى السودان ، هم من أعيان البلاد أنصار وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين .

كانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألف أعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الأرقاء كأتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، فمفاجأة السودان بتحرير الأرقاء دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عواقبها ، هذا إلى أن الخديو قد جعل على رئاسة مقاومة الاتجار بالرقيق جماعة من الأجانب ، فاستثار وجودهم عواطف الأهلين الدينية . وكراهيتهم للحكومة ، فاجتمعت هذه العوامل وكانت من أسباب قيام الثورة المهدية .

فالأمر إذن كان فى حاجة إلى التأنى والحكمة ، اعتبر ذلك فى أن الحكومة الإنجليزية حينما قررت إبطال الرقيق فى أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موالى الأرقاء المحررين

فكان من الواجب على إسماعيل باشا أن يأخذ فى مشروعه بالهوادة وبعد النظر ، وحسن السياسة ، لكنه لم يفعل ، واعتزم مقاومة تجارة الرقيق ومنع الاسترقاق فحسب فاستهدفت الحكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، مما ظهر أثره فى نجاح دعوة المهدى أوائل عهد توفيق باشا إذ انضم إلى الثورة تجار الرقيق فى السودان

وفى هذا الصدد يقول المسيو « داريل » Daryl فى مقدمة « رسائل غردون إلى أخته » ما يأتى : « عهد الخديو إسماعيل إلى الكولونيل غردون مطاردة تجار الرقيق فى السودان ، ولكن المجهودات الطيبة التى بذلها ذلك الضابط الإنجليزى لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة

الطبقة التى كانت مصر تعتمد عليها فى السودان .

وقد أبرم إسماعيل فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع الحكومة الإنجليزية (٣٧) للتعاون على منع الاتجار بالرقيق . حوت نصوصاً تمكن الإنجليز من الافتيات على سيادة مصر ومصالحها . إذ أباحت لهم الرقابة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بحجة تعاطيها تجارة الرقيق . فكانت معاهدة لا خير فيها . ولا فائدة منها لمصر

ظهور الزبير باشا رحمت (٣٨)

كان الزبير أكبر تجار السودان ، وخاصة فى تجارة الرقيق ، وله نفوذ واسع وسلطان كبير فى إقليم بحر الغزال .

وقد نشبت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك . فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقراً له ، وسماها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكاً ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس إليه للانتظام فى خدمته ، فجمع لنفسه جيشاً قوياً لتأييد سلطته ، والتماس الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان

وفى سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (البلالى) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية ، ومعه فرمان بتسميته مديراً لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه ، وكبس أتباعه للبلالى فقتلوه ، ثم خشى الزبير عاقبة عدائه للحكومة المصرية ، فجنح إلى مسالمتها ، وأظهر ولاءه لها واعترف بسلطة الخديو

واتسع سلطانه ، ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور ، ووضع بين يدى الحكومة الخديوية الأقاليم التى دانت له لتنصب لها الحكام ، وجعل تقدمته لها دليلا على ولائه . وقد أخلص فعلا لمصر وبقى على ولائه طول حياته

---

(٣٧) نصوصها بمجموعة المعاهدات دى مارتنس سلسلة جديدة ج ٢ ص ٤٩٣
De Martens. Nouv. Recueil gen. des Traites. I p. 493
وتجد نصها العربى فى قاموس جلاد ج ٢ ص ٣٢٨ طبعة سنة ١٩٠٠

(٣٨) استخلصنا ما ذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشور فى كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٣ ص ٦٧ وما ذكره إبراهيم بك فوزى فى كتابه ج ١ ص ١٣٦

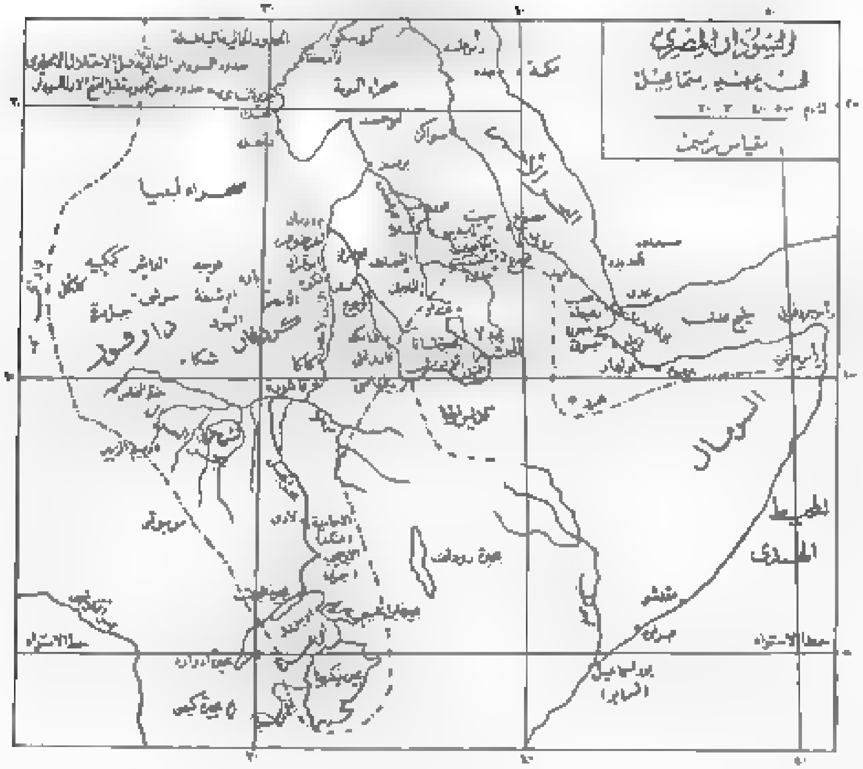
السودان المصري
في عهد إسماعيل
مقياس رسم
صحراء ليبيا
صحراء النوبة
الفاشر
شكا
دارفور
كردفان
سواكن
مكة
خليج عدن
الصومال
المحيط الهندي
خط الاستواء

السودان المصري وحدوده
في عهد إسماعيل

فشكره الخديو على إخلاصه ، وأنعم عليه برتبة بك ، وعهد إليه بحكم البلاد التي فتحها باسم الحكومة الخديوية وهي بحر الغزال وشكا فصار مديراً لبحر الغزال ، وجعلت مدينة شكا عاصمة للمديرية

فتح سلطنة دارفور

(سنة ١٨٧٤)

رغب الزبير بك إلى حكمدار السودان ، إسماعيل باشا أيوب ، فتح دارفور ، وكانت إلى ذلك العصر مملكة مستقلة ، ولئن أدخلتها الفرمانات الصادرة لمحمد على ضمن أملاك مصر (انظر عصر محمد على ص ٣٤٧) إلا أنها بقيت مستقلة فعلا عن الدولة المصرية إلى ذلك الحين ، وكان عليها ملك يسمى السلطان إبراهيم يناوئ الزبير ويعمل على إجلائه عن « شكا » فأيدت الحكومة مشروع الزبير ، وعهد الخديو إلى إسماعيل باشا أيوب فتح دارفور باشتراكه مع الزبير بك .

معركة منواشي

(٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤)

فجهز جيشاً في كردفان ، وعهد إلى الزبير بك حشد جيشه في بحر الغزال كي يحاط بدارفور من الشرق ومن الجنوب ،

سار الزبير من الجنوب ، وتلاقى مع قوات سلطان دارفور ، وكانت تتألف من نحو عشرين ألف مقاتل فهزمها الزبير غير مرة ، واشتبك الجيشان في « منواشي » حيث نشبت بينهما في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الزبير انتصاراً مبيناً ، وقتل السلطان إبراهيم وتشتت جيشه . فدانت البلاد للحكم المصري ، ودخل الزبير مدينة الفاشر عاصمة دارفور

ثم جاء إسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الزاحفة من الشرق ، فدخل المدينة في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (٢٧ رمضان سنة ١٢٩١) . وانتهت الحرب بضم سلطنة دارفور إلى أملاك مصر

وأرسل الحكمدار يبشر الخديو بأخبار الفتح ، فابتهج بهذا النصر المبين ، وأنعم على إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزبير برتبة اللواء فصار يعرف بالزبير باشا ، وعهد إلى الحكمدار بتبليغ أفراد الجيش الذي تولى هذا الفتح ثناءه وتحياته ، لما أبلوه في فتح دارفور ، فتلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش في الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديو في احتفال عسكري مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجاً وإجلالا[٣٩] .

وبفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة .

وأقام إسماعيل باشا أيوب حصناً منيعاً في الفاشر ، وبنى داراً للحكومة ، ومنزلا للحاكم ، وثكنة للجنود ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام في المدينة سوقاً عامرة للتجارة

على أن الزبير باشا شكا من فداحة الضرائب التي فرضها إسماعيل باشا أيوب على الأهلين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الأمر إلى الخديو ، فوسل بأمر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار في إدارة البلاد ، فطلب الزبير من الخديو أن يجيء إلى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، ويفضي إليه بآرائه في تنظيم الإقليم ، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار إلى مصر ، واستخلف ابنه سليمان في قيادة جنده .

ولما جاء مصر أكرم الخديو وفادته ، ولكنه لم يأذن له بالعودة إلى السودان ، فأدرك أن المراد من إبقائه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن بسناه والإقامة في مصر مشمولا بعطف الحكومة وإكرامها

ضم زيلع وبربرة

(سنة ١٨٧٥)

«زيلع» و«بربرة» من بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرهما ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٦ وج ٤ ص ٤٢٥

وأهم مدنها ثغور «زيلع» و«بربرة» و«بولهار» . وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من [illegible] سن الفيل والجلود وريش النعام والصمغ العربي والبن وغير ذلك . ولهذه الثغور أهمية حربية ، لأن من يملكها يتسلط على الملاحة في

---

(٣٩) وقائع مصرية العدد ٥٨٨ الصادر في ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤

وفي بلاد زيلع بلدة (جبرت) التي نشأ منها أجداد (الجبرتي) المؤرخ المصري المشهور . فقد رحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) إلى مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة . واستوطنت أسرة الجبرتي مصر من ذلك العهد .

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا ، تابعتين للواء (الحديدة) باليمن ، ففكر الخديو إسماعيل في ضمهما إلى أملاك مصر حينما اعتزم ضم سلطنة (هرر) لأن زيلع هي ميناء هرر كما قدمنا . فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية ، ونجح في مسعاه ، إذ صدر له فرمان من السلطان في أول يونيه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها ، وذلك مقابل زيادة في الجزية السنوية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه عثماني (١٣,٣٦٥ جنيه مصري) ، ويدخل في ملحقات زيلع ثغور «بربرة» و«بولهار» و(تاجوره) .

وقد جعل الخديو من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة «زيلع» ، ومحافظة «بربرة» ، وأرسل الحاميات المصرية إلى الثغرين المذكورين ، فجاءت زيلع كتيبة من الجند بقيادة محمد رءوف باشا الذي مر ذكره في الكلام عن مديرية خط الاستواء ، وجعل رءوف باشا محافظاً لزيلع ، والأميرالاي رضوان باشا محافظاً لبربرة ، وكان هذا الأميرالاي يقود السفينة الحربية المصرية التي أقلت الحامية إلى الميناء المذكور .

وجعل الأمير أبو بكر إبراهيم أمير زيلع السابق وكيلا لمحافظتها وملحقاتها ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة[٤١] ثم رقي إلى منصب المحافظ[٤٢] .

وعني الحكام العسكريون والملكيون في المحافظتين ، بعمرانهما ، فأقاموا بهما عدة مبان للحكومة وللجمارك والثكنات العسكرية ، وأنشأوا مسجداً في «بربرة» وصهريجاً [illegible] المياه العذبة بها ، ومدوا أنابيب الماء فيها ، وأنشئت مكاتب للبريد في كلا الثغرين ، قال غردون باشا في رسائله ص ٢٧ : إن المنشآت التي تمت في بربرة كلفت مصر سبعين ألف جنيه

وبضم زيلع وبربرة امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن ممتدة [illegible] إلى مصوع ، فزولا ، فعيد ، فعصب ، فتاجوره ، فزيلع ،

---

(٤٠) الوقائع المصرية العدد ٦١٥ (١٥ يونيه سنة ١٨٧٥)

(٤١) و(٤٢) وقائع المصرية العدد ٦٦٨ - ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ، والعدد ٦٣١ - ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥

بندر بربره، ثم وصلت إلى رأس جردفون (جردفوي) على المحيط الهندي

وقد بقيت محافظتا زيلع وبربره ملكًا لمصر، إلى أن اغتصبها الإنجليز بعد نشوب الثورة المهدية، إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان، وشمل القرار هاتين المحافظتين، فانسحبت الحامية المصرية في مايو سنة ١٨٨٥، واحتلها الإنجليز من ذلك الحين، ولا يزالون يحتلونها إلى اليوم (١٩٣٢)، ولكنه احتلال غير شرعي، لأن مصر لم تتنازل عن حقوقها في تلك البلاد، ولم تقر الاحتلال الإنجليزي بها

فتح هرر
(سنة ١٨٧٥)

تقع سلطنة (هرر) شرق الحبشة وغرب زيلع، وهي إمارة إسلامية مستقلة، يبلغ عدد سكانها نحو مليوني نسمة، وأرضها زراعية، تجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهة والقصب، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن المصري، وتنسج منه أقمشة متينة، وأهم حاصلاتها البن الذي لا يقل جودة عن البن اليمني

وتتبادل هرر المتاجر مع الخارج، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود على اختلاف أنواعها، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج وما إلى ذلك

وعاصمتها مدينة «هرر» الواقعة على بعد ٢٣٢ ميلا من زيلع وهي من المدن العامرة، يسكنها ٣٥ ألف نسمة، وهم على جانب من الحضارة، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا أن التعليم منتشر بينهم، وفيهم الشعراء والأدباء، وأن جميع الصغار فيهم يتعلمون القراءة والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الإمام الشافعي، وأن عادة تعدد الزوجات معدومة بين أهلها، والطلاق نادر بينهم، قال: إنه قضى في المدينة سنة كاملة (من أواخر سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٧٦) لم يشهد فيها حادثة طلاق واحدة[1]، وكان على هرر قبل الفتح المصري أمير يسمى محمد عبد الشكور، سار في حكمه سيرة ظلم وإرهاق، فنقم منه الأهلون اعتسافه وتمنوا أن يُدال منه

---

[1] انظر مبحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر، تلاه بالجمعية الجغرافية بجلسة ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة الجمعية المذكورة مجلد ١ عدد ٣ ص ٣٥١ و ٣٦٦

خريطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصورة عن خريطة بالفرنسية وضعها محمد مختار بك (باشا) وعبد الله بك فوزي (باشا) من ضباط أركان حرب الجيش المصري في حملة هرر [illegible]

١ سوق المدينة ٢ مسجد ٣ و٤ و٥ و٦ و٧ مساجد ٨ و٩ سور المدينة ١٠ باب السلام [illegible] ١١ باب [illegible] ١٢ باب الحاكم ١٣ باب النصر ١٤ باب الفتوح [illegible] ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩ [illegible] ٢٠ حدائق ٢١ مدافن ٢٢ نهر هرر

واعتزم إسماعيل فتح هذه السلطنة لما لموقعها من الأهمية ، ولأنها تعد من البلاد المكملة للسودان . فأخذت الجنود المصرية المرابطة فى زيلع تستطلع أحوالها وتتعرف طرق الوصول . وبعد أن تم لها ذلك وجهت فرقة من الجيش المصرى بقيادة محمد رءوف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة (هرر) عاصمة الإمارة . ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب ومنهم البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم «التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية» ، وله المحاضرات النفيسة فى الجمعية الجغرافية

لم تلق الفرقة فى زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا إذ اعترضوا زحفها ، واصطدموا بالحملة فى معركتين ، دامت إحداهما سبع ساعات وانتهت بتسليم القبائل (٤٤) ، واستأنفت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى مدينة هرر . ودخلتها فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، وبذلك ضمت تلك السلطنة إلى أملاك مصر(٤٥) .

ثم ظهرت بوادر الانتقاض بين بعض قبائل الجلا التى كانت لها الصولة والسطوة فى عهد الأمير محمد عبد الشكور ، فطلب رءوف باشا مددًا من الجند على سبيل الاحتياط ، فجاءه المدد من السويس إلى زيلع على ظهر الباخرة (المحروسة) ، ووصل الجند إلى هرر فأذعنت القبائل ، واستتب الأمن فى أنحاء البلاد ، وانتظمت الإدارة فيها

وجعل رءوف باشا حكمدارًا (حاكمًا عامًا) لهرر ، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظًا لمدينتها(٤٦) واطمأن الأهلون إلى الحكم المصرى

لكن رءوف باشا لم يلبث أن تنكر لأمير هرر وقتله ، بعد أن كان يثنى عليه فى تقاريره إلى الحكومة ويمتدح ولاءه ، ولم يعرف السبب الذى دعاه إلى قتله . ولكن الآراء متفقة على أن قتله كان عملاً لا مبرر له ، ويقول غردون باشا فى رسائله(٤٧) إن هذا العمل لم يكن له

---

(٤٤) هرر فى ظل الحكم المصرى للأستاذ بولتشكى Paulitschke مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ج ٢ عدد ١٠ (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ والمسيو بولتشكى هذا هو عالم نمسوى جاء هذه البلاد فى بعثة علمية وشهد الحكم المصرى

(٤٥) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

(٤٦) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

(٤٧) رسائل غردون إلى أخته ص ٢٧٤

مسوغ ، وأن ابن الأمير ذهب إلى مصر ليشكو الحكمدار إلى الخديو فغضب إسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يعمل شيئًا

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا فتح هرر خريطة تلك البلاد . ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزى بك (باشا) ، وخططوا المعالم والمواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة

وفى عهد الحكم المصرى بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لإقامة الجند ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسخر أحد من الأهلين فى إقامة هذه المبانى ، بل تولى الجنود المصريون إقامتها

وبقى رءوف باشا يتولى الحكم إلى أن أقاله غردون باشا حين عين حاكمًا عامًا للسودان وأعاده إلى مصر ، وعهد بالحكم إلى رضوان باشا محافظ بربره ، ثم خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعنى بضبط الأمن وتحصين المدينة . وبقى يتولى الحكم إلى أن نشبت الثورة العرابية فى مصر ، ثم الثورة المهدية فى السودان ، فلم يضطرب حبل النظام بين الجند فى هرر ، وفى سنة ١٨٨٢ عين على رضا باشا ، خلفًا لنادى باشا ، وظل الحكم المصرى مستقرًا فى تلك البلاد ، إلى أن أكرهت انجلترا حكومة مصر على إخلاء السودان وملحقاته ، فأرسلت تدعو القوات المصرية إلى الجلاء عن هرر ، فصدعت بالأمر وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندى ، يصحبهم ١٩٠ من الموظفين ورجال البوليس والعمال و ٥٠٠٠ من النساء والأطفال من عائلات الجند والموظفين ، فكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا إلى زيلع ، وأقلتهم البواخر إلى مصر.

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخفق على ربوعها عشر سنوات سويًا ، كان فى خلالها رمزًا للنظام والحضارة ، فقد استتب بها الأمن ، وانتظمت الإدارة ونشطت الزراعة والتجارة ، وعوّد المصريون الأهالى بعض الزراعات والفواكه المصرية كالعنب والخوخ والفول والليمون ، وقصب السكر والبطاطس والخضر وما إلى ذلك ، وازدادت عدد القوافل التى تنقل المتاجر من داخل البلاد إلى السواحل . فبينما كان عددها سبعين قافلة على عهد الأمراء السابقين ، بلغت أربعمائة قافلة كل سنة فى عهد الحكم المصرى(٤٨)

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الأمراء الذين كانوا

---

(٤٨) بولتشكى المرجع السابق

بحكم ما قبل الفتح المصرى . ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها إلى أملاكه ، و [illegible] تابعة لها إلى اليوم (١٩٣٢)

حملة الصومال

(سنة ١٨٧٥)

اعتزم الخديو إسماعيل فتح بقية بلاد الصومال[٤٩] ، فجرد لهذا الغرض سنة ١٨٧٥ حملة ، مقصدها فتح بقية شواطىء الصومال ، والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب)[٥٠] .

ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات ، لكى تصل مصر أملاكها فى هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فضلاً عن الطريق الذى يتبع مجرى النيل .

ففى الوقت الذى أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة الصومال بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنارات المصرية ، وتولى قيادة جنود البر فى هذه الحملة الأميرالاى شايى لونج بك ، ذلك الضابط الشهم الذى تكلمنا عنه آنفاً ، وكان غردون باشا إذ ذاك حاكماً لخط الاستواء ، فعهد إليه إسماعيل الاتصال بالحملة .

أقلعت العمارة المصرية من السويس ، تقل الجنود المصريين ، فى فبراير سنة ١٨٧٥ ، واجتازت البحر الأحمر ، ثم بوغاز باب المندب ، فخليج عدن ، ورست فى ميناء بربره ، ريثما تستريح وتأخذ أهبتها ، وتستكمل معداتها ، ثم أقلعت ثانية ، واتجهت إلى المحيط الهندى ، فوصلت إلى رأس (حافون) جنوبى رأس جردفون (جردفوى) ، وركز قائد الحملة العلم المصرى هناك ، ودعا رؤساء القبائل إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية ، فلبوا الطلب طائعين ، ثم أقلعت العمارة تخوض عُباب المحيط الهندى ، حتى وصلت إلى بلدة (براوه) الواقعة شرقى نهر الجوبا (الجب) ، فأذعنت القبائل هناك للحكم المصرى ، وترك بها ماكيلوب باشا حامية من الجند . وعين عليها حاكماً ، ثم اتجه إلى بلدة « قسمايو »[٥١] ،

---

[٤٩] تطلق بلاد الصومال على الجهات الواقعة فى المثلث الذى تنتهى إليه إفريقيه بين خليج عدن والمحيط الهندى

[٥٠] نهر ينبع جنوبى الحبشة ويصب فى الأوقيانوس الهندى شمال زنجبار.

[٥١] جنوبى خط الاستواء . وقد سميت فى الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى « بور إسماعيل » .

الواقعة على مصب الجب ففتحتها ، وسارت القوارب تحمل الجنود فى نهر الجوبا نحو ١٥٠ ميلاً ، ولكن الملاحة تعذرت فيه ، فرجعوا إلى بلدة قسمايو « بور إسماعيل » ، وتأهبت الحملة حربيه للسير غرباً ، قاصدة بحيرة فكتوريا . وفقاً للخطة المرسومة لها من قبل ، ولكنها أبطأت فى الزحف من قسمايو ، ويقول شايى لونج بك « إن من أسباب إخفاقها إحجام غردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديو إسماعيل »

ويسبب لونج بك هذا الإحجام إلى احتمال وصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة[٥٢] ، وهذا يدلك على عدم إخلاص غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون فى رسائله أنه بالرغم من تكليف الخديو ماكيلوب باشا وشايى لونج بك انتظاره عند نهر الجوبا « فإن انتظاره سيكون على غير جدوى »[٥٣] ، فكأنه كان مُصراً على إهمال العمل بأوامر الخديو

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الإنجليز ، فخابرت إسماعيل فى الكف عنها ، وأرسل وزير خارجية انجلترا إلى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الإنجليزية ، وكان فى الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ماكيلوب باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا فى يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت إلى مصر[٥٤]

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل إلى تحقيق غايتها ، وهى بسط نفوذ مصر على شواطئ المحيط الهندى ، ومنها إلى منابع النيل ، وذهبت الجهود التى بذلت فيها سدى ، ويرجع إخفاقها كما ترى إلى تدخل السياسة الإنجليزية ، ومعارضتها الخديو فى الاستمرار فيها ، وكان إسماعيل قد استغرق فى الديون ، وشعر بحاجته إلى إرضاء الإنجليز ومجاملتهم فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة إلى الإذعان للتدخل الإنجليزى ، والعدول عن الحملة .

اعتراف انجلترا بسلطة مصر فى الصومال

على أن الحكومة الإنجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن . ذلك أنها عقدت وإياها معاهدة فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧[٥٥] ، اعترفت فيها لمصر

---

[٥٢] كتاب « مصر ومديرياتها المفقودة » للكولونيل شايى لونج بك ص ١٢٤

[٥٣] رسائل غردون إلى أخته ص ١٦٤

[٥٤] مصر ومديرياتها المفقودة للكولونيل لونج بك ص ١٥٤

[٥٥] منشورة فى قاموس الإدارة والقضاء لفيليب جلاد (النسخة الفرنسية) ج ٢ ص ٤٩٠

بامتلاكها سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون « جردفوى » ثم رأس « حفون » الواقع جنوبيه على المحيط الهندى

وقد وقع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة المصرية ، والمستر « فيفيان » قنصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية .

أقرت الحكومة الإنجليزية فى هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية فى سواحل الصومال

وقبلت مصر أن تبقى « بربرة » و « بولهار » ثغرين حرين ، وألا تعطى فيهما أى امتياز أو احتكار لأحد ما ، ولا تأذن بإجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيهما ، وألا تأخذ رسوماً عن الواردات أكثر من خمسة فى المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن واحد فى المائة فى موانى « تاجوره » و « زيلع » وسائر سواحل بلاد الصومال التابعة لها ، وأن تعامل مصر رعايا انجلترا وسفنها فى تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتعهد الخديو بألا يعطى أى قطعة من هذه البلاد إلى أية دولة أجنبية « بند ٢ » .

ورخصت مصر للحكومة الإنجليزية تعيين مأمورى قنصليات فى جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعيين مأمورى قنصليات من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها

فى هذه المعاهدة إقرار من انجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، ومن تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بألا تتنازل لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هى ذاتها التى اغتصبتها بعد أن أكرهت مصر على إخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع وبربره وملحقاتها وأخذتها من أسلاب مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وإيطاليا رأس جردفون « جردفوى » .

النزاع بين مصر والحبشة

للنزاع بين مصر والحبشة فى عهد إسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلائق بين البلدين لم تكن ودية طيبة مدة حكمه ، بل كان يشوبها الجفاء والخصام ، ثم الحرب والصدام .

ويرجع الخلاف إلى أن إسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظتى سواكن ومصوع نهائياً إلى

مصر ، اعتزم أن يصل بين مصوع وكسلا بخط حديدى ، يمر بسنهيت(٥٦) ، ويسهل سبيل المواصلات بين السودان والبحر الأحمر ، ويبسط رواق العمران فى شرق السودان . وكانت بلاد الرقعة بين البلدين وخاصة مدينة « سنهيت » أرضاً مصرية منذ الفتح الأول ، فى عهد محمد على .

ولكن النجاشى « تيودورس » ملك الحبشة عارض الخديو فى ذلك ، وادعى أن سنهيت أرض حبشية ، فوقع الجفاء بينهما

الحرب بين الإنجليز والحبشة

(سنة ١٨٦٧ – ١٨٦٨)

وظهر أثر هذا الجفاء فى موقف الخديو تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها وبين الإنجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك « تيودورس » بعض التجار الإنجليز ومنهم المستر كامرون قنصل انجلترا ، فغضبت الحكومة الإنجليزية من هذا العمل العدائى ، وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين . فرفض النجاشى إجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ، فانحاز الخديو إلى جانب الإنجليز وأرسل إلى النجاشى كتاباً(٥٧) ، من إنشاء عبد الله باشا فكرى ، يطلب إليه فيه أن يحسم الخلاف بإطلاق سراح المعتقلين وإرسالهم إلى مصوع ، ويحذره عواقب إصراره على اعتقالهم ، ويتهدده بنشوب الحرب بينه وبين الإنجليز ، وبأنه فى هذه الحالة لا يمانع الإنجليز فى اجتياز الأراضى المصرية لمهاجمته

فأصر النجاشى على الرفض ، فجردت انجلترا على الحبشة سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية يقودها اللورد نابييه Napier ، وانتهز الخديو هذه الحرب فأمد الإنجليز فيها بالمعونة والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الإنجليزى فى نزوله إلى [illegible] ، ووضع الأسطول المصرى تحت تصرف الإنجليز لينقل معداتهم ومؤونتهم من السويس إلى مصوع

شمال مصوع ، وتسمى أيضاً كرن Keren ووردت بهذا الاسم فى معظم مصورات الجغرافية ، وهى عاصمة إقليم « البوغوس » .

(٥٧) بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ (سبتمبر ١٨٦٧)

وانتهت هذه الحرب بعبور الإنجليز واحتلالهم مدينة « مجدلا » شمالي أديس أبابا ، وقتل النجاشي تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الإنجليز إلى بلادهم .

وآل عرش الحبشة إلى الملك « يوحنا » الذي كان يعاون الإنجليز ضد الملك تيودورس والملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأنًا ، وأشدهم بأساً ، وفي عهده وقعت الحرب بين مصر والحبشة كما سيجيء بيانه .

فلما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتنم الخديو فرصة انصرافه إلى محاربة قبائل « الجلا » لتحقيق غرضه الأول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة .

منزنجر باشا Munzinger pacha

وقد استعان على تحقيق هذا الغرض بالمسيو منزنجر قنصل فرنسا في مصوع

ومنزنجر هذا له شأن كبير في تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة في عهد إسماعيل ، وهو رجل سويسري الجنس ، جاء مصر ، ثم جاب أنحاء السودان والحبشة ، وأقام في مصوع منذ سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالي البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا في ذلك الثغر ، وعاون الإنجليز في حربهم مع الحبشة بما له من الدراية بأحوال البلاد ومسالكها[٥٨]

وفي سنة ١٨٧٠ عينه الخديو محافظًا لمصوع ، ثم أسند إليه فيما بعد منصباً أعلى ، إذ جعله محافظًا لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرق السودان ، وأنعم عليه برتبة البكوية ، ثم الباشوية ، فصار يعرف بمنزنجر باشا ، وعين أراكيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظا لمصوع تحت إمرته (وهو غير أراكيل بك الذي تكلمنا عنه ص ٤٥) .

ومنزنجر باشا هو الذي زين للخديو إسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى في روعه أنه لطول مكثه في هذه الجهات قد سبر غورها ، وعرف أسرارها ، وأفهمه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر عناء كبيرًا ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام

فأعجب إسماعيل بالفكرة ، وشرع في تحقيقها ، وعهد إلى منزنجر ذاته فتح إقليم (البوغوس) وعاصمته سنهيت

---

[٥٨] عن ترجمة منزنجر باشا ، بقلم المسيو دورهن في مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الأول من السنة الأولى ، نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، فبراير سنة ١٨٧٦) ص ١٢١

فتح سنهيت وضم إقليم البوغوس

سار منزنجر باشا من مصوع في قوة من ألف وخمسمائة مقاتل ، وقصد إلى سنهيت وفتحها باسم مصر .

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، فتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها إلى مصر ، واشترى مقاطعة ([illegible]) الواقعة بين مصوع والحماسين من حاكمها الذي كان على خلاف مع النجاشي ، وشملت سلطة منزنجر سواكن ومصوع وبلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، ومنسع ، وبركه ، أي السودان الشرقي في أقصى حدوده .

ولقد نقم الملك يوحنا من مصر هذا التوسع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توتراً ، وكادت الحرب تنشب بينهما ، لولا اشتغال الخديو بفتح هرر والحملة على الصومال

حروب الحبشة

(سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦)

هي الحروب المشئومة التي خاضتها مصر في عهد إسماعيل ، والعقبة الكأداء التي اصطدمت بها فتوح مصر في حوض النيل وملحقاته ، ومن أي ناحية نظرت إليها تجد أن مصر لم تكن في حاجة إليها . ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التدبير ، فانتهت بالهزيمة والخسران

ذلك مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر وفتحت (سنهيت) وبلاد (البوغوس) الواقعة شماليها ، و (هرر) المجاورة لها من الجنوب الشرقي ، فأحاطت بها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد علي

[illegible] يكفي مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة [illegible] للوصول إلى البحر الأحمر ، ولكن إسماعيل حدثته نفسه بفتح الحبشة ، واكتسحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة فالحبشة كما يعرفها الذين خبروها وسبروا غورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية

حتى و يجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلا على أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والتضحيات ما هي في غنى عنه .

لم يجاهر إسماعيل بنيته في فتح الحبشة ، ولكن سياسته إزاءها كانت تنم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على إثارة الحرب معها ، على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، فحلت الهزيمة بالجيش المصري ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الأموال الطائلة ، في وقت ارتبكت فيه أحوالها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عبثا من كل ناحية .

عزم إسماعيل تجريد حملتين في وقت واحد على بلاد الحبشة ، الأولى تهاجمها شمالا من طريق مصوع ، والأخرى جنوبا من طريق ميناء « تاجوره » الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الأولى إلى الكولونل أرندروب بك Arendrupp[29] ، والثانية إلى منزنجر باشا .

حملة أرندروب بك

(سنة ١٨٧٥)

زحفت الحملة الأولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل[30] مزودين ببطاريتين من المدافع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على « الحماسين » الواقعة جنوبي سنهيت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة « جونديت » ، ولما علم الملك يوحنا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، وسار ، قاصداً مصادمة الجيش المصري ، وأرسل أرندروب بك رسالة إلى الملك يوحنا يطلب إليه فيها جعل نهر الماشر حداً فاصلا بين الحبشة ومصر ، فلم يعبأ بالرسالة ، وسجن الرسولين اللذين أوفدهما إليه أرندروب بك ، فتقدم الجيش المصري ليسبق الأحباش إلى الهجوم .

---

[29] هو من ضباط أركان الحرب ، أصله دنمركي ، ثم جاء مصر وتعرف إلى الفريق ستون باشا ، رئيس أركان الحرب ، فرغب إليه الخدمة في الجيش المصري فقبل ، ثم عين قائداً للحملة كما تراه في سياق الكلام

[30] إحصاء المسيو سوزاره Suzzara مفتش [illegible] في مصر على عهد إسماعيل في تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير في مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جابلوفيتش عدد مارس وأبريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩ و ٦٧٣ و ٧٣٧

هزيمة جونديت

(نوفمبر ١٨٧٥)

اشتبك الجيشان في جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان جيش الحبشة أكثر عدداً وأشد حماسة من الجيش المصري ، فحمي وطيس القتال ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصري ، وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا النفر اليسير ، وكان من بين القتلى أرندروب بك وأراكيل بك نوبار محافظ مصوع ، وارتدت فلول الحملة منهزمة إلى مصوع .

حملة منزنجر باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها منزنجر باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل في « تاجوره » ، يستكمل منها معدات الحملة من الإبل ، وترك معظم الجند في تاجوره حتى يتم إعداد الحملة ، وأقلع هو في قوة صغيرة من الجند بصحبة الرأس « بورو » الذي كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل في رأس « جيلا حبمو » الذي يبعد عن تاجوره غرباً بخمسة عشرة ميلا ، وقصد إلى بحيرة « أوسا » Aoussa الواقعة في الجنوب الشرقي من الحبشة ، ووصل إليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيرة سبعة أيام .

مقتل منزنجر باشا

(نوفمبر سنة ١٨٧٥)

قابل منزنجر باشا في طريقه إلى بحيرة « أوسا » ابن الشيخ محمد الحنفة أمير ذلك الإقليم ، فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمر له السوء ، فاطمأن إليه منزنجر ، واتخذه مرشداً ونصيراً ، وسارت الحملة إلى أن عسكرت بالقرب من شاطئ البحيرة ، فلما كان الجنود نياماً (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة الشيخ محمد الحنفة ، وأعملوا فيهم السيف ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، ووقعت الواقعة في جنح الظلام

دون أن يأخذ المصريون عدتهم لها، فأوقع بهم الأحباش وقتلوا منزنجر وزوجته ومعظم جنده، ووصلت فلول الحملة في أسوأ حال إلى «ربيع» بقيادة البكباشي محمد أفندي عرت، وكان عدد الباقين منهم ١٥٠ مقاتلا

الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

ووصلت أنباء هذه الهزائم إلى مصر، فوقعت وقع الصاعقة، وتزلزل لها مركز الجيش المصري، وغضب إسماعيل لهذه الهزائم، وخشي عواقبها المعنوية والسياسية، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الحبشة يمسح الإهانة التي لحقت بمصر، وفي الحق أن الموقف كان عصيباً، لأن هزيمة مصر أمام الحبشة تسقط هيبتها في وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية، ولكن الخديو لم يأخذ في هذه المرة منذ البداية بالأناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه، فلما جاءته أخبار الهزائم الأولى، تعجل بإعداد حملة مبتسرة، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل، ودلت مقدماتها على أنها سائرة حتماً إلى الهزيمة والخسران، وأهم عيب في تأليفها افتقارها إلى كفاءة القيادة وحسن النظام

فقد عهد الخديو لواءها للسردار راتب، وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدبير

وجعل على رأس أركان حربه الجنرال لورنج باشا Loring من القواد الأمريكيين في الجيش المصري، ولم يكن التفاهم سائداً بين القائد العام ورئيس أركان الحرب، ففقد الجيش أهم عوامل النجاح، وهي وحدة القيادة وكفايتها

وصحب الحملة الأمير حسن ابن الخديو، وكان قد [illegible] درس فيها قليلا من الفنون الحربية، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة ما تجعل منه قائداً يعتمد عليه في مثل هذه الحرب

وقد تطوع في القسم الطبي للحملة بعض كبار أطباء مصر في ذلك العصر، كالدكتور محمد علي باشا البقلي، الذي لقي مصرعه فيها[61]، والدكتور محمد بك بدر

---

[61] راجع ترجمته في كتابنا «عصر محمد علي» ص ٥١٢ (من الطبعة الأولى)

أبحرت الحملة من السويس تقلها بواخر الشركة الخديوية وسفن البحرية المصرية، ورست في جيناك (مصوع) واتجه الجيش يزحف على الحبشة

هزيمة «قورع»

(٧ مارس سنة ١٨٧٦)

ومضى المصريون في [illegible] ومواقعهم، فوصل الجيش في زحفه إلى بلدة «قورع»[62] التي تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلا، فعسكر فيها، وأقام فيها الاستحكامات، حتى حصناً بها، ثم حصنين في أول السهل الموصل إليها من (قاحور)

وقد أعد النجاشي يوحنا جيشاً كبيراً بلغ نحو أربعين ألف مقاتل، وسار لمهاجمة المصريين في «قاحور»، وكانت تحتلها قوة من الجيش المصري، وتحميها استحكامات منيعة لم يجرؤ الأحباش على مهاجمتها

فقصدوا مهاجمة مركز الجيش المصري في «قورع»، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة، انتهت بهزيمة الجيش المصري وتشتت شمله، وقتل معظم رجاله، ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربهما من النجاة إلا بعد أن تعرضوا للموت، وكاد الأحباش يفتكون بهم، وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسيراً

وقد خسر الأحباش في هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقل في عددها عن خسائر المصريين، ولكنهم فازوا بالنصر المبين

عقد الصلح

وكان ضمن الأسرى المصريين محمد بك رفعت رئيس القلم التركي بديوان المعاهدات، وقد رافق الحملة بصحبة السردار، فأخذ يسعى في عقد الصلح مع الملك يوحنا، على أن تنسحب

---

[62] جاء اسمها هكذا في وثائق مصرية عدد ٩٤٩ وإن كان معظم المؤلفين يكتبونها «قرع» وهذا الوضع «قورع» يوافق نطق الفرنسي Goura

الجنود المصرية من أرض الحبشة ، ورد الملك الأسرى إلى مصر ، وفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة

[illegible] رفعت يدك عن عقد الصلح وبقيت سنهيت فى أملاك مصر[٦٣] ، وعاد [illegible] الأسرى إلى مصوع ، وأبحرت فلول الحملة إلى السويس ، وبلغت خسائر مصر من الرجال فى الحملات التى جردتها على الحبشة ٨,٥٠٠ قتيل

نتائج حرب الحبشة

تكبدت مصر فى هذه الحرب المشئوم خسائر فادحة فى الرجال والمال ، وتصدعت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية ، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات[٦٤] ، فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة ، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالى .

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت فى الوقت الذى تحفزت فيه الدول الاستعمارية ، وخاصة انجلترا ، للتدخل فى شئون مصر المالية والسياسية ، فانهزام الجيش المصرى ، فى تلك الحرب ، قد ضاعف آمال انجلترا فى التطلع إلى احتلال مصر ، ذلك أنها كانت تحسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصرى ، منذ تبينت مكانته وبسالته فى المعارك التى خاض غمارها تحت لواء ابراهيم باشا ، ولكن هزيمته فى الحرب الحبشية كشفت عن ضعفه ، وعن الفوضى الضاربة أطنابها فى نظامه ، ففقد المهابة التى كانت له من قبل .

فالحرب الحبشية كانت تجربة مؤلمة ، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية ، ولم يكن من سبيل إلى تجديد هذه القوة فى وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المالى ، فى أواخر عهد إسماعيل . وليس ثمة شك فى أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغرى انجلترا بتحقيق أطماعها فى مصر ، فلا جرم أن تضاعف مسعاها فى وضع يدها على البلاد ، وما زالت تدأب على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العرابية التى انتهت بالاحتلال الإنجليزى

---

[٦٣] [illegible] إيطاليا بعد جلاء مصر عن السودان وجعلتها جزءاً من مستعمرة [illegible]

[٦٤] [illegible] فصل [illegible] مصر على عهد إسماعيل فى تقريره [illegible] سنة ١٨٧٧ [illegible] ذكره

حكمدارو السودان فى عهد إسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث الهامة فى السودان على عهد الخديو إسماعيل ، والآن نذكر نبذة عامة عن حكمدارى السودان على النحو الذى اتبعناه فى كلامنا عن عهد محمد على باشا (عصر محمد على ص ١٧٧ من الطبعة الأولى)

موسى باشا حمدى

كان على السودان حين تولى إسماعيل الحكم (موسى باشا حمدى) ذو الأعمال الجمة والمآثر الحسنة ، وقد سر الخديو من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب إلى مصر فى يوليه سنة ١٨٦٣ ليؤدى واجب الشكر ، وأطلع الخديو على أحوال البلاد التى يحكمها ، فلقى من إسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد إلى مقر عمله بالخرطوم .

وعنى بزيادة عدد الجند فوصل عددهم فى عهده إلى ثلاثين ألفاً من الجنود النظاميين والباشيبوزق ، وسار فى حكمه بهمة ودراية ، وبقى حكمداراً للسودان إلى أن توفى سنة ١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها .

جعفر صادق باشا

(١٨٦٥ – ١٨٦٩)

ثم خلفه جعفر صادق باشا . وفى عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كما تقدم البيان

إخماد ثورة كسلا

وفى عهده أيضاً أخمدت ثورة شبت بين الجنود السودانيين المرابطين فى (كسلا) وعددهم نحو أربعة آلاف جندى

ظهرت هذه الثورة فى أواخر عهد موسى باشا حمدى ، وترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجند ثمانية عشر شهراً ، فثاروا وعصوا الأوامر وتمردوا على

وسلبوا ، وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الأهلين ، وخربوا بعض القرى ، فأخذتهم الحكومة بالحيلة تارة ، وبالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديو إسماعيل نبأ هذه الثورة اهتم لأمرها اهتماماً كبيراً ، وبعث بجعفر صادق باشا حكمداراً على السودان ، وأرسل أوامره إلى السلطات المحلية بإمداد قوات الحكومة في كسلا لإخماد الفتنة

وقد كان الفضل في إخمادها لضابط سوداني كبير يسمى (آدم بك) ، وهو من خيرة ضباط الجيش المصري ، تلقى التعليم الحربي في مصر على عهد محمد على باشا ، ورافق إبراهيم باشا في حروبه بسوريا ، واشتهر بالبسالة والإقدام ، وعرف بالمهارة والكفاءة ، وقد أرسل إليه الخديو خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحثه فيه على العمل لإخماد الفتنة وختمه بقوله « وإني أعلم ببسالتك وحسن سياستك ، مذ كنت مع المرحوم والدنا في سوريا ، فحقق آمالنا بك ، وعند انتهاء الثورة احضر إلى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ (٦٥)

أدى آدم بك مهمته خير أداء ، فأخذ الثائرين بالحسنى ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديو ، فأخلدوا إلى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً حتى يرد أمر الخديو في شأنهم ، فثارت ثائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الباشبوزق فأطلق الجند الرصاص على الثائرين فقتل كثير منهم ، واعتقل الباقون.

جعفر مظهر باشا

(١٨٦٦ – ١٨٧١)

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحكمدار ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن تسبب فيها ، وتم على يده إخمادها

وأنعم الخديو على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على ما بذله من الهمة في إخماد الثورة

وفي غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد إلى مصر ، فعين جعفر مظهر باشا حكمداراً للسودان ، فسار سيرة عدل وإصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان . ونظم

---

(٦٥) عن كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٣ ص ٤٢

الإدارة ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وفتح عدة محاكم للفصل في منازعات الناس

وفي عهده عين آدم بك الضابط السوداني المتقدم ذكره قائداً عاماً للجيش المصري بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فصار يعرف بآدم باشا . وقد أظهر ولاء صادقاً لمصر والحكم المصري

وفي عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية في مطاردة تجار الرقيق ، وزحف صمويل بيكر باشا بقوة من الجيش المصري على إقليم خط الاستواء وضمه إلى أملاك مصر كما أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه في مهمته .

واشتهر مظهر باشا بالعدل والنزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأناً ، وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب إليه علماء السودان ويكرمهم ، ذكر عنه إبراهيم باشا فوزي أنه فارق الخرطوم وعليه دين يربو على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال أن راتبه لم يكن يفي بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوي الفضل ، قال ولا يزال السودانيون يذكرون له هذه المبرات ، وهم مجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة في جبين السودان (٦٦) .

وقد عين في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام بمصر (٦٧) فانفصل عن منصبه في السودان ، وعين في مكانه ممتاز باشا

ممتاز باشا

(١٨٧١ – ١٨٧٣)

هو من ضباط الشراكسة في الجيش المصري ، وكان سيء السيرة ، فحرك مرشده فشكاه إلى الخديو ، فأمر بالتحقيق معه ، وسجن بالخرطوم رهن التحقيق ، ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذي تركه أنه علم الأهلين زراعة القطن

---

(٦٦) السودان بين يدي غردون وكتشنر ج ١ ص ٦٧

(٦٧) الوقائع المصرية العدد ٤٢٩ الصادر في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧١

إسماعيل باشا أيوب

(١٨٧٣ – ١٨٧٧)

في عهده اتسعت فتوح مصر اتساعاً عظيماً ، ففتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت ، وضمت زيلع وبربره ، وفتحت سلطنة هرر كما بيناه في موضعه ، وله فضل كبير في بسط رواق العمران في السودان ، فقد أمّن السبل ، ووطد دعائم الأمن في نواحيه ، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة ، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود واداي ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره في تنشيط التجارة ، وعني بتوسيع زراعة القطن وأنشأ معملين لحلج الأقطان ونسجها ، وفي عهده أنشئت عدة مكاتب للبريد في أمهات العواصم ، وقد بقي في منصبه إلى أن تدخلت السياسة الإنجليزية ، وأوعزت إلى الخديو إسماعيل بتعيين غردون باشا مكانه ، فنقل إسماعيل باشا أيوب عضواً بالمجلس الخصوصي العالي (مجلس الوزراء) ، وهذا التعيين وإن كان دليل الرضا عنه ، لكنه أدى إلى إقصائه عن السودان ، ثم ترقى في المناصب ، إلى أن صار وزيراً للداخلية عقب الاحتلال الإنجليزي ، وإليه ينسب امتناع الحكومة عن إرسال النجدة التي طلبها عبد القادر باشا حلمي حكمدار السودان لإخماد الفتنة المهدية ، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣ ، مما كان سبباً في استفحال الثورة ، وخدمة المطامع الإنجليزية ، كما سنبينه في موضعه ، وتوفي سنة ١٨٨٤ .

غردون باشا

(١٨٧٧ – ١٨٧٩)

لم ينقطع الكولونل غردون عن السودان طويلاً ، فبعد أن استقال سنة ١٨٧٦ من منصبه [illegible] وعاد إلى انجلترا ، سعت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو كي يعينه حكمداراً عاماً للسودان ، وهكذا تدرجت السياسة الإنجليزية في تدخلها في شئون السودان ، فبعد أن كان غردون حاكماً لخط الاستواء ، صار الحاكم العام للأقاليم السودانية جميعها . وهذه أول مرة

ولي فيها هذا المنصب الخطير حاكم أجنبي . وهو ليس حاكماً أجنبياً فحسب ، بل ينتمي إلى دولة لها في مصر مآرب استعمارية لا تخفى ، وكانت تتطلع إلى مصر ، وتعمل على بسط إمبراطوريتها ، وهي نكبة خطيرة تنصب على السودان والإمبراطورية المصرية .

فصار غردون حاكماً عاماً على السودان وهو من كبار ساسة الإنجليز ، ودليل على مبلغ ما أدركته من سلطان سياسي في البلاد المصرية ، ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ أي بعد أن خطت خطوات أوسع في التدخل في شئون مصر ، إذ بدأ تدخلها عقب شرائها أسهم مصر في قناة السويس سنة ١٨٧٥ . وأعقب ذلك تدخلها والدول في شئون مصر المالية بإنشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ . فتعيين غردون هو من آثار ارتباك مصر المالي ، ومن نتائج سياسة إسماعيل المالية ، فقد كان يظن أنه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف انجلترا ، فتعاونه في محنته ، لكنه لم ينل أي مقابل لهذه المنحة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت انجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الإنجليزية في مصر ، تأخذ كل ما تستطيع أخذه ، دون أن تعطي شيئاً .

ويستفاد من رسائل غردون أن إسماعيل كان متردداً في إسناد هذا المنصب الخطير إليه ، ولكن غردون رفض أن يذهب إلى السودان ما لم يعين حاكماً عليه ، وكان يظن أن الخديو لا يقبل هذا الشرط (٦٨) ولكن ضغط السياسة الإنجليزية ، والتماس الخديو النجدة منها في محنته المالية ، كل ذلك مال به إلى التساهل والتسليم ، وأصدر ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ فرماناً لغردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور ، وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وهرر ، وسواحل البحر الأحمر مع مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربره (٦٩) ، وخوّله في حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية ، وكان سلطان مصر في السودان قد بلغ وقتئذ أقصى مداه ، إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والأقيانوس الهندي شرقاً . إلى حدود واداي غرباً . والبحيرات الاستوائية جنوباً .

لم يكن غردون على كفاءة للاضطلاع بأعباء المنصب الكبير الذي تولاه ، بل كان سريع التأثر ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب في آرائه ، ولم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجار بالرقيق ، واحتكار العاج ، لكنه أسرف في عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة وبعد النظر

---

(٦٨) رسائل غردون [illegible] ص ١٩٥

(٦٩) كما وردت في « الوقائع المصرية » بالعددين ٦٩٨ و ٦٩٩ الصادرين في ٢٥ فبراير و ٤ مارس سنة ١٨٧٧

من شايي لونج بك : « إن أمر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل ستوى على القلم النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى حكم السودان ، والأمن والیسار بسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان بنوه تحت أعباء ديون ، والثورة تتمخض في أحشائه(٧٠) .

وقد جعل غردون اعتماده على الموظفين الأجانب في تلك الأصقاع النائية ، فعين مسداليا بك Messedaglia مديراً للفاشر (دارفور) وكان إيطالياً ، وجيسى باشا Gessi pacha الإيطالي مديراً لبحر الغزال ، وفردريك روسي Rosset قنصل ألمانيا في الخرطوم مديراً لدارفور ، وشارل ريجوليه Rigolet الفرنسوي مديراً لداره ، واميلياني Emiliani مديراً لكبكيه ، والدكتور زورعبي مفتشاً للصحة ، والضابط (سلاتين) أحد ضباط الجيش النمسوى مفتشاً للمالية ، وهو الذي صار فيما بعد سلاطين باشا صاحب المواقف المشهورة أثناء الثورة المهدية ، وجيكلر باشا النمسوى ، مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهلم جراً .

وكان الكولونل (بروت) الأمريكاني يتولى الحكم في مديرية خط الاستواء ، فعين بعده إبراهيم فوزى (باشا) ، ثم ما لبث أن أقاله وعين في مكانه الدكتور شنتزر الألماني الذي عرف بعد ذلك بأمين باشا .

وأهمل غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يعن بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ، مكأنه كان يبغى إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهيداً لإدخالها في منطقة النفوذ الانجليزى

وأهمل المدارس التي فتحها الولاة من قبل ، وتذرع إلى ذلك بقلة المال ، ومنع إرسال الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم إلى مصر ، وعزل الموظفين منهم

وشغلت الفتن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نذيراً بشبوب الثورة المهدية ، وساعد على شبوب الفتن تشدده في إبطال الرقيق ، ونقص قوة الجيش المصرى في السودان ، لما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التي أرسلتها إلى تركيا في حرب البلقان (سنة ١٨٧٧)

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لأبيه ، إذ كان ممنوعا من الرجوع إلى السودان ،

---

(٧٠) مصر ومديرياتها للمرحوم الكولونيل شايي لونج بك ص ١٨٦

وطمع في الاستقلال ببحر الغزال ، فأنفذ إليه غردون باشا حملة طاردته وأوقعت به

ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ إليه غردون حملة بقيادة جيسى باشا [illegible] هزيمة سليمان ومقتله (يوليه سنة ١٨٧٩) ، وقد حزن عليه أبوه الزبير باشا حزناً شديداً ، لكنه بقي موالياً للحكومة المصرية

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحى) ، فطاردته الجنود المصرية حتى أدركته ، وحوكم أمام مجلس عسكرى وحكم عليه بالإعدام (مارس سنة ١٨٧٩)

وثار في دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، ونصبه الأهلون سلطاناً عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربته الجنود المصرية حرباً طويلة ، انتهت بقتله في أوائل سنة ١٨٨٠(٧١) ، وسعى غردون في الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر ، فلم يوفق إلى ذلك ، وفي أواخر سنة ١٨٧٩ جاء إلى مصر ، وكان ذلك في أوائل حكم الخديو توفيق باشا ، وقدم استعفاءه من منصبه ، فعينت الحكومة محمد رءوف باشا حكمداراً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، وفي عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشئومة التي قضت على نفوذ مصر في السودان ، ومهدت للحكم الإنجليزى في أرجائه

التقسيم الإدارى

دخل على التقسيم الإدارى في عهد إسماعيل تعديلات أفضى إليها في الغالب التوسع في الفتح وضم بلاد جديدة إلى السودان .

فصار مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية(٧٢) :

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
مديرية سنار وفازوغلى	سنار
مديرية بربر	بربر

---

(٧١) دارفور في عهد غردون باشا لمسداليا بك . مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٣ عدد ١ ص ٩٣ (مايو سنة ١٨٨٨)

(٧٢) انظر إحصاء سيلو بك Chelu Bey كبير مهندسي الرى بالسودان في كتابه (النيل والسودان ومصر) ص ٩٧ ، ونعوم بك شقير في كتابه السودان ج ١ ص ٩٧

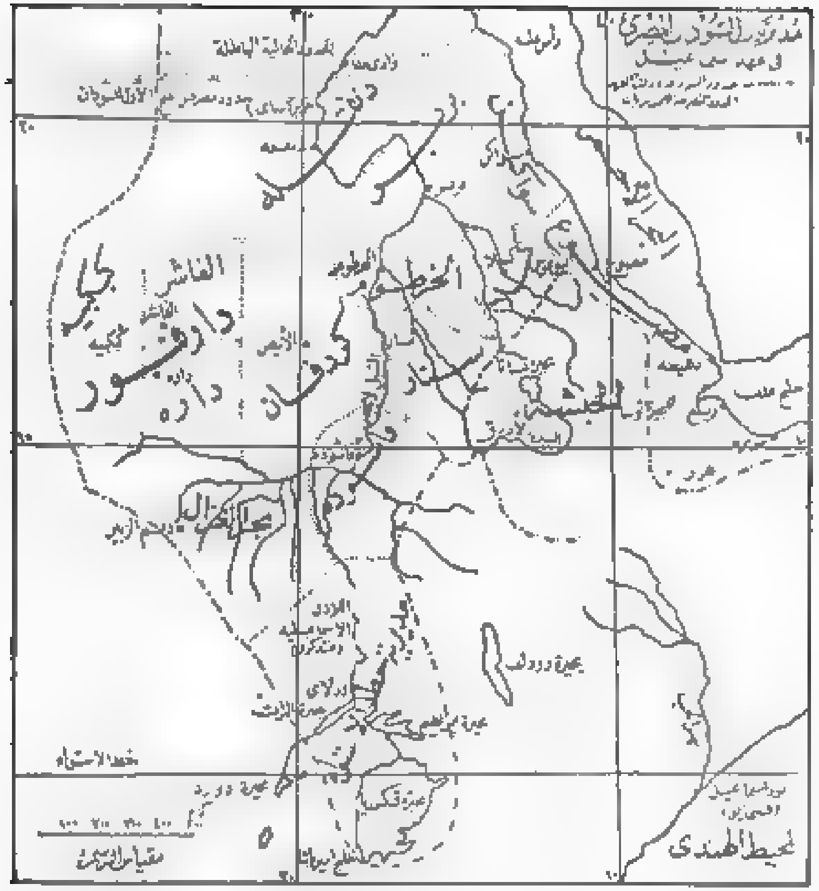
مديريات السودان المصري
في عهد إسماعيل
الحدود المصرية الحالية
وادي حلفا
دنقلة
بربر
سواكن
مصوع
الخرطوم
كردفان
الأبيض
دارفور
الفاشر
كبكبيه
داره
سنار
الحبشة
البحر الأزرق
فاشوده
ديم الزبير
بحر الغزال
اللادو
الإسماعيلية (غندكرو)
ودلاى
بحيرة البرت
بحيرة فكتوريا
بحيرة رودلف
بحيرة تسانا
زيلع
بربره
هرر
خط الاستواء
المحيط الهندى
مقياس الرسم

مديريات ومحافظات		العاصمة
مديرية دنقلة		دنقلة
مديرية كسلا أو التاكه		كسلا
مديرية فاشوده		فاشوده
مديرية كردفان		الأبيض
مديرية الفاشر		الفاشر
مديرية داره	مديريات دارفور(٣٣)	داره
مديرية كبكب		كبكبيه
مديرية بحر الغزال		ديم الزبير
مديرية خط الاستواء		الإسماعيلية (غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاى

وكانت مقسمة إلى مأموريات لاتوكا، وبور، ومكركه، ومنبوتو ودلاى، وفويره

محافظة سواكن	سواكن
محافظة مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
محافظة بربره	بربره

الجيش المصرى فى السودان

بلغ الجيش المصرى فى السودان على عهد إسماعيل نحو ٣٠ ألف مقاتل موزعين على المراكز الآتية

دنقله، بربر، الخرطوم، سنار، القلابات، الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة) القضارف، كسلا، أميديب، سنهيت، سواكن، كردفان، دارفور، بحر الغزال، خط الاستواء، مصوع، هرر، زيلع، بربره

---

(٣٣) كما ذكره سلاطين بك مدير دارفور فى عهد غردون باشا فى مقاله المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص ٤٦ مع تسمية مديرية كبكبيه باسم كلكل ويوافق التقسيم الوارد فى خريطة سلاطين بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الأزرق الانجليزى Blue Book سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٣٩

أعمال العمران

بيّنا في « عصر محمد علي » (ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى) عمران السودان في عهد محمد علي ، ثم ذكرنا في الفصل الثاني من كتابنا الحالي ما تم على يد سعيد باشا من الإصلاح ، والآن نذكر أعمال العمران التي تمت في عهد إسماعيل ، عدا ما ذكرناه فيما تقدم من البيان

استتباب الأمن

كان من أول ما عني به الحكم المصري في السودان بسط رواق الأمن ، وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة ، ويكفي دليلا على فضل الحكم المصري من هذه الناحية كلمة السير صمويل بيكر في هذا الصدد ، قال « إن السائح الأوروبي يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة ، دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس في حديقة هايدبارك بلندن »

الزراعـــة

وانتشرت الزراعات الحديثة في أنحاء السودان وخاصة في عهد إسماعيل باشا أيوب ، فقد عمل على توسيع مناطق زرع القطن . واستخدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الري لتوفير المياه اللازمة لها ، وأنفق في هذا السبيل أموالا طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن ، وأنشأ معملين لحلج القطن في كسلا والخرطوم[٧٤] ، وكان في نيته إنشاء معمل آخر في (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦ ، وعين بدله غردون باشا .

وانتشرت زراعة القطن في السودان الشرقي ، وأنشئت أسواق لبيع محصوله في كسلا والقضارف (أبوسن) والقلابات ، وصار لكسلا أهمية تجارية كبيرة لكثرة مزارع القطن حولها ، فضلا عن موقعها الحربي

---

[٧٤] ذكرت الوقائع المصرية عدد ٥٤٨ الصادر في ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وابور حلج الأقطان بكسلا ، وجاء ذكر وابور الخرطوم في كتاب شيو بك ، النيل والسودان ومصر ، ص ٣٠٥

وزرع الدخان في القضارف ، وأنتج صنفا لا يقل جودة عن دخان الأناضول ، واستعمله سكان في جميع نواحي السودان[٧٥] وأنشأ أمين بك (باشا) حقولا للتجارب الزراعية في (الرجاف)[٧٦]

وكثر البن في دنقلة ، وزاد محصول التمر كل سنة ، وكان يحمل إلى بربر والخرطوم ومن هناك يرسل إلى أقاصي السودان حتى خط الاستواء والحبشة .

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان في عهد الحكم المصري ، وإليك أهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل أو السفن[٧٧]

١ – من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان – ١٢ مرحلة بسير القوافل

٢ – من الخرطوم إلى الفاشر عاصمة دارفور ٣٢ مرحلة بسير القوافل

٣ – من الخرطوم إلى غندكرو (الإسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينهما بالبواخر في ثمانية عشر يوما .

٤ – من الخرطوم إلى قوز رجب على نهر عطبره – ست مراحل .

٥ – من الخرطوم إلى دنقلة – ٨ مراحل .

٦ – من الخرطوم إلى أبو حراز فالقضارف وتقطع المسافة بينهما في ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة أخرى على ظهور الجمال

٧ – من الخرطوم إلى قوز رجب فكسلا في ثمانية أيام بالجمال

٨ – من القضارف إلى القلابات في أربعة أيام على ظهور الجمال

٩ – من القضارف إلى (الحيرة) في يوم ونصف على الجمال

١٠ – من القضارف إلى كسلا في خمسة أيام بالجمال

---

[٧٥] النيل والسودان ومصر لمسيو شيو بك ص ٩٠

[٧٦] مجلة [illegible] عدد مارس سنة ١٨٨١ ص ٣٤

[٧٧] كما ذكرها الكولونل ستوارت في تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الإنجليزي عن مصر سنة ١٨٨٣ (ج ١١ ص ٨)

١١ – من فوز رجب إلى سواكن فى أحد عشر يوماً على ظهور الجمال

١٢ – من مصوع إلى سنهيت (عاصمة البوغوس) فى خمسة أيام على حـ

١٣ – من سنهيت إلى كسلا فى سبعة أيام بالجمال

١٤ – من غندكرو إلى الدفلاى سيراً على الأقدام فى تسعة أيام

١٥ – من غندكرو إلى مسيولو فى ٣٤ يوماً سيراً على الأقدام .

١٦ – من غندكرو إلى فويره فى ١٨ يوماً سيراً على الأقدام .

١٧ – من غندكرو إلى لاتوكا فى ستة أيام سيراً على الأقدام .

١٨ – من غندكرو إلى مكركا فى سبعة أيام سيراً على الأقدام

١٩ – من القاشر إلى أسيوط فى أربعين يوماً على ظهور الإبل

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل فى شلال (حنك) جنوبى وادى حلفا ، ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالحاً للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان(٧٨) وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى(٧٩) .

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى كان إنشاؤها فى عهد محمد على ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة دهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر إلى الخرطوم بطريق النيل عدا الباخرة (الإسماعيلية) التى أحضرها الكونتراتور لكوبهم فإنها نقلت قطعاً مفككة وركبت فى ترسانة الخرطوم وأنشئت فى هذه الترسانة أربع بواخر جديدة(٨٠)

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشئ فنار فى ميناء (بربره) على خليج عدن لهداية السفن وتسهيل الملاحة . وبنى بها أيضاً رصيف لإيواء السفن بمرسى

---

(٧٨) الوقائع المصرية العدد ٣٦٧

(٧٩) الوقائع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ . [illegible] سنة ١٨٧٤)

(٨٠) شقير بك ص ١٧١

وعهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٨ إلى الكولونيل جريفز Graves والقائمقام محمد مختار بك (باشا) [illegible] شواطئ السودان شرقية مصر والواقعة على المحيط الهندى لاختيار موقع [illegible] يرشد السفن فى [illegible] المحيط وخليج عدن وقد اضطلعا بهذه المهمة وخطط القائمقام مختار بك خريطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوبى رأس جردفون (جردفوى)(٨١) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجرى فيه الماء العذب بوادٍ يعرف بوادى شحوه ولكن الفنار لم ينشأ ، لانتهاء حكم إسماعيل فى يونيه سنة ١٨٧٩

وتجد بالصفحة الآتية خريطة رأس جردفون وموقع الفنار الذى كان مزمعاً إنشاؤه كما خططها القائمقام محمد مختار بك

مشروع السكة الحديدية

وعهد الخديو إسماعيل إلى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التى تصل السودان بمصر .

وشرع فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) ، وأنفق فى ذلك نحو ٤٠٠ ألف جنيه ، ومدّ من الخط نحو ٥٧ كيلومتراً فقط من وادى حلفا ، ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلومتراً أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتباك الحكومة المالى .

المدارس

وأنشئت بعض المدارس لتهذيب الأهلين وتعليمهم ، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول

ولقد رأينا فى (الوقائع المصرية)(٨٢) وصف احتفال فخم أقامته مدرسة (بربر) الابتدائية ، لمناسبة امتحانها السنوى ، أنشد فيه نجباء التلاميذ القصائد المنظومة ، وتم الاحتفال

---

(٨١) انظر مجلة الجمعية الجغرافية المصرية عدد ٩ (أغسطس – نوفمبر سنة ١٨٨٠ ص ٣٩)

(٨٢) العدد ٦٦١ – ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥

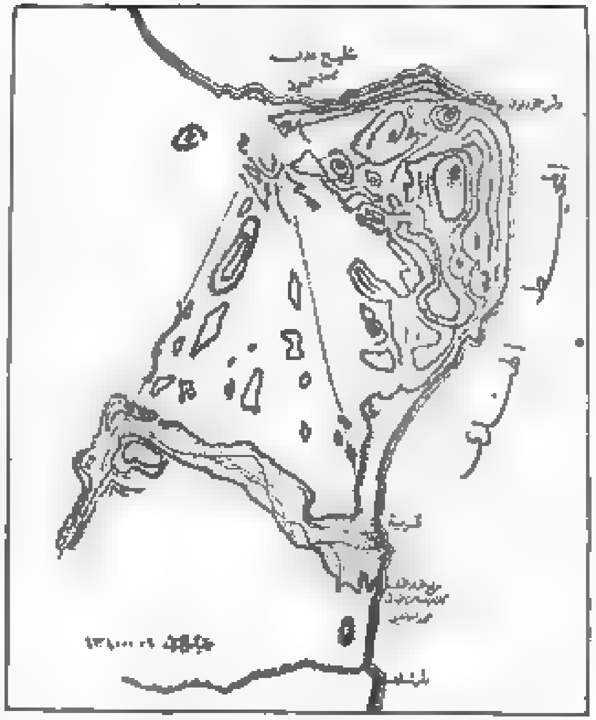

رأس جردفون «جردفوى»

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندى فى عهد الخديو إسماعيل ، وترى موقع الفنار الذى اعتزم إسماعيل باشا إنشاءه سنة ١٨٧٧

وهذه الخريطة مصغرة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد مختار باشا ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠

على نظام الحفلات المدرسية فى عهد إسماعيل

وأنشأ أمين بك (باشا) فى اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ومستشفى ومسجداً(٨٣).

---

(٨٣) مجلة الجمعية الجغرافية - عدد فبراير سنة ١٨٨٦ ص ٣٢

التجـارة

بسط الحكم المصرى رواق الأمن فى السودان ، فنشطت حركة التجارة فى بلدانه ، واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وأنشئت فيه بيوت تجارية كبيرة تتولى إصدار متاجر السودان إلى مصر وأوروبا وتجلب إلى السودان واردات أوروبا ومصر ، وقد أثرت هذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، وأكبرها بيت السيد أحمد العقاد ، وبيت على أبى عمورى ، وفرج الله الموصلى ، والخواجة غطاس ، وجيليو ، واصرواز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء متاجرهم إلى أقاصى السودان ، وصار لكل منهم قوة مسلحة من السودانيين ، وأماكن للتجارة فى معظم الجهات تسمى «مشارع» ، يقيمونها على شكل مربع من عروق الأشجار ، ويقيم التاجر أو وكيله فيها بحراسة رجاله المسلحين ، ولهؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهى اقتناص الرقيق للاتجار بهم فى أسواق مصر ، وقد درّت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الأرباح الطائلة ، ومما يدل على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية أن (الزبير باشا) الذى صار له شأن كبير فى السودان كان فى بداية أمره وكيلا لبيت على أبى عمورى .

ولما اعتزم الخديو إسماعيل منع تجارة الرقيق عهد إلى ولاة السودان الاتفاق مع أصحاب «المشارع» على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعويضات تدفع إليهم .

وكانت هذه البيوت تتولى إصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ، والصمغ ، والجلود ، والشمع ، والمواشى ، والتمر الهندى ، والبن ، والكحل ، وقرن الخرتيت ، وما إلى ذلك

وظلت التجارة مزدهرة فى ظل الحكم المصرى وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين فى السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للأوروبيين ألف بيت ، وبلغت واردات السودان فى السنة مليونين من الجنيهات وصادراته تعادل هذا القدر(٨٤)

---

(٨٤) من بيان قدمه التجار الوطنيون والأجانب فى مصر احتجاجاً على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وضمنوا فيه ما
حلاً يؤدى إلى بوار متاجرهم فيه (كوشرى - المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٨٦)

البريد

عهد الخديو إسماعيل إلى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية إنشاء مكاتب منتظمة للبريد في عواصم السودان، فصدع بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب، وأنشئت إدارة البريد في الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفل بافتتاحها احتفالا فخما[٨٥].

وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد في الخرطوم، ودنقله، وبربر، وكسلا. وفتحت أيضاً مكاتب أخرى في سنار، والمسلمية، والقضارف، وفازوغلى، وكرجوج، وفاشوده، والأبيض، والفاشر، وبقيت هذه المكاتب تؤدى مهمتها، إلى أن تعطلت بعد نشوب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣، وظل مكتب الخرطوم مفتوحاً إلى أن سقطت المدينة في أيدى الثوار سنة ١٨٨٥

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التي أنشئت في السودان لغاية سنة ١٨٧٠، ٢١١٠ كيلومتر، وبلغ عدد مكاتب التلغراف في مدن السودان ٢١ مكتبا، وذلك سنة ١٨٧٧.

وهاك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التي وصلت بينها[٨٦].

١ – مصر – دنقله – بربر – الخرطوم
٢ – الخرطوم – أبو حراز – الأبيض – فوجه
٣ – الخرطوم – أبو حراز – مسلميه – سنار – فازوغلى
٤ – مسلميه – مكوه
٥ – أبو حراز – قضارف – كسله – سنهيت – مصوع
٦ – كسله – قوز رجب (على نهر عطبره) – بربر
٧ – سواكن – كسله

---

(٨٥) الوقائع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤)

(٨٦) تقرير الكولونيل ستوارت عن السودان المنشور في الكتاب الأزرق الإنجليزى Blue book عن مصر سنة ١٨٨٣ ج [illegible] ص ٨

٨ – قضارف – دوكه – جيرى – قضارف – القلابات
٩ – قضارف – الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة)

وكان مركز هذه الخطوط في الخرطوم وقد تلفت دعائمه في [illegible] عهد الثورة المهدية.

ميزانية السودان

ذكر جردون باشا في رسالته (ص ٢٨١) أن ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ تتألف من الأرقام الآتية

٣٢٧,٠٠٠ جنيه دين السودان
٥٧٩,٠٠٠ جنيه إيرادات الحكومه
٦٥١,٠٠٠ جنيه مصروفات.
٠٧٢ ٠٠٠ جنيه العجز

الرحلات والبعثات الجغرافية

إن بسط سيادة مصر وسلطانها على وادي النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية في أرجاء السودان، فحفل عصر إسماعيل بالبعثات والحملات التي أنفذها الخديو لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية، وقوامها ضباط أركان حرب الجيش المصرى، فكان لهم الفضل الكبير في مد رواق الحكم المصرى، ونشر لواء الحضارة في السودان، ولهم فضل لا ينكر في تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات، بما أضافوا إليها من الحقائق الهامة، والبيانات المبتكرة، والخرائط والرسوم الدقيقة

وإنا ذاكرون بالفخر والإعجاب موجز أعمال هذه البعثات والحملات المصرية، وما وصلت إليه من الاكتشافات الجغرافية

فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا إلى منبع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها

وفي سنة ١٨٧١ قامت بعثة برآسة الأميرالاي (بوردى بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الأمريكان في الجيش المصرى ومعه طائفة من الضباط المصريين، فجابوا

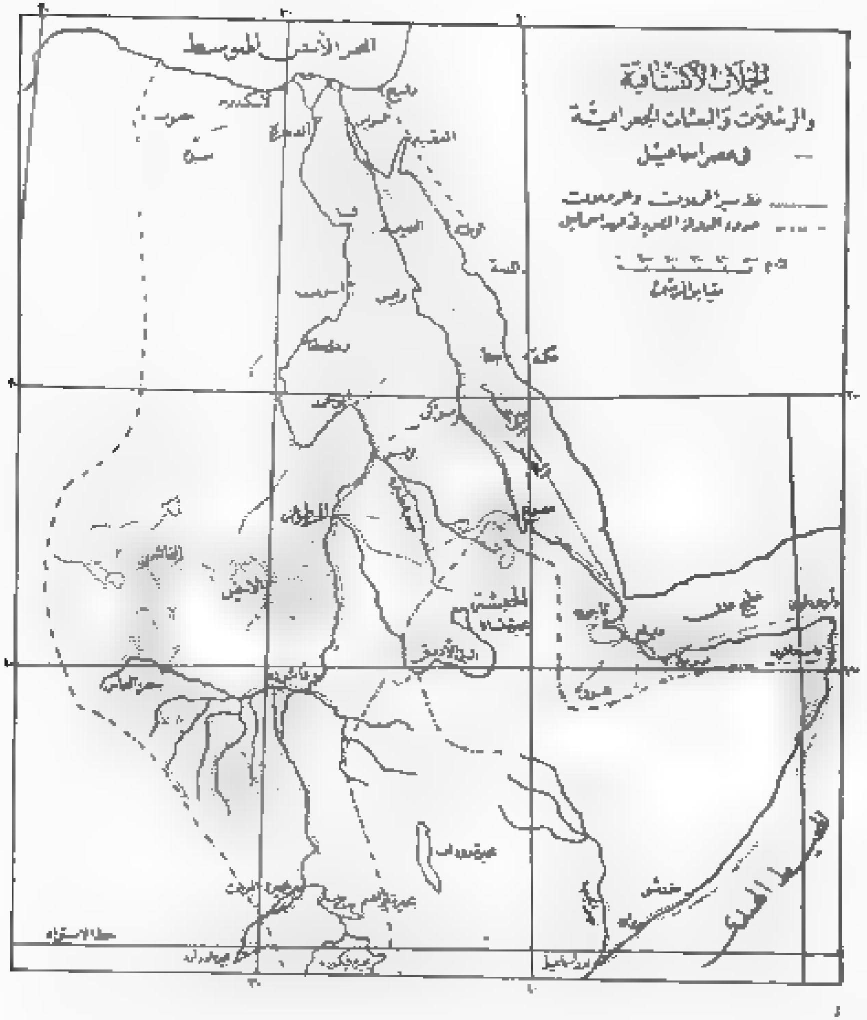

جهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، من القاهرة والسويس شمالا ، إلى قنا والقصير جنوباً ، وكشف طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر في تلك الجهات .

وفي سنة ١٨٧٣ سار الأميرالاي بوردي بك براً إلى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الأحمر (عرض رأس بناس) ولحقه بها الأميرالاي كولستن Colston أحد الضباط الأمريكان في الجيش المصري من طريق قنا براً ، وخطط الجهات المقفرة الواقعة بين برنيس و (بربر) على النيل وقضى في هذه المهمة نيفا وسبعة أشهر(٨٧) .

وفي سنة ١٨٧٤ اكتشف الأميرالاي شايي لونج بك Chaille Long بحيرة إبراهيم كما بيناه في موضعه ، واكتشف معظم مجرى النيل المعروف بنيل فيكتوريا ، وحقق نقطة كانت غامضة وهي أن نيل فيكتوريا يصب في بحيرة ألبرت ، ورسم الطريق بين اللادو ومكركه جنوبي بحر الغزال

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ أنفذ الخديو ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من ضباط أركان الحرب لاكتشاف جهات كردفان ودارفور .

البعثة الأولى برآسة الأميرالاي بوردي بك ، ومن أعضائها القائمقام ميزون بك Matson من الضباط الأمريكان في الجيش المصري ، والملازمون محمود أفندي صبري (باشا) ، ومحمد أفندي سامي ، وسعيد أفندي نصر (باشا) ، وخليل أفندي حلمي ، والدكتور محمد أفندي أمين ، ومهمتها اكتشاف جهات دارفور ، فكشفت المواقع وطرق المواصلات بين النيل و (حفرة النحاس) بأقصى حدود دارفور جنوبا بغرب(٨٨) ، وجابت أرجاء هذا الإقليم المعظم ، وكشفت من الطرق ما طوله ٦٥٠٠ ميل ، وحققت ٢٢ موقعاً من المواقع الفلكية . ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد .

والبعثة الثانية ، برآسة الأميرالاي كلستون ، ومن أعضائها الصاغ أحمد أفندي حمدي (باشا) والأميرالاي بروت Prout من الضباط الأمريكان في الجيش المصري ، والملازمون عمر أفندي رشدي (باشا) ، ومحمد أفندي ماهر (باشا) ، ويوسف أفندي

---

(٨٧) راجع تقرير الأميرالاي بوردي عن هذه الرحلة في مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة أولى عدد ٨ ص ١٣٦ ، وتقرير الأميرالاي كولستن بالمجلة المذكورة مجموعة ثانية عدد ٩ (أغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩ ، وبحث الأستاذ كور عن رحلة كولستن من قنا إلى برنيس وخريطة الرحلة في مجلة الجمعية مجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٢٣

(٨٨) راجع بحث الأميرالاي (اللواء) بوردي باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية مجموعة عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ وخريطة للبعثة بهذا العدد

[illegible] وحسن أفندي فوزي ، والدكتور بفوند Pfund العالم الطبيعي ، وقد اكتشف [illegible] وحقق مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة [illegible] هذه البعثة خلال الرحلة فوق مرتبة بعثة الأميرالاي بروت فلقي أعضاء البعثتين ثلاث سنوات يقطعون المراحل ويطوون الفدافد ويتكبدون المشقة في سبيل الاضطلاع بمهمتهم

والبعثة الثالثة : برئاسة المهندس الأمريكي متشل Michel[89] يصحبه الضابط [illegible] أفندي فتحي لاكتشاف المعادن بين النيل والبحر الأحمر ، وقد كشفت هذه البعثة منجم للذهب في (الحمامة) شمالي قنا ، ثم عرجت بثغور البحر الأحمر وخليج عدن ، كعصيب ومصوع ، وتاجوره ، وبربره ، وزولع في الساحل ، ثم عادت إلى مصوع واكتشفت الجهات الشرقية من الحبشة

ورسم اليوزباشي لبنان ذي ملمون (ابن لبنان باشا) الطريق بين قندكور وتوجاجا عاصمة أوسه ، وقد قتل وهو عائد من مهمته ، ومن بياناته وضع العلامة جورج شوينفرت خريطته عن تلك الجهات

ورسم البكباشي محمد أفندي عزت أحد ضباط منزنجر باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة أوسا بالحبشة

ورسم محمد مختار بك (باشا) وعبد الله بك فوزي (باشا) خريطة بلاد هرر ، ورسم الأول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردفون[90] (جردفوي) وموقع المنار الذي أزمع إسماعيل إنشاءه في تلك الجهة كما تقدم بيانه

ورسم ضباط أركان حرب وادي [illegible] الواقعة بين هرر وزيلع

ووضع القائمقام عبد الرازق بك نظمي خريطة بربره وملحقاتها

واكتشف حملة [illegible] التي أعدها إسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على المحيط الهندي وجهات قسمايو (بور [illegible]) ونهر جوبا . وهي الجهات التي قصدت إليها الحملة كما تقدم في موضعه

---

(٨٩) [illegible] مهندس [illegible] وكان ملحقا بقسم أركان حرب الجيش المصري وعند تقريره عن هذه البعثة في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية المصرية ١ عدد ٦ (أكتوبر سنة ١٨٧٩) ص ٧ و ١٥

(٩٠) لعل الصحيح (جردفون) [illegible] العلامة [illegible] باشا

وفي سنة ١٨٧٧ جاب الأميرالاي ميسون بك Mason بحيرة (ألبرت) ورسم لاكتشافها [illegible] خريطة [illegible]

وأنفذ الخديو سنة ١٨٧٧ بعثة برئاسة المستر بيرتون لاكتشاف المعادن في جهات (مدين) بجزيرة العرب .

وحقق ضباط أركان الحرب برئاسة البكباشي عبد الله بك فوزي (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع و [illegible] ورسم خريطتها

وحقق حبشي باشا موقع [illegible]

وجاب الأميرالاي محمد مختار بك (باشا) بوغاز السودان الشرقي حين كان رئيساً لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ يصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري ، وله مبحث مسهب في تخطيط [illegible] والقضارف (أبو سن) ، والقلابات ، وطومات ، وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي[92]

واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكي الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة ألبرت

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصري سنة ١٨٧٧ خريطة لأفريقيه ، وهي أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين ، اشترك في رسمها كل من الأميرالاي لوكت Lochett ، والقائمقام محمد مختار بك (باشا) والصاغ عبد الله بك فوزي ، وعبد الرازق بك نظمي ، والضابط محمود صبري (باشا) ، وأحمد فائق (باشا) ، ومصطفى كامل ، وأحمد فهمي ، وحسن حارس (باشا) ، وحسن صفوت ، وإبراهيم حلمي ، ومحمد [illegible] ، ومحمد خير الله ويوسف صبا (باشا) ، وعلي [illegible] (باشا) ، وأحمد رشيد

وهذه الخريطة مودعة ضمن مخطوطات الجمعية الجغرافية الملكية .

ذكر الجنرال ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري في عهد إسماعيل أن الجهات التي [illegible] ضباط أركان حرب وحصروها ، ورسموا مواقعها ، يبلغ في اتساع مداها مجموع مساحة [illegible] وألمانيا و [illegible][93] بحدودها القديمة . هذا يدلك على عظم الاكتشافات

---

(٩١) مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١ عدد ٥ (مايو سنة ١٨٧٧ – فبراير سنة ١٨٧٨) ص ٥

(٩٢) مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١ عدد ١١ (فبراير سنة ١٨٨١) ص ٥

(٩٣) الرحلات المصرية في أفريقية للجنرال ستون باشا – مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ٢ عدد ٧ (مايو ١٨٨٥) ص ٢٤٣

والتحصينات التى تمت على أيديهم

وقد ضاع كثير من مباحث هذه البعثات ، لأن الاحتلال الإنجليزى تعمد أن يبدد أعمالها وخرائطها ومجاميعها النفيسة ، وذلك لكى يقطع الصلة بين جيشنا القديم المجيد والجيش الذى ألفه الإنجليز بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لأعضاء هذه البعثات تسجل لضباط الجيش المصرى أجلّ الخدمات للعلم والحضارة والعمران ، فإن الاكتشافات والحملات العدة التى اضطلعوا بها جديرة بأن تعد من مفاخر تاريخنا القومى ، ومن الصفحات المشرقة فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصريين.

الحكم المصرى فى السودان وشهادة الثقات من الأجانب

ذكرنا فى كتاب «عصر محمد على» (ص ١٨٣ من الطبعة الأولى) أقوال الثقات من الأجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد على.

والآن نذكر ما شهدوا به عن عمران السودانى على عهد خلفائه وخاصة فى عصر إسماعيل

قال السير صمويل بيكر سنة ١٨٧٣ فى كتابه (الإسماعيلية) : «أن مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين أفريقية القبلية بإنشاء حكومة نظامية ، وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة الساكنين فى تلك الأقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الخديوية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً ، فانفتحت أفريقيه الوسطى للحضارة والعمران»(٩٤) .

وقال المسيو سوتزارا Suzzara يفصل الثناء على عهد إسماعيل : «إذا علمنا ما كانت عليه الشعوب فى تلك الأقطار من الهمجية ، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم ، فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التى كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها»(٩٥) .

وقال رودلف سلاطين (باشا) فى كتابه (النار والسيف فى السودان) الذى وضعه سنة

---

(٩٤) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٤١٢

(٩٥) تقرير سوتزارا المنشور فى مجلة Revue d'Egypte للمسيو جاليارجو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ١٢٩

١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشى(٩٦)

«إن السودان المصرى يحكمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشى : الرئيس المستبد لدعاة المهدى ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية فى نواحيه ، ومن الحق أن نقول إن السودان ظل سبعين سنة ونيفا . منذ عهد محمد على مستظلا بالحكم المصرى ، مفتوحاً للحضارة والمدنية . والمتاجر المصرية والأوروبية تزدهر فى عواصمه ، والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم ، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا ممانعة ، بل كانوا يلقون عطف ورعاية من ولاة الأمور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد ، فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء فى المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من العداء ، وتحفزها للاقتتال ، فإن حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام فى مختلف أصقاعه».

وقال فى موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية

«لقد شهدنا فى السودان منظراً محزناً ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التى دخلت مع الحكم المصرى ، تتداعى أركانها ويتحطم صرحها بأيدى أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج ، فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاماً يشبه فى بعض أشكاله نظم الحكم المصرى ، ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهذيب ، فأقاموا فى السودان صرح الظلم والاعتساف ، ولا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلاداً أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الهمجية ، فإن الخليفة والقبائل التى تناصره ، بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدى المصريين ، يحكمون الآن الأهلين التعساء حكماً جائراً ، ويرهقونهم بعصا من حديد ، ويسومونهم من العسف والنكال ما جعلهم يتوقون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يعيشون فى ظلها فى الراحة والسلام ، وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان فى عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله ، ممن اجتاحتهم الحروب والمجاعات ، والأمراض المختلفة والتقتيل والتنكيل».

---

(٩٦) النار والسيف فى السودان النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها

وقال فى موضع آخر «لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم إسماعيل ، إذ كانت حكومة مصر تحمل فى ربوعه لواء الحضارة والمدنية ، على حين كانت القبائل الخارجة عن سلطة النفوذ المصرى فى حالة الانحطاط والتأخر . فالسودان بعد أن دخلته الحضارة فى ظل حكم المصرى قد تعرضت إليه الهمجية على عهد المهديين»

وقال عن ارتباط السودان بمصر ، مما يجدر بنا أن نذكره على الدوام ونتخذه عبرة وعظة لنا وقاعدة لا تتبدل لسياستنا فى السودان

«أرى واجباً علىّ أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدى الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول ، إن الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمة إلى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فإن كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر إليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتعريضها لأعظم المضار».

حدود السودان المصرى أمس واليوم

اكتمل الفتح المصرى فى السودان وبلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد إسماعيل ، فشملت جنوباً بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا والبلاد التى بينهما ، إذ ضمت مملكة أونيورو وبسطت حمايتها على مملكة أوغنده ، وبلغت شرقاً سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدودها الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندى ، وضمت إليها فى هذه النواحى سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر وسواحل الصومال الشمالية ، وصارت جميع شواطىء البحر الأحمر الغربية من السويس شمالاً إلى بوغاز باب المندب جنوباً ملكاً لمصر وامتدت سلطتها إلى شواطىء خليج عدن ، من بوغاز باب المندب إلى رأس جردفون (جردفوى) ثم إلى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندى . وامتدت حدود الدولة المصرية غرباً إلى مملكة وادای الواقعة غربی دارفور

وإليك ما ذكره الكولونل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة ١٨٨٢ ، فى تقريره الذى قدمه إلى البرلمان البريطانى سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الإنجليزى)

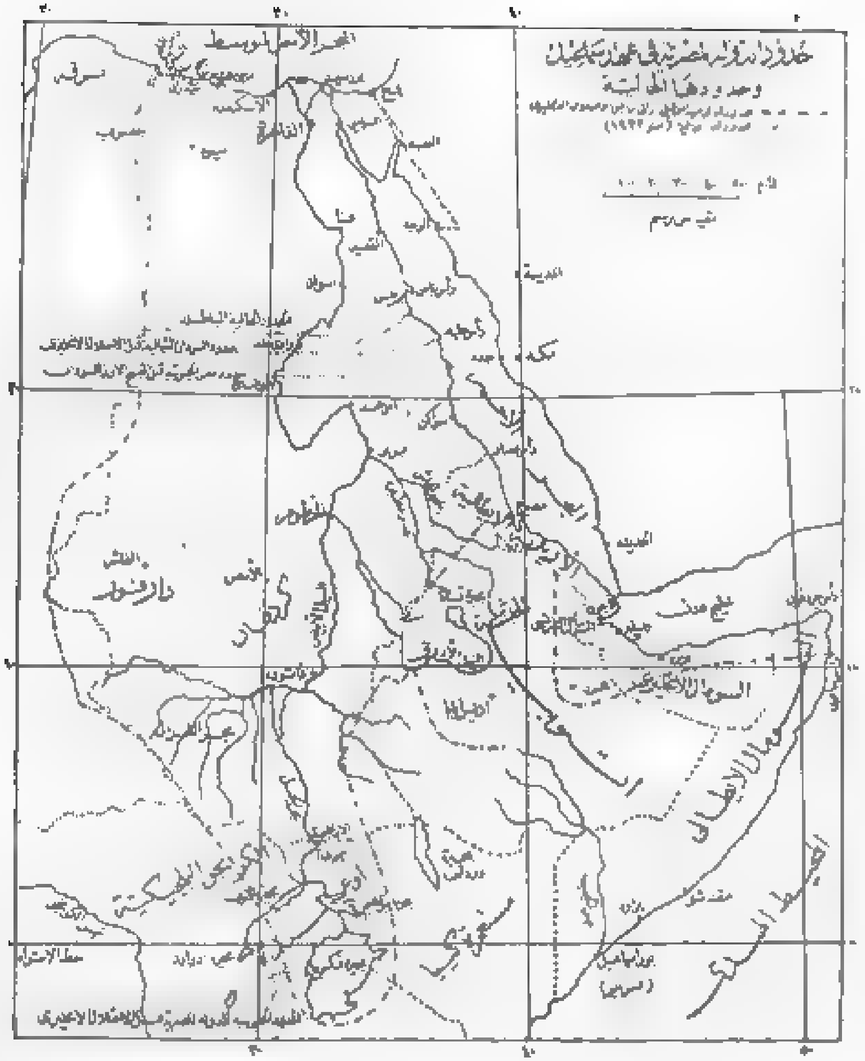

وهو مقرب من التحديد الذى ذكرناه ، فى :

« تبدأ حدود السودان المصرى من صوصحى وبيس على البحر الأحمر (سبع من رأس سه) ، وتتبع خط ٢٤ من خطوط العرض الشمالى إلى نقطة غير معينة فى جوف الصحراء النوبية بالقرب من خط ٢٨ من خطوط الطول ومن هناك تتجه الحد جنوباً بغرب ، حتى يبقى مركز شقان الغربى من دارفور حيث خط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتجه جنوباً حتى يصل إلى ما بين الخط ١١ و ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوباً بشرق مارا بغوندوكورو وحيرة البرت إلى أن يتصل ببحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالاً بشرق ويشمل إقليم هرر ثم يصل إلى شواطىء المحيط الهندى عند رأس حردفون (جردفوى) ، ومن ثم يعود محاذيا الشاطىء حتى يصل إلى برببس »[٩٧]

ومعنى ذلك أن جميع سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد ألحق الكولونيل ستوارت بتقرير ، خريطة صمداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود ، وهى منشورة فى الكتاب الأزرق المتقدم ذكره ص ٣٨ .

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الإنجليزى ، إذ تواطأت انجلترا مع الدول الأخرى على انتقاص مصر من أطرافها ، فاحتلت انجلترا أوغنده وأونيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبى كله من مديرية خط الاستواء ، وصار الحد الجنوبى للسودان ينتهى الآن عند نيمولى (الإبراهيمية) بعد أن كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، واغتصبت انجلترا أيضا محافظتى زيلع وبربره ، وأخذت إيطاليا مصوع والأريتريه ورأس جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجوره وضواحيها ، والحبشة بلاد هرر وما يتبعها من أعمال هاروعى

ولم تكتف انجلترا بالتآمر على اقتسام أسلاب الإمبراطورية الإفريقية العظيمة التى أسستها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر فى سيادتها على السودان باتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ذلك الاتفاق الباطل الذى جعل السودان شركة بين مصر وانجلترا ، واتخذته هذه سبيلا إلى الانفراد بحكم السودان ، وإقصاء نفوذ مصر الشرعى عن بلاد فتحتها منذ مائة

---

[٩٧] الكتاب الأزرق الإنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٩

سنة ونيف وشربت فيه دماء أبنائها وحضارتها وعمرانها ، وبذلت فيه ما بذلته من مجهود والأرواح والضحايا والأموال .

وترجع حدود مصر والسودان ، فصار ينتهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض ، وأصبح حد السودان الشمالى يبدأ عند (فرص) شمالى وادى حلفا ، بعد أن كان الحد الجنوبى لمصر على عهد الفتح الأول للسودان (فى عهد محمد على) يصل إلى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، وكان يسمى فى الاحتلال الإنجليزى عند دنقلة جنوبى وادى حلفا أيضاً

وصارت مديرية وادى حلفا وما يليها جنوباً تابعة لإدارة السودان المشتركة بمقتضى الاتفاق الباطل المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

• • •

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش فى عهد إسماعيل أنه عنى بتنظيمه وتعليمه ومضاعفة قوته ، والوصول به إلى مستوى الجيوش الكبيرة للأمم الحديثة ، وعنى أيضاً بنهضة التعليم الحربى ، فأنشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث ، واختار لها أكفأ المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم فى نظام الجيش يسير مقترناً مع تجديد التعليم فى المدارس الحربية .

ولكنه فى السنوات الأخيرة من حكمه أهمل شئون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أقفل معظم المدارس الحربية التى أنشأها ، وذلك لنضوب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التى اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصرى قد وصل إلى درجة محزنة من الضعف والارتباك .

تلك كلمة إجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية فى عصر إسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثانى يمثل عهد التأخر والاضمحلال .

فى الشطر الأول بذل الخديو جهوداً كبرى فى تنظيم الجيش ، وأرسل إلى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطاً من خيرة ضباط الجيش[1] ليقضوا زمناً فى مشاهدة نظام الجيش الفرنسى ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شير جهاد » وأقلتهم إلى فرنسا . فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال . وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته ،

---

[1] ذكرهم إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ج ٢ ص ٢٠٨ وهم : شاهين بك ، إبراهيم باشا السوارى ، على بك رضا الطوبجى ، على بك وهبى ، يوسف بك صديق ، محمد بك رضا ، محمود بك سامى ، اسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلمى ، مصطفى بك فهمى ، عثمان بك غالب ، محمد فتحى حمدى ، حسن أفندى مظهر ، محمد أفندى

وعددوا سبا ليطبقوها في مصر ، وأخذ الخديو إسماعيل في تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسي الجديث .

ولم يكتف بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية ، فجاءت هذه البعثة إلى مصر سنة ١٨٦٤ برئاسة الكولونل مرشر (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل Rebatel ولارمي (باشا) Larmee ، وبولار Polard ، وألحق بهم الضابط دوبرناردي بك الذي كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا ، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شئونها .

ولما شرع إسماعيل في تنظيم التعليم الحربي نقل المدرسة الحربية التي كانت بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية ، وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي وعفا أثرها ، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمرينات الحربية وضرب النار ، ولأنه كان بها السراي الفخمة التي أنشأها عباس باشا الأول ، وتقدم الكلام عنها ، والمباني الملحقة بها ، وكانت تصلح مقرًا للمدارس والمعاهد والثكنات .

وجعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى « إدارة المدارس الحربية » .

وفيما يلي بيان المدارس الحربية التي أنشأها الخديو بالعباسية في أوائل حكمه :

١ – مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤ ، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ ، وتولى نظارتها محمد أمين بك ، ثم دي برناري بك ، ثم منصور أفندي حسن ، ثم محمد رضا أفندي ، ثم جعل لها مديري إدارة وهم على التعاقب : محمد كامل أفندي ، ثم إبراهيم عاصم أفندي ، ثم محمد صالح أفندي .

٢ – مدرسة السواري (الفرسان) ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسي بولار ثم ياور بك

٣ – مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ٢٨٠ ، تلميذ ، وتولى نظارتها الكولونل لارمي (باشا) ، وكان تلاميذها ينتخبون من بين طلبة مدرسة المهندسخانة ، وهذا يدلك على رقي المستوى العلمي لتلاميذها وخريجيها ، فلا غرو أن نبغ فيها وفي مدرسة أركان الحرب طائفة من أكفأ الضباط المصريين .

حكومة

٤ – مدرسة أركان الحرب بالعباسية ، أنشئت سنة [illegible] عدد

مرشر بك ، ثم شحاتة عيسى بك أحمد عريقي بمثات محمد [illegible] الحرب

نظارتها مرشر بك ، ثم لارمي باشا ، ويختار تلاميذها من [illegible] الخديو

أو المهندسخانة ، وتعد هي ومدرسة الطوبجية من أرقى [illegible] المتعددة

إسماعيل

٥ – مدرسة الخطرية بالقلعة ، أنشئت سنة ١٨٧٤ ، وهي [illegible] بحث عدد

والغرض منها تخريج صف الضباط ، وتولى نظارتها القائمقام [illegible]

المدرسة طويلا .

٦ – مدرسة صف الضباط أنشئت سنة ١٨٧٤ .

وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة في الاكتشافات الجغرافية بالسودان .

٧ – مدرسة الطب البيطري ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها المسيو ليفر ، ووكالتها إسماعيل راضي أفندي ، وأحيلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السواري) .

٨ و ٩ – مدرسة تلغراف الجيش ، ومدرسة الجيمناستيك .

وقد ألغيت هذه المدارس في أواخر عهد إسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتباك شئون الحكومة المالية ، واضطراب أحوالها الإدارية والسياسية ، وأنشئت بدلها مدرسة الحربية المستجدة في أبريل سنة ١٨٧٩ ، وعين لارمي باشا ناظراً لها ، وهي المدرسة الباقية إلى اليوم (١٩٣٢)

هيئة أركان حرب الجيش

[illegible] حرب الجيش

عهد الخديو إسماعيل إلى طائفة من الضباط الأمريكيين [illegible] الحربية بفرنسا ، المصري ، فتألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين [illegible] ومن الضباط الأمريكيين ، وجعل على رأسهم الكولونيل ([illegible]) Stone وهو ضابط أمريكي على جانب كبير من الكفاءة والخبرة ، غادر الولايات [illegible] بعد انتهاء الحرب

أهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديو إسماعيل فألحقه بالجيش ، وعهد إليه سنة ١٨٧٠ برآسة هيئة أركان حرب الجيش المصري ، لما آنس فيه من الكفاءة ، وأنعم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنرال استون باشا ، واضطلع بالمهمة التي اسندت إليه ، واستعان على إحياء هذه الهيئة وتنظيمها بطائفة من الضباط الوطنيين وبطائفة أخرى من الضباط الأمريكان ومن الميكانيكيين والمهندسين والخبراء في علم طبقات الأرض ، وانشيء في هذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريون وضباط أمريكان ممن قاموا بالرحلات الاكتشافية التي تكلمنا عنها في موضعها ، فجاءت أعمالهم غاية في الدقة والاحكام .

وانشئت مطبعة خاصة لهذه الهيئة ، لطبع رسومها وخرائطها ، ومكتبة قيمة تحوي كتباً قيّمة في الفنون الحربية وما إليها ، وألحق بها متحف حربي للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش ، وتقدمت هيئة أركان الحرب تقدماً مطرداً لم يوقفه سوى ارتباك الأحوال في أواخر عهد إسماعيل ، وقيام الثورة العرابية ، ثم الاحتلال الإنجليزي(٢)

ولكن من الحق أن نقول أن هيئة أركان الحرب في عهد إسماعيل كان ينقصها الاتصال المتين بالقيادة العامة للجيش ، فلم يتم التعاون بين الهيئتين ، بل دب النفور بينهما ، وأدى إليه في الغالب صلف ضباط القيادة العامة ومعظمهم من الشراكسة الذين كان من أخص صفاتهم الزهو والخيلاء ، وقد كان هذا النفور من أهم أسباب إخفاق الحملة المصرية في حرب الحبشة ، كما تقدم بيانه ، وكان انفصال هيئتي أركان الحرب والقيادة العامة من العوامل التي حالت دون وحدة الجيش ، وأفضت إلى ضعفه واضمحلاله .

الصحافة الحربية

وأنشئت صحيفتان لتثقيف عقول التلاميذ والضباط ، إحداهما تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصري) والأخرى (الجريدة العسكرية المصرية) ، تولى تحريرهما ضباط الجيش المصري ، وقد اطلعنا في دار الكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب ،

---

(٢) غادر استون باشا مصر نهائياً سنة ١٨٨٣ حين اعتزم الإنجليز وضع يدهم على الجيش المصري ، وتوفي في نيويورك سنة ١٨٨٧

وهي مجلة شهرية ، صدر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣) ، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات ، ورأيت مجموعتها كاملة لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٨ وبها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، ومحمد مختار افندي (باشا) ، وحماد بك عبد العاطي المدرس بالمدارس الحربية ، وعبد الرازق نظمي (بك) ، ومحمد بك عزي ، وعبد الله بك عزتي ، من ضباط أركان الحرب وغيرهم ، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة

ورأيت في العدد الصادر في ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٤) نبذة تاريخية عن الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها ، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله :

« وإذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى فليتذكر ضباط الجيش المصري غزوة سنة ١٨٠٧(٣) ، وليكن كل ضابط مصمماً على المدافعة والذب عن وطنه ، ولا يرتكب العار في التسليم كما ارتكبه أمين أغا ، بل يدافع بنفسه وبعساكره عن كل نقطة يتجه الهجوم إليها ، كما عمل علي بك السلانكلي الذي اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصده عن الوطن في غزو بندر رشيد رحمة الله عليه آمين »(٤) ، فهذه العبارة تدلك على الروح التي كانت تتمشى في مباحث المجلة ، وكيف كانت تبث في نفوس الضباط روح الواجب والقومية ، ومن المؤلم أن البلاد قد رزئت سنة ١٨٨٢ بغزوة انجليزية أخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذي ذكرتهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من الهزيمة والاحتلال

تجديد السلاح والمصانع الحربية

وصى الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٦ معامل الأسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الإبر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبة إلى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصري ورمم حصون الإسكندرية ، وجدد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز أرمسترنج ، وركبها في طوابي الثغور ، وخاصة الإسكندرية ، وهي المدافع التي كان لها عمل حسن أثناء ضرب الأسطول البريطاني مدينة الإسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر في بعض

---

(٣) راجع وقائع هذه الغزوة في (عصر محمد علي) ص ٦٠ وما بعدها (من الطبعة الأولى)

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصري العدد ٦ من المجلد الأول للسنة الثانية

أسطول لعدم تمرن رماتها على استعمالها بسبب سوء تدبير الحكومة والعربيين

وعنى إسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التى كانت منشأة من عهد محمد على . فنظم معمل حوض الرصد وأصلح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وصنع فيه الأدوات والآلات الحربية للجيش .

وشيد بطره معملاً لصنع لأسلحة المسدسة ، وآخر لصب المدافع وآخر للبنادق ، عدا معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلح مصانع البارود التى كانت موجودة بمصر حتى اشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأرسل سلطان مراكش بعثة من المغاربة ليتعلموا فى مصر صناعة البارود والطباعة .

وأصلح معمل الأسلحة بالإسكندرية ووسع نطاقه .

إنشاء ميدان للرماية والتمرينات العسكرية (البوليجون)

وفى عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحربية وضع لارمى بك تصميم إنشاء البوليجون للتمرين على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين فى بنائه بإشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام للتمرين ، منها قسم لتمرين ضباط المدفعية على الرمى بالمدافع ، وقسم لتمرين الضباط المشاة على الرمى بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعلم التلغرافات العسكرية وقسم للإشارة

إدخال النظام الألمانى

كان النظام الفرنسى هو المتبع فى الجيش المصرى ، ولكن الخديو إسماعيل اعتزم تحويله على أساليب الجيش الألمانى ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فأمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة ، ولكن ارتباك شؤون الحكومة المالية فى أواخر عهده حال دون الانفاق على الجيش وتجديده

إحصاء الجيش

ذكر إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٣١١) إحصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه يتبين أن عدده بلغ نحو ٩٠٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان الآتى

٨٤ ٥٣٠ جنود وصف ضباط
٠٢ ٦٦٨ ضباط وقواد
١،٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية
٨٩،٠٨٨

وهذا عدا الجيش المرابط فى السودان ، وقد بينا أنه بلغ ثلاثين ألفا ، أى أن تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان بلغ على عهد إسماعيل نحو ١٢٠،٠٠٠ مقاتل .

افتقار الجيش إلى قائد عظيم

رأيت مما تقدم تطور حالة الجيش فى عهد إسماعيل وعلمت ما أصابه من الضعف فى السنوات الأخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية التى كانت نتيجة لقروض الخديو ، وإلى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ، وثمة سبب جوهرى لهذا الضعف ، يتراءى فى عصر إسماعيل عامة ، وهو عجز القيادة العامة ، فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع إبراهيم باشا فى كفاءته وعبقريته ، ويبعث فى نفوس الجند روح البطولة والمجد والبسالة ، ولم يكن إسماعيل على غرار أبيه فى النبوغ والعبقرية ، ولا ورث عنه صفاته الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواده من يسد الفراغ الذى كان يملؤه البطل إبراهيم ، وغنى عن البيان أن حرمان الجيش مثل القائد العظيم ومثل سليمان باشا الفرنساوى أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحربى فى معارك مصر ولبنان وسوريا والأناضول ، كان العامل الأول فيما أصابه من الضعف

وقد ظهر الضعف فى حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ، كما بيناه فى الفصل السابق ، وتبين أن أهم أسباب الهزيمة فى تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة

موضع دهشة المصريين والأجانب على السواء ، فقد كانوا يعتقدون فى الجيش المصرى ، من عظمة المكانة التى نالها فى حروب محمد على أو فى حرب القرم ، ولكن حرب الحبشة هدمت مكانته ، وكشفت عن عوامل الضعف التى أصابت الجيش على مر السنين فى عهد خلفاء محمد على .

وقد زاد فى ضعفه ارتباك الحكومة المالى ، وتدخل الدول فى شؤونها ، فإن هذا الارتباك أفضى إلى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الأولى تخفيض عدد الجيش ، توفيراً فى النفقات وسداً لعجز الميزانية ، فقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع ، وتسريح عدد كبير من الجند ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتتفاقم ، حتى ظهرت نتائجها مرة أخرى فى وقائع الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ ، تلك الوقائع التى تعد صفحة محزنة فى تاريخ مصر الحربى .

* * *

الفصل السابع

البحرية

تولى الخديو إسماعيل الحكم والبحرية المصرية فى حالة سيئة من التأخر والضعف ، فقد بدأ اضمحلالها كما قدمنا فى عهد عباس ، ولم يعمل سعيد باشا على إحيائها ، لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا .

فأخذ إسماعيل فى أوائل حكمه يعنى بتجديد الأسطول ، فبعث النشاط فى ترسانة الإسكندرية (دار الصناعة) ، وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الإسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعدد ، فعاد إليها نشاطها الذى كان لها فى عهد محمد على .

وأنشىء بها بعض السفن الحربية فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الأول منها سميت البارجة « لطيف » وتم فى عهد الثانى بناء البارجة « الصاعقة » .

وأوصى الخديو بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا

وجدّد المدرسة البحرية بالإسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسين الأكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد بنظارتها إلى ضابط من ضباط البحرية الانجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفء وهو عبد الرازق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده[1] . ومن كبار أساتذتها سليمان قبودان حلاوه[2] من مشاهير ضباط البحرية ، وتنتخب تلاميذ هذه المدرسة من نبهاء طلبة المدارس الأميرية الابتدائية ، وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية التى تدرس فى المدارس البحرية الأوروبية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واختارت الحكومة طائفة من خريجيها

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٥٩٨ - ٢١ مارس سنة ١٨٧٥

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٤١ - ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢

وأوفدتهم إلى انجلترا لإتمام العلوم البحرية، منهم اثنان لتعلم فن إنشاء السفن، وهما حسن فريد أفندي، وحشمت أفندي، واثنان لتعلم الميكانيكا البحرية، وهما محمد أنيس أفندي، ومحمد عارف أفندي، ولما عادوا إلى مصر التحقوا بدار الصناعة بالإسكندرية. ومن هذه المدرسة تخرج إسماعيل باشا سرهنك، مؤلف كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار. وناظر المدرسة الحربية المستجدة.

بذل الخديو إسماعيل كما ترى جهوداً ممدوحة في إحياء البحرية المصرية، ولكن عقبات جمة اعترضت في سبيله. ذلك أن الحكومة التركية رأت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة، وعلمت بأن إسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات في فرنسا، ومدرعتين أخريين في النمسا، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها، وأرسل الخديو سنة ١٨٦٨ طوائفها من الضباط والبحارة ليتسلموها، فاعترضت على تسليمها، وتذرعت بأن الفرمانات لا تبيح لمصر إنشاء السفن الحربية المدرعة، فانتهى الخلاف بأن ابتاعتها تركيا لنفسها

وكان هذا الاعتراض بإيعاز من انجلترا التي يسوءها أن تجدد مصر قوتها البحرية. فاستخدمت نفوذها لدى الآستانة لتحول دون هذا التجديد، وقد وقفت انجلترا هذا الموقف ذاته في عهد عباس ثم في عهد سعيد. وكانت بذلك تعمل على خطة رسمتها لنفسها منذ أنشأ محمد علي الكبير الأسطول المصري، وهي إضعاف قوة مصر البحرية، لكي تأمن على سيادتها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر

خدمات الأسطول

ورغم ما اعترض الأسطول من العقبات، فإنه أدى خدمات لا تنكر، فقد اشترك في عدة حملات حربية على ظهر البحار، كحملة كريت، وحرب البلقان، فكانت سفنه تنقل الجنود المصرية إلى الجهات التي تقصدها. وكانت صلة الاتصال بين مصر وثغورها وأملاكها المرمية على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وقد نقلت سفنه التجريدات العسكرية التي أرسلتها مصر إلى تلك الثغور البعيدة، كمصوع، وزيلع، وبربرة، ورأس جردفون (جردفوى)، كما أقلت الحملة التي أنفذتها إلى بلاد الصومال، ووصلت إلى نهر قسمايو (نهر إسماعيل) شمالي زنجبار على شاطئ المحيط الهندي

وصلت مصر سفنه حربية عديدة إلى أوروبه، منطلقة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق الأوقيانوس الأعظم ورأس الرجاء الصالح قبل أن تشق قناة السويس

إحصاء الأسطول

أحصى علامة علي باشا مبارك[1] الأسطول المصري في عهد الخديو إسماعيل، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية، وهي محروسة مصر، حربيه، محمد علي، شير جهاد، لطيف، دنقله، نصر، سنه، خرطوم، سيوط، وثلاثة مراكب أخرى صغيرة

ولإسماعيل باشا سرهنك إحصاء آخر، فقد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية، وذكر (ص ٢٨٧) أسماءها مع ثلاث بواخر حربية أخرى مخصصة لركوب الخديو، وهذا بيانها:

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ – محمد علي (فرقاطة)	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ – شير جهاد	تريستا	خشب	٢٨
٣ – لطيف كورفت	الإسكندرية	خشب	٦
٤ – الخرطوم (مدفعيه)	انجلترا	خشب	٥
٥ – دنقله (مدرعة)	انجلترا	مدرع	٨
٦ – الصاعقة (كورفت)	الإسكندرية	خشب	٨
٧ – سنار (مدفعية)	انجلترا	خشب	٧
٨ – برج نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ – برج نمرة ٢	فرنسا	مدرع	٢

ثلاث بواخر حربية لركوب الخديو

١٠ – محروسة	لندن	حديد	٨
١١ – مصر	طولون (فرنسا)	حديد	٦
١٢ – الغربية	طولون (فرنسا)	حديد	٤

---

[1] في الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٣

طرادات وسفن للنقل

اسم الباخرة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مداخنها
١٣ الطور	انجلترا	حديد	٢
١٤ أسوان	انجلترا	خشب	٤
١٥ شبين	جنوا	خشب	٤
١٦ أسيوط	الإسكندرية	خشب	٢
١٧ الجعفرية	انجلترا	حديد	٣
١٨ سمنود	انجلترا	خشب	٢
١٩ نور الهدى	انجلترا	حديد	٢
٢٠ – مجير	انجلترا	حديد	٢
٢١ محمى	انجلترا	حديد	٢

فمن هذا الإحصاء ومن مقارنته بإحصاء الأسطول الضخم الذي كان لمصر في عهد محمد علي (عصر محمد علي ص ٤٣٢) يتبين لك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم إذا قارنت هذين الإحصاءين بحالة أسطول مصر الآن – ١٩٣٢ – (أي بعد الاحتلال الإنجليزي) وبحثت عبثاً أين هو الأسطول وبم يتألف؟ وماذا يعمل؟ يعروك الدهش والأسى والألم، لانعدام قوة مصر البحرية في عهد الاحتلال

الأسطول التجاري

لما وجد إسماعيل ما يعترضه من عقبات في سبيل تجديد الأسطول الحربي، وجه عنايته إلى الأسطول التجاري، فأنشأ شركة للملاحة التجارية، سميت الشركة العزيزية، نسبة إلى السلطان عبد العزيز، أعد بواخرها لنقل المسافرين ونقل المتاجر إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التي أنشئت في عهد سعيد باشا، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعاً على أسهم ليشترك الأفراد فيها

وكتب جماعة من سراة المصريين في رأس مالها، وخصص لها الخديو سبع بواخر كانت موجودة من قبل، وأوصى بإنشاء بواخر جديدة في انجلترا، وجعل على قيادة هذه البواخر ضباط البحرية القدماء الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله، وكذلك بحارته، وابتاعت وزارة البحرية عدا ذلك عدة سفن شراعية كبيرة لنقل الأخشاب اللازمة لبواخر البحرية والحربية من بلاد الأناضول، فكان الأسطول التجاري المصري بنوعيه من البواخر والسفن الشراعية بالغاً درجة كبرى من التقدم

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير في نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر، وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى. وزاحمت شركات الملاحة الأجنبية في هذا الصدد، ونجحت في عملها، ونمت إيراداتها، وربحت الأرباح الوفيرة، ثم ابتاع الخديو إسماعيل أسهمها، احتكاراً لأرباحها، وحولها إلى إدارة من إدارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية)، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها، وصار لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة[4] تجوب البحار رافعة العلم المصري، وتنقل الناس والمتاجر والبريد بين ثغور مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط في سوريا والأناضول وبلاد اليونان، وشواطئ الدردنيل والبوسفور، وثغور البحر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة، وتجتاز بوغاز باب المندب إلى زيلع وبربرة.

وقد ألحق بهذه المصلحة الحوض العائم الذي أنشئ بميناء الإسكندرية، وخصص لبواخرها معمل (فابريقة) في ترسانة الإسكندرية للقيام بما تحتاجه من الإصلاح.

وبقيت هذه الإدارة الكبيرة ببواخرها وملحقاتها كالحوض وفابريقة الترسانة ملكاً للحكومة، إلى أن باعتها في عهد الاحتلال، إلى شركة إنجليزية، بأبخس الأثمان، فانتقلت تلك منشآت البحرية العظيمة وهذه الثروة القومية الضخمة، إلى أيدي الإنجليز، وأنزل العلم المصري عن بواخرها، واستبدل به العلم البريطاني، فكانت نكبة، وكان خسران.

---

[4] هي، الرحمانية، [illegible] الفيوم البحيرة الشرقية الدقهلية طنطا شندي [illegible] دسوق كرديب، حمزة المنيا خصوصية مصر المنصورة [illegible] المحلة منصور الزقازيق، الحجاز الحديدة ينبع القصير، سواكن مصوع (كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ – ص ٤٧)

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الإصلاح في ميناء السويس ، وإصلاح ميناء الإسكندرية ، وإنشاء الفنارات البحرية ، هي من أعمال العمران التي تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها في سياق الحديث عن البحرية في عهد إسماعيل

شرع سعيد باشا سنة ١٨٥٦ في إنشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة إيواء السفن ، فجعل من الثغر مرفأين ، أحدهما يسمى ميناء إبراهيم ، جعل للبواخر الحربية ، وجعل الثاني للسفن التجارية ، وأقيم حاجز من الأحجار لصد الأمواج عن المينائين ، وبه البوغاز لدخول السفن وخروجها

وشرع في إقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل في إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت في عهد إسماعيل ، وبلغت نفقات الحوض والجسر الذي يصله بميناء السويس ٢٤٠,٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية في عهد الاحتلال إلى الشركة الإنجليزية التي اشترت وابورات البوستة الخديوية

إصلاح ميناء الإسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحرية في الإسكندرية شرع إسماعيل في توسيع مينائها وإصلاحه ، واعتزم إنفاذ هذا الإصلاح بعدما أنشئت بورسعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام ، فقد خشي أن تزاحم بورسعيد الإسكندرية ، وتتحول إليها حركة التجارة الخارجية ، فاعتزم توسيع ميناء الإسكندرية لتجتذب إليها السفن في غدوها ورواحها

فأول ما بدأ به إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن ، بدل الحوض المبني بالحجر من عهد محمد علي ، والذي صار مع الزمن لا يفي بإصلاح السفن ، وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨م)

ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذي يقي الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الراسية به في مأمن من العواصف ، ولا يزال قائماً إلى اليوم ، وهو جسر من الدبش والأحجار الضخمة

والصخور ، ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين إلى جهة العجمي ، وبه البوغاز لمرور السفن منه ، وأنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة في داخل الميناء وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التي اقتضت جهوداً كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات . وقد عهد بها الخديو إلى شركة انجليزية تدعى شركة جرينفلد ، وبدء في العمل سنة ١٨٧١ . ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩

الفنارات

وأنشأ عدة فنارات في ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية .

وهذا بيانها :

في البحر الأبيض المتوسط : فنار البرلس ، أنشيء سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط (تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بورسعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمي سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ٨٧٦ ، وفنار القباري سنة ١٨٧٧ ، أما فنار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد علي .

في البحر الأحمر : وكان بالبحر الأحمر من الفنارات قبل عصر إسماعيل فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبي السويس ، وفنار الأشرفي ، وفنار أبي كيزان ، فرأى الخديو إسماعيل في هذه الفنارات لا تكفي لإرشاد السفن في البحر الأحمر ، لكثرة صخوره ومخاطره ، فأنشأ فنارات أخرى وهي .

فنار السويس . وفنار رأس الغريب جنوبي رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين الشمالية ، وفنار جزيرة شدوان الذي تم سنة ١٨٨٩ ، وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز[*]

وأنشأ في خليج عدن بالأقيانوس الهندى فنار بريم السابق الكلام عنه ، وأمر بإقامة فنار في جردفون (جردفوي) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم يبن كما تقدم بيانه (ص ١٦٥)

* * *

---

[*] كانت مدينة (الوجه) تابعه لحكومة مصر

الفصل الثامن

حروب مصر فى عهد إسماعيل

خاضت مصر فى عهد إسماعيل عدة حروب تختلف فى أسبابها وبواعثها ، ومعظمها مما دعته تركيا إلى خوض غمارها بمساعدة جيشها ، ما خلا حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديو إسماعيل ، لبسط نفوذ مصر فى باطن إفريقية وشرقيها ، والوصول إلى الحدود الطبيعية لوادى النيل ، وحرب الحبشة التى كانت حرباً عقيماً من كل الوجوه

ولم يكن للحروب التى خاضتها مصر تلبية لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن إسماعيل كان يتخذها فى الجملة ، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فإنها كانت ميادين لمران الجيش المصرى وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والإفادة من تجاربه ووقائعه

١ – إخماد ثورة العسير

فى أوائل عهد إسماعيل ثار الأمير محمد بن عائض أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقصد الاستيلاء على تهامة اليمن ، فحاربه متصرف الحديدة ، وصده فى بعض المواقع ، ولكن الأمير استفحل أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديو إسماعيل ، وطلب إليه أن يمد جيشاً مصرياً لإخماد الثورة

فلبى إسماعيل طلبه ، وأنفذ إلى عسير قوة من ثلاث أورط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأميرالاى إسماعيل صادق بك ، فلما وصل إلى ثغر جدة ، اتفق ووالى على تجريد الحملة المصرية صحبة الجنود العثمانية على الثوار من جهة (قنفده) فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عائض طاعته ، ثم عادت الحملة المصرية ظافرة مشكورة على ما أبلته فى القتال ، وأنعم الخديو على قائدها برتبة اللواء مكافأة له على ما أبداه من الشجاعة والكفاءة فى القيادة ، وأرسل السلطان إلى الخديو كتاب شكر وثناء

على ما بدله من الحمية والولاء ، وتوسط إسماعيل لدى السلطان عبد العزيز في العفو عن الأمير الثائر ، فقبل شفاعته وعفا عنه وأقره في إمارته

٢ — حرب كريت

قامت سنة ١٨٦١ ثورة في ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار . ولما تولى إسماعيل عرش مصر طلبت إليه حكومة الآستانة أن يعزز جيوشها في الروملي بجيش مصري حتى لا يقوى ساعد الثوار ولا تزداد اضطراباتهم في تلك الجهات ، فأعد إسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء على غالب باشا ، فوصلت الحملة المصرية إلى الآستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق (سلانيك) إلى (مناستر) ورابطت هناك .

ثم نشبت ثورة عامة في جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها إذ كانت جنودها موزعين في ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية في الجزيرة على مقاومة الثورة ، فاستنجدت بمصر ، وأرسل السلطان عبد العزيز إلى الخديو يطلب إليه إمداده ببعض فرق الجيش المصري إلى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبى الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل ونيف ، عقد لواءه للفريق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصري المشهورين ، يعاونه اللواء إسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصري في هذه الحرب راشد بك حسني (باشا) الذي عظم شأنه في حوادث الثورة العرابية ، وأبلى البلاء الحسن في واقعة القصاصين ، ومحمود سامي بك البارودي (باشا) الذي صار من كبار زعماء الحركة العرابية ، وفي هذه الحرب كانت نشأة البارودي الحربية .

أقلعت الحملة إلى جزيرة كريت ، تقلها عمارة من الأسطول المصري مؤلفة من عشر سفن ، معقود لواؤها للأميرال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التي كانت مرابطة في (مناستر) وجاءت بها إلى الجزيرة .

نزلت الحملة في كريت ، واشتبكت والثوار في جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء إسماعيل صادق باشا جرحاً بليغاً نقل على أثره إلى مصر ، وتبدلت القيادة العامة للجيش المصري ، إذ استدعي شاهين باشا إلى مصر وعين بدله الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية

وقتئذ كما تقدم بيانه (ص ٨٣)

و[illegible] في [illegible] و(أرقادي) ، وكانت من أعظم وقائع الحرب ، هزم فيها الثوار هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاء حسناً في القتال ، وبدوا من الشجاعة والإقدام ما خلد ذكرهم ، وكان راشد بك حسني وآلايه أكثرهم إقداماً ، فأنعم عليه الخديو برتبة اللواء ، وأرسل الجيش المصري كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم عبد الله باشا فكري ، يثني فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقوادهم ، ويسجل لهم ما أبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة

واستمرت الحرب سجالاً حتى أخمدت الثورة ، فعاد الجيش المصري إلى مصر ، وقوبل بمظاهر الحفاوة البالغة ، وأقام الخديو لأفراده الولائم تكريماً لهم على حسن بلائهم في القتال

٣ — حرب البلقان

(١٨٧٦ — ١٨٧٧)

كانت الروسيا لا تفتأ تحرض إمارات البلقان على الانتقاض على تركيا ، لكي تمهد لنفسها الدخول في حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها في إخماد الثورات المحلية ، فمن ذلك أنها بذرت بذور الثورة في تلك البلاد حتى شب أوارها في الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت إلى البوسنة ، وقامت الصرب تشد أزر الثوار

فطلبت تركيا من الخديو إسماعيل إمدادها بنجدة من الجيش المصري ، فأعد الخديو قوة من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسني ، ومن ضباطها محمود بك فهمي (باشا) الذي صار فيما بعد من زعماء الثورة العرابية ووزرائها ، وصاحب كتاب البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر .

أقلعت الحملة إلى الآستانة ، ثم قصدت إلى حدود الصرب ، فاشتركت والجيش العثماني في قتال الصربيين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة وبسالة في المواقع التي خاضتها . مما دعا الخديو إلى الإنعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية

وفي غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثاني (٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦) ، بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود المصريون

[illegible] وقعت الحرب بين تركيا والصرب ثم تجدد النزاع بين تركيا وروسيا ، ونشبت الحرب بين الدولتين ، وهي الحرب المعروفة بحرب البلقان (أبريل سنة ١٨٧٧) . فطلبت تركيا من الخديو إمدادها في هذه الحرب ، ولكن إسماعيل [illegible] الحكومة المالية ، وعجزها عن [illegible] بمدد ، فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذراً

وكانت مشاكل الديون قد جعلت إسماعيل هدفاً لغضب الدائنين الأجانب ، فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشد أزرهم ، وتهدد الخديو ، فخشي عاقبة مخالفته تركيا في تلك الظروف العصيبة ، فاعتزم إجابة طلبها

وكانت خزانة الحكومة في حالة سيئة ، فاستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها عشرة في المائة من مجموع الضرائب ، لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديو جيشاً مؤلفاً من نحو اثني عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، وبعد أن تمت معدات الحملة أقلعت بهم السفن المصرية إلى الآستانة ومنها إلى (وارنه) أحد ثغور البحر الأسود

وقد أبلى الجنود المصريون في هذه الحرب بلاء حسناً واشتركوا في القتال إلى أن وضعت الحرب أوزارها في مارس سنة ١٨٧٨ ، ثم عادوا إلى مصر.

٤ و ٥ — حروب السودان والحبشة

كانت الحملات التي جردها الخديو إسماعيل لإتمام فتح السودان خير حروب مصر في عهده ، وأكثرها نفعاً وبركة . وهي تعد تكملة لحروب مصر في عهد محمد علي ، وقد وفينا الكلام عنها في الفصل الخامس ، كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبشة

* * *

الفصل التاسع

التعليم والنهضة العلمية والأدبية

نال التعليم والنهضة العلمية نصيباً عظيماً من جهود إسماعيل ، فقد ولي الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها محمد علي مقفلة ، ولم يكن باقياً منها سوى مدرسة الطب والصيدلة ومدرسة الولادة (القابلات) ، ومدرسة حربية ، ومدرسة ثانوية ، وأخرى ابتدائية ، ومدرسة البحرية بالإسكندرية ، فبعث النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف) ، وعهد برئاسته إلى إبراهيم أدهم باشا الذي تولاها في عهد محمد علي ، ووجه همته إلى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وفروعها(١)

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التي تكلمنا عنها في الفصل السادس.

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عالية ، ازدان بها تاريخه ، وكان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية التي ظهرت في عصره ، وفي العصور التي تلته ، وإليك بيان هذه المدارس

---

(١) أهم مراجع هذا الفصل عن معاهد التعليم : الوقائع المصرية ، الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ، التعليم في مصر لأمين سامي باشا ، التعليم العام في مصر ليعقوب أرتين باشا ، التعليم العام في مصر للمسيو دوريك

مدرسة المهندسخانة

هى مدرسة (الرى والعمارة) وحيث المهندسخانة ، أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦ بسراى الزعفران ، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ إلى سراى درب الجماميز (ثم إلى الجيزة) . وكان أول ناظر لها إسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ثم محمود بك (باشا) الفلكى ثم عاد إليها إسماعيل بك الفلكى

مدرسة الحقوق

هى أعظم المعاهد العلمية التى أسسها إسماعيل ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها مدرسة « الإدارة والألسن » ، وقد حلت محل مدرسة الألسن التى أقفلت فى عهد عباس ، وسميت « مدرسة الحقوق » منذ سنة ١٨٨٦ ، كان أول ناظر لها المسيو فيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشترعين ، وبقى يتولى نظارتها أربعاً وعشرين سنة إلى عام ١٨٩١ .

وفى هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا فى عصر إسماعيل وما يليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد

مدرسة دار العلوم

أسست سنة ١٨٧٢ ، والغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الأزهر ، وتولى نظارتها على التعاقب فى عهد إسماعيل : حامد افندى نيازى ، ثم محمود افندى عزوى ، ثم على بك فهمى رفاعه ، ثم حامد افندى نيازى ، وقد أدت المهمة التى أنشئت من أجلها ، وكان لها فضل كبير على نهضة اللغة والآداب العربية فى مصر ، وسنعود إليها فى ترجمة مؤسسها على مبارك باشا

مدرسة الطب والولادة

وارتقت مدرسة الطب فى عهد إسماعيل ، واتسع نطاقها ، وخرجت جماعة من أعلام الطب فى مصر ، وتولى نظارتها على التعاقب : برجيير بك Burguere Bey ، ثم حافظ افندى محمد ، ثم محمد على بك (باشا) البقلى ، ثم محمد الشافعى بك ، ثم محمد على باشا البقلى ، ثم جلياردو بك .

مدارس البنات

بدأ إنشاء مدارس البنات فى مصر على عهد إسماعيل ، وهى ميزة تشهد له بالفضل فى نهضة الأمة ، فقد كان التعليم النسوى يعتبر من قبل فى حكم العدم ، إذ لم تكن فى البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة ، ولم يكن يتعلم فيها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، أما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن ، وكان الجهل مخيماً عليهن ، اللهم إلا من كن يتعلمن فى بيوت آبائهن وأهلهن ، وقليل أولئك .

فى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات ، أنشأتها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديو إسماعيل ، وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة[2] ، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤ اربعمائة تلميذة ، يتعلمن مجاناً ، فضلا عن الإنفاق على مأكلهن وملبسهن ويتعلمن القراءة ، والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، والحساب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والتطريز والنسيج ، وغير ذلك من الصناعات[3] وتولى نظارتها حسن أفندى صالح ، ثم مدام روزه وأسست مدرسة أخرى للبنات فى القربية بالقاهرة سنة ١٨٧٤ ، وألغيت سنة ١٨٧٨ .

---

[2] الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٨١ ، وجاء فى الوقائع المصرية العدد ٥١٩ (٥ أغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة

[3] الوقائع المصرية العدد ٥٧٦ ، ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤

المدارس الصناعية

وأسس إسماعيل من المدارس الصناعية :

مدرسة الفنون والصنائع ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) أسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وسواقوها والموظفون الفنيون في مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها مهندسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية

وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey . ثم عيسى شاهين أفندي ، ثم عاد لنظارتها جيجون بك . ومن كبار أساتذتها إسماعيل بك كبير مهندسي العنابر بالسكك الحديدية

ويشتمل برنامجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العملية .

ففي السنة الأولى : يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ، والرسم ، وفن العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والإنجليزية .

وفي السنة الثانية : تدرس أنواع الرسم ، والمثلثات ، والطبيعة وتطبيقها على الصناعات والميكانيكا ، والجغرافية ، والمحاسبة .

وفي السنة الثالثة : تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ، ورسم الآلات البخارية وتركيبها .

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهر التمرينات العملية في خمسة معامل .

أولها : معمل تركيب الآلات وتصليحها .

والثاني : معمل الحدادة

والثالث : المسبك الذي كان يعرف بالدوكمخانة

والرابع : معمل الخراطين والنجارين والعينات التي يجب صبها

والخامس : معمل قدور القزانات الحديد والنحاس ، وفي المدرسة قسم لتعلم التلوين بالألوان المختلفة[1]

---

[1] س ، الوقائع المصرية عدد ٣٤١ (١٩ يناير سنة ١٨٧٠)

١ – مدرسة التلغراف أسست سنة ١٨٦٨ ، وألغيت سنة ١٨٦٩ ، ثم ألحقت بمدرسة عموم ومصانع

٢ – فرقة النقاشين أسست سنة ١٨٦٩ ، وألغيت سنة ١٨٧١

٣ – فرقة عمليات مرور أسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٢ ، وفرقة أخرى أسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

١ – مدرسة المساحة والمحاسبة ، أسست سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها نظار مدرسة المهندسخانة

٢ – مدرسة اللسان المصري القديم (اللغة الهيروغليفية) أسست سنة ١٨٦٩ وتولى نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brugsch العالم الألماني في الآثار المصرية وألغيت سنة ١٨٧٦ .

وأشهر من نبغ من خريجي هذه المدرسة العالم الأثري الكبير أحمد كمال باشا .

٣ – فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ .

٤ – مدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ .

٥ – مدرسة العميان والخرس ، للبنين والبنات ، أسست سنة ١٨٧٥ ، وتولى نظارتها محمد أنسي بك نجل عبد الله أبو السعود أفندي .

المدارس الثانوية

وأنشأ من المدارس الثانوية .

١ – المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت إلى درب الجماميز سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالخديوية

٢ – مدرسة رأس التين بالإسكندرية ، أسست سنة ١٨٦٣ .

المدارس الابتدائية

قلنا إن معظم المدارس الابتدائية التى أنشأها محمد على قد ألغيت فى أواخر عهده ، ولم يجدد بعضها فى عهد عباس وسعيد ، فبذل إسماعيل جهوداً كبيرة فى إنشاء المدارس الابتدائية فى القاهرة وفى مختلف العواصم .

ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المدارس إلى شريف باشا ، ثم إلى على باشا مبارك ، الذى فكر فى تحويل التعليم فى الكتاتيب إلى التعليم الابتدائى النظامى ، وكان عدد الكتاتيب وقتئذ نحو خمسة آلاف كتاب .

وهاك بيان ما أنشأه إسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المبتديان بالعباسية أنشئت سنة ١٨٦٣ ثم نقلت إلى الناصرية ثم إلى الجيزة

مدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية أسست سنة ١٨٦٣

مدرسة طنطا (بنين)	أسست سنة ١٨٦٨
مدرسة أسيوط	أسست سنة ١٨٦٨
مدرسة بنى سويف	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة المنيا	أسست سنة ١٨٧٣
مدرسة القربية	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة الجمالية	أسست سنة ١٨٧٣
مدرسة الحسينية	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة باب الشعرية	أسست سنة ١٨٧٤
مدرسة عابدين	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة مصر القديمة	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة أبو العلا ببولاق (عباس)	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة السيدة زينب (محمد على)	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة شيخون	أسست سنة ١٨٧٣

مدرسة العقادين	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة [illegible]	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة الإمام الشافعى	أسست سنة ١٨٧٩
مدرسة الحبانية	أسست سنة ١٨٧٢
مدرسة رشيد	أسست سنة ١٨٧٦
مدرسة الفشن	أسست سنة ١٨٧٩

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة (الصليبة) ، وقد كانت مكتباً أنشأه والده عباس باشا الأول ، وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ، والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سيد أحمد ، ومدرسة حافظ باشا بالإسكندرية ، ومدرسة البوصيرى ، ومدرسة راتب باشا بالإسكندرية أيضاً .

ومدرسة (خليل أغا) ، أنشأها كبير أغاوات والدة إسماعيل ، قرب المسجد الحسينى بالقاهرة ، ثم انتقلت أخيراً إلى شارع الأمير فاروق .

ومدرسة القبة التى أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة

الحفلات المدرسية

كان الخديو إسماعيل شديد الميل إلى إقامة الحفلات المدرسية التى تختم بها الامتحانات العامة فى المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظهر فخم فى ذلك العصر ، إذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على المتقدمين من الناجحين ويلقى فيها الأساتذة ونوابغ الطلبة الخطب والقصائد . فكانت هذه الحفلات من عوامل النهضة العلمية . ويدلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية وتنشر كل ما يلقى فيها من الخطب والقصائد ، تسجيلا لها ، وتعظيما لقائليها ، وتجد فى (الوقائع المصرية) بيانات مستفيضة عن هذه الحفلات وأسماء من يحضرونها من رجال الدولة وأعلام الأدب والعلم فى ذلك العصر ، وأسماء الأساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها

الأزهـر

ظل الأزهر الجامعة الإسلامية التى تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان التعليم فيه يتبع الأساليب القديمة التى درج عليها من سالف العصور .

وقد بدأت روح الإصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخته سنة ١٨٧١ .

وباكورة الإصلاح فيه إنشاء نظام الامتحانات لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ فقد كان التدريس فى الأزهر خلوًا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظامًا لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برآسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء اثنان من الشافعية وهما الشيخ خليفة الصفتى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، واثنان من المالكية وهما الشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى ، واثنان من الحنفية ، وهما الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى .

ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم وإعطاء الناجحين منهم إجازة العالمية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الأزهر .

وجاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ فى الأزهر روح النهضة ، وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج الأزهر

البعثات

أعاد إسماعيل عهد البعثات التى ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة إلى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالبا ، وهو كما ترى أقل من عدد البعثات فى عصر محمد على

وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة فى باريس بدل المدرسة التى أنشأها محمد على لهذا الغرض وأقفلت فى أواخر عهده كما بيناه فى « عصر محمد على » (٥٢) ، لكن المدرسة التى أنشأها إسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل فى هذه النهضة إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس .

فصار لهم فى عهد إسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطريركية الكبرى ، ومدرسة مصر القديمة ، وأخرى بالجيزة ومدرستان بالإسكندرية ومدرسة إكليركية لتعليم اللاهوت واللغات القبطية والطقوس الدينية ، ونشطوا فى تعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين ، واحدة بحارة السقايين ، وأخرى بالأزبكية .

وقد منح إسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جمة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر ، ليخصص ريعها على التعليم فيها ، فكان هذا الريع يفى بمعظم ما ينفق على هذه المدارس .

المدارس الأوروبية

كثر عدد المدارس الأوروبية التى فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فبلغ عددها فى عهد إسماعيل ٧٠ مدرسة(٥) ، ولم تنتشر فى أى عهد بمثل ما كثرت فى عهده

وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفى الحكومة ، وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية ، وميولهم إليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية .

---

(٥) كتاب [illegible] [illegible] ١٧٣ ص ٢٥٧

وزارة المعارف

[illegible] إسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغي في عهد سعيد

ولما تقدمت نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف سراى الأمير فاضل بدرب الجماميز وهي سراى فخمة وسيعة [illegible] وبعض المعاهد العلمية ، كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق ، ومدرسة المساحة والمحاسبة ، والمدرسة التجهيزية ، ودار الكتب ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، ومدرج المحاضرات (الامفيتياترو) ، فصارت بمنزلة الجامعة المصرية ، وكان اختيار هذه السراى إجابة لاقتراح العلامة علي باشا مبارك حينما ولي وزارة المعارف

وتعاقب على وزارة المعارف في عهد إسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم

إبراهيم أدهم باشا (يناير – يوليه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يوليه سنة ١٨٦٣ – أبريل سنة ١٨٦٨) . علي مبارك باشا (ابريل سنة ١٨٦٨ – سبتمبر ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ – مايو سنة ١٨٧١) . علي مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ – أغسطس سنة ١٨٧٢) . الأمير حسين كامل باشا (أغسطس سنة ١٨٧٢ – أغسطس سنة ١٨٧٣) مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٨٧٣ – مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ – سبتمبر سنة ١٨٧٤) . الأمير طوسون باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٤ – أغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ – يونيه سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يونيه سنة ١٨٧٦ – أكتوبر سنة ١٨٧٧) . إسماعيل باشا أيوب (أكتوبر سنة ١٨٧٧ - أغسطس سنة ١٨٧٨) . علي باشا مبارك (أغسطس سنة ١٨٧٨ – ابريل سنة ١٨٧٩) محمد ثابت باشا (ابريل سنة ١٨٧٩ يوليه سنة ١٨٧٩)

ميزانية التعليم

كان إسماعيل ينفق بسخاء على التعليم ، فقد كانت ميزانية المعارف في عهد سعيد لا تتجاوز ستة آلاف جنيه (١) ، فزادها إسماعيل إلى أربعين ألفاً ، ثم بلغت كما ذكر علي باشا مبارك (٢)

---

(١) ادوين دي ليون : مصر الخديو ص ١٦٢

(٢) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٨٩

علي باشا مبارك
زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر إسماعيل
(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

٧٥ جنيه ، منها ٤٨٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و ٢٠٠٠٠ من إيراد مـــ الوادى ، و ٧٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم فى معظم المدارس مجانياً ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف فى أواخر عهد إسماعيل بسبب الارتباكات المالية التى سبب قروضه ، فهبطت إلى ٢٠٠٠٠ جنيه

على باشا مبارك

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر إسماعيل

(١٨٢٤ – ١٨٩٣)

إن الحديث عن تقدم التعليم فى عهد إسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فإن اسمه مقرون بهذه النهضة المباركة .

فى تاريخنا القومى شخصيات مجيدة ، تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ فى تطورها ، وتوجيهها إلى المثل العليا فى شتى مظاهرها ، من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية .

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائماً بالخير ، ونخصص لها ما هى جديرة به من البحث والدرس ، ولا غرو فالشخصيات المجيدة فى تاريخ مصر هى كالكواكب النيّرة فى سماء النهضة القومية .

وقد بذلنا ما استطعنا من جهد لدراسة تلك الشخصيات فى الأجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الحركة القومية ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية فى عصر إسماعيل ، نرى حقًّا علينا أن نفى ببعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبها النابض ، ورأسها المفكّر ، وهو من الشخصيات الفذة التى سطعت سطوعاً قوياً فى عهد إسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التى تلته ، إلى عصرنا الحاضر ، وإلى ما شاء الله

نشأته الأولى [٨]

ولد المترجم فى برنبال الجديدة ، من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤م (١٢٣٩ هـ) ، أبوه الشيخ مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى من أعيان هذه الناحية ، وجده الأعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح ، من أعمال مركز المنصورة ، ولفشل كبير حصل فى هذا البلد تشتتت عائلته ، فأقام جده الأكبر إبراهيم الروجى فى برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبقيت هذه المكانة فى نسله ، حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ .

ولاضطهاد وقع بأهل برنبال وإرهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارك ، وتفرقت فى البلاد ، فنزل والد المترجم بعزبة الحماديين من بلاد الشرقية (مركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الإقامة فى هذه البلدة ، إذ لم يلقوا فيها إكراماً ، فارتحلوا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، وأكرموا مثواه ، ولم يكن فى بلدتهم فقيه ، فجعلوه مرجعهم فى الأحكام الدينية ، وبنوا مسجداً جعلوه إمامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التى عاناها قبل أن يهبط هذا البلد ، أخذ يعنى بتهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال ، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على يد رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنة ، أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشيخ أحمد أبو خضر ، أصله من ناحية الكردى (وهى بلدة قريبة من برنبال) ، ثم ارتحل إلى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب ، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن فى سنتين .

وكان الشيخ يقسو فى معاملته وضربه ، كما هى عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم فى ذلك العصر ، فامتنع عن متابعة القراءة عليه ، وأبى أن يذهب إليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه ، لكثرة مشاغله ، فتراخى المترجم فى الحفظ [illegible] وكاد ينسى ما حفظه ، فهمّ أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أبى أن

---

[٨] ملخصة فى سياق منتظم الوقائع ، على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٩

يعود إليه ، وحدثته نفسه بالهرب ، لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل أخوه في الأمر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض عن أن يكون فقيهاً ، ورغب أن يكون كاتباً ، لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقرب من الحكام .

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الإخيوة) ، فأسلمه إليه ليعلم الكتابة على يديه ، فلازمه في داره يتعلم عنه ، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة ، وناله منه أذى شديد ، إذ سأله يوماً عن الواحد فأجابه باثنين ، فضربه بدواة [illegible] ، فشج رأسه ، وكان ذلك على ملأ من الناس ، فشكاه إلى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، فهرب ، وانتهى به المطاف إلى العودة وحيداً إلى برنبال ، وهناك وافاه أخوه الذي كان يبحث عنه ، فأعاده إلى أبيه ، وقد حار في معالجته وتعليمه ، وأبدى المترجم نفوراً من الرجوع إلى الكاتب أو الفقيه ، لما رأى منهما من الإيذاء والضرب

فارتأى أبوه أن يعهد به إلى صديق له من كتبة المساحين ، فرضي بذلك . ولازمه ثلاثة أشهر ، ثم انفصل عنه ، وبقي في بيت أبيه يقرأ عليه ، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب في مأمورية أبي كبير ، بمرتب قدره خمسون قرشاً ، ولكن الكاتب لم يعطه أجره ، إلى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبي كبير ، فأخذ منه راتبه المتأخر ، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبي كبير ، واتفق وإياه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور واعتقله ، ووضع الغل في عنقه ولبث في السجن بضعة وعشرين يوماً ، قاسى فيها مر الشدائد والآلام ، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته إلى محمد علي باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك في منيا القمح ، فكتب بإخلاء سبيله ، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقبل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان ، وأفضى إليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير في حاجة إلى كاتب ، فدله السجان على المترجم ووصفه له بالنجابة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الإفراج ، وذهب إلى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبشياً يدعى (عنبر أفندي) فاتخذه كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الخبز ، وخمسة وسبعين قرشاً في الشهر ، فارتضى هذا العمل ، وكانت سماحة أخلاق عنبر أفندي وطيبته مما رغبه في البقاء في هذه الوظيفة

ما يؤخذ من نشأته الأولى

[illegible] في نشأة المترجم الأولى شيء مما يلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة

مصغرة [illegible] الاجتماعية في ذلك العهد

فانتقال عائلته [illegible] على [illegible] إلى برنبال [illegible] في المديرية شيئاً [illegible] الحكام بالأهالي في ذلك العصر ، [illegible] وكثيراً منها ، إلى الرحيل فراراً من المصائب التي لم يستطيعوا [illegible] من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام في استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا بعض صور من مظالم الحكام في ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوي عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم إلى الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد ، فراراً من المظالم

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة مما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فإن فكرة تعليم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظاً من العلم ، يدلك على ذلك ميل والد المترجم إلى تعليم ابنه قدر ما يستطيع ، لكن طريقة التعلم كانت رديئة ، لا تثمر في تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية وكاتب الإخيوة ، وأمثالهما من الفقهاء والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لا ينتج التعلم على أيديهم سوى البلاهة ، وبث روح الخوف والجبن في أخلاق الشباب ، لأن القسوة والضرب يقتلان في نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة

وليس في نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن معاصريه ، ولكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومخافته قسوة المعلم ، فقيهاً كان أو كاتباً ، أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبذ معاصريه ، فيتطلع إلى أسلوب في التعليم أرقى من الأسلوب العتيق الذي كان مألوفاً في عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى [illegible] تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وذلك ينبئ عن سمو النفس ، لأن إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزة النفس تجمع حولها نمطاً من الأخلاق الكريمة ، ولا مراء في أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم .

نيرها ، ورضى بحمل الهوان ، لاستمر فى طريقه ، ولم يحاول أن يصير كاتباً صغيراً ، مرءوساً لمثل عنبر أفندى . ولكن اضطره إلى ما حدثته به نفسه وهو يشغل هذه الوظيفة [illegible] نبيل كان يختلج بين جوانح المترجم .

فقد روى عن نفسه أنه لما اشتغل كاتباً لعنبر أفندى رأى منه رأفة ، وشفقة وحسن معاملة ، تختلف عما لقيه من كاتب أبى كبير ، لكنه شعر بأن لو كان عنبر أفندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه إلى أن يكون « بحالة لا ذل فيها ولا تخشى عواقبها » كما يقول المترجم

فهذا الشعور ، هو شعور النفس العزيزة التى تأبى الهوان ، وتطمح إلى المعالى ، وهو شعور كريم ، كان له أثره فى حياة على مبارك

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا فى إعجاب ، أن نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون أقرانه فى القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لا نجد له تعليلاً دقيقاً ، فإذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة ، اعترضك فى هذا أن النابغة قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوته .

قد يكون السر فى النبوغ هو الاستعداد الفطرى للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الإلهام الذى يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعناية الإلهية . فلك أن تفسره بمعنى من هذه المعانى ، أو بها كلها مجتمعة ، ولكن علينا أن نحسب حساباً لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلا « معظماً مكرماً » ، نزل بلدة برنبال ، ولم يكن من أهلها ، فصار إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة فى نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة « المشايخ » .

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنبال ، وورد قرية الساعدة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعلمه وفضله ، وإنك لتلمح عزة نفسه من كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر « محمد على باشا » ، ورفع إليه ظلامته ، وشكا إليه ما حاق بابنه من السجن ، فالشكوى من الظلم ، واستصراخ ولىّ الأمر ، من الأمور التى تحتاج (فى ذلك العصر) إلى شىء من الجرأة والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب ، ويستسلم لها المظلومون ، وإذا حدثتهم أنفسهم بالشكوى منها ، فقد تعوزهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس فى الحكومة

فأغلب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة . وهذه نفس يجب أن نسجلها لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى .

نشأته الثانية فى المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك إلى المعالى هو الذى سلك به سبيل المدارس النظامية ، وذلك أنه حينما اشتغل كاتباً عند عنبر أفندى ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده وأسباب بلوغه هذا المركز الممتاز فى الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر أفندى ، وهو أسود حبشى ، يصل إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان » ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه أنه كان مشترى سيدة من ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة « قصر العينى » إحدى المدارس النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلاً للمركز الذى يشغله ، وعلم أن الحكام يؤخذون من خريجى هذه المدارس .

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه إلى دخول تلك المدارس ، ليصل إلى ما وصل إليه عنبر أفندى ، وأخذ من تلقاء نفسه يسأل عن السبيل إلى دخول المدارس النظامية ، وسأل الفراش : هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها « صاحب الواسطة » فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها . واعتزم ترك العمل الذى كان يشتغل به ، والذهاب إلى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العينى .

دخوله مدرسة ميت العز

وما خالجه هذا العزم حتى أصر على إنفاذه ، دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الإذن من رئيسه بإجازة يقضيها فى زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوماً ، وسافر إلى وجهته ، وفيما هو سائر فى طريقه مر بقرية بنى عياش (١) ، ورأى جماعة من الأطفال يصحبون رجلا [illegible] ، وكل منهم يحمل دواة وقلماً ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالهم ، فإذا هم تلاميذ

---

(١) بمركز منيا الآن : [illegible]

مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التي أسسها محمد علي باشا ، وكان ذلك فألا حسناً للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، إذ أنه اجتمع بالأطفال ورأى الحافظ خطه أجود من خطوطهم . فرغب إليه أن يدخل مكتب ميت العز . وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس دون واسطة ، فابتهج المترجم بهذه الفكرة ، إذ وجد فيها بغيته التي ينشدها ، ولم يكن أحب إلى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس ، ويجتاز تلك العقبة التي أشار إليها فراش المأمور في حديثه له . وهي « الواسطة لدخول المدارس » ، ورأى أن الاجتهاد في المكتب سيغنيه عن تلك الواسطة التي قد لا يجدها

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه إصراراً على عزمه ، فبقي بالمكتب خمسة عشر يوما ، وأرسل الناظر إلى أبيه ، فجاء يسعى لإرجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلجأ إلى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن يتيح الفرصة في خروج ابنه إلى الفسحة وقت الظهر ، فاختطفه وعاد به قسراً إلى بلده ، وحبسه في البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكي وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كي يبقى بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسر في نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل في طلب العلم ، وانتظر حتى اطمأنوا إلى عدوله عن فكرته ، ولما كانت إحدى الليالي تربص حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاء ميت العز ، وكان ذلك – كما يقول المترجم – آخر عهده بسكناه بين أبويه ، وكانت ليلة مقمرة ، فمشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكان يخشى أن يجيء أبوه ويحتال عليه لاختطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليلا ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه بالعدول عن عزمه ، ويأخذه بالحسنى ، فلم ينجح في مسعاه ، واستمر الغلام ملازماً للمكتب ، مكباً على الدرس والتحصيل

انتقاله إلى مدرسة (قصر العيني)

بقي المترجم في مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الخانكة (عصمت أفندي) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العيني ، فكان التلميذ علي مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى المدرسة ،

وشكا أمره إلى عصمت أفندي ، فأحاله على ابنه ، وقال إن الخيار له ، فخيروه بين العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً وأغرى به جماعة من المعممين يستميلوه ، فلم يسمع لهم ، ودخل مدرسة قصر العيني سنة ١٨٣٦ ، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره

وهنا تبدو ظاهرة جديدة في شخصية المترجم ، إلى جانب ما ذكرناه عن عزة نفسه ، وطموحه إلى المعالي ، وهي ميله الفطري إلى العلم ، وشغفه بالارتواء من منهله العذب ، وما فطر عليه من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة .

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم . تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم ، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ويرغبونهم بمختلف الوسائل في متابعة الدرس ، وكثيراً ما يتعب الآباء في إيلاف أبنائهم المدرسة والإقبال عليها .

فالغلام الذي يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبويه ، ويستهدف لغضبهما في هذا السبيل ، لابد أن يكون قد رسخ في نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم .

وتتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم ، في إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقبات التي اعترضته ، من إغضاب والديه ، إلى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغر سنه ، إلى المخاطرة بنفسه في حياة يجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك يدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الإرادة .

عزة النفس ، والطموح إلى المعالي ، وحب العلم ، وقوة الإرادة ، هذه هي الصفات التي تطالعنا بها شخصية علي مبارك وهو بعد في سن الطفولة والمراهقة

وسنرى كيف لازمته هذه الصفات في كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم في أعماله

التعلم في مدرسة قصر العيني

لم تكن مدرسة الطب قد نقلت بعد إلى قصر العيني ، حينما جاء مصر علي مبارك ، بل كانت لم تزل بأبي زعبل . أما المدرسة التي كانت بقصر العيني وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهي مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية .

مترجم التعليم فى تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه أنه لم يكن على درجة حسنة لا من جهة مستوى التعليم فى ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ، فقد ذكر أنه على خلاف ما كان يظن . وأن مدرسيها ورؤساءها كانوا لا يحسنون فهم ، ولا يعتنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكرى موضع العناية فيها ، فيمرن الطلبة الحربية فى معظم الأوقات . فى الصباح ، والظهر ، وبعد الأكل ، وفى أماكن الضرب وأنواع الإيذاء من الأمور المألوفة فى التعليم ، وكذلك قلة العناية بمأكل ومسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ، وأحرمة الصوف الغليظ من صنع بولاق ، ولم يكن الأكل الجارى للتلاميذ سائغاً ، فاستعاض عنه على مبارك بالجبن

وقد اعتراه فى المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغير الطقس ، فنقل مستشفى المدرسة ، ولقى فى مرضه الشدائد والآلام ، وطلقه الجوع بالمستشفى ، وفيما كان على شك المرض . جاء أبوه إلى قصر العينى ، واتصل به بواسطة أحد الممرضين ، ورغب إليه أن يعود معه إلى بلده ، فمالت نفسه لإجابته ، وهمّ بترك المدارس ، لما لقيه فيها من التعب ، ولعدم وجدانه التعليم الذى ينشده ، ولكنه خشى عواقب الهرب من المدرسة ، كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ ، وتعتقل أهليهم ، وتسىء معاملتهم . فخشى أباه من عنت الحكومة ما لا يرضاه له ، فامتنع عن الهرب ، فعاد أبوه الكرة يستميله ويهوّن عليه الأمر ، فأبى واعتزم الصبر على قضاء الله ، ولما شفى انتقل من المستشفى إلى ، واستأنف الدرس ، ولم يصب بمرض بعد ذلك طوال دراسته

انتقاله إلى مدرسة أبى زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب إلى قصر العينى سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ القصر إلى أبى زعبل لها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة

شعر بتقدم مستوى التعليم فى مدرسة أبى زعبل ، وينسب المترجم هذا التقدم إلى همة ناظر المدرسة ، وهو المرحوم إبراهيم بك رأفت ، وحسن عنايته بتعليم النشء ، ذكره فى هذا الصدد ، أنه كان فى بداءة عهده يجد صعوبة كبيرة فى تفهم فنون الهندسة

والحساب والجبر ، ويراها كالطلاسم ، وكلام المدرسين فيها كالسحر ، ولكن إبراهيم بك رأفت أوضح للتلاميذ معانى الهندسة وقواعدها بأسلوب تقبله عقولهم ، فانفتح لحسن بيانه ذهن المترجم ، وصار يعى ما يسمع من الدروس .

ولفت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه على يديه دليلا على تأثير أسلوب المدرس فى تثقيف أذهان التلاميذ

وفى سنة ١٨٣٩ اختار ولاة الأمور جماعة من مدرسة أبى زعبل لإلحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل مدرسة المهندسخانة ، وكان حينئذ يافعاً ، إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس ، حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائماً أول فرقته ، وأساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ، ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية . أمثال : محمود باشا الفلكى ، وطائل أفندى ، ومحمود بك أبو سن . ودقله أفندى ، وإبراهيم بك رمضان ، وأحمد بك فايد . وسلامه باشا إبراهيم . وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء الفرنسيس . ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون ، والتلاميذ يكتبون ما يسمعونه فى كراريس . كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم بذلك المترجم « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ، وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون الكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، إلى أن تكاثر طبع الكتب المطولة فى العلوم والفنون الرياضية

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية المصرية فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلاً فى كتاب « عصر محمد على » (ص ٤٥١ طبعة أولى) .

وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، وإسماعيل . ومن حسن توفيق

المترجم وحصر استعداده أن انتظم في سلك البعثة الخامسة ، وهي أكبر البعثات شأناً ، وفيها بعض أنجال محمد علي وأحفاده ، ولذلك يسميها علي باشا مبارك (بعثة الأنجال) .

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوي اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ علي مبارك ممن اختيروا لها من متقدمي مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم في مبدئها ٧٠ تلميذاً ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد علي ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير إسماعيل (الخديو) من أنجال إبراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة في الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلي باشا مبارك ، وحماد عبد العاطي باشا ، وسليمان نجاتي بك وغيرهم[10] .

وقد بدا من المترجم اتصاله بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم ، فإن المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة رغب إليه البقاء ليجعله مدرساً بها ، وأفهمه أن بقاءه يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله باقياً في سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ، لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ، ليزداد اكتساباً للعلوم ، ولأن سفره مع الأنجال يزيده شرفاً ورفعة .

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت بها المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا بفرنسا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقي المترجم في دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه في البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه في ذلك كشأن العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوي حينما انتظم في البعثة الأولى ، واقتضى نظام التعليم في البعثة أن يجعل من المتقدمين في الرياضيات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، فعطلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ، ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل علي مبارك بالتعليم ، ليتفردوا بالتقدم .

فمكث المترجم مدة لا يفهم الدروس التي يسمعها ، ويخشى العاقبة ، فعالج هذه

---

[10] ذكرنا أسماءهم وترجمنا لمعظمهم في كتاب « عصر محمد علي » ص ٤٦٥ وما بعدها

الصعوبة ، بالصبر والمثابرة ، وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية في الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وفهمها وحفظها ، وبذل في هذا السبيل جهداً لا ينقطع ثلاثة أشهر متوالية ، مع متابعة الدروس التي تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميله علي إبراهيم وحماد عبد العاطي .

ولما جاء إبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، عمل له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع الجوائز بنفسه على الناجحين منهم ، وتناول علي مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب في الجغرافية ، لمؤلفه المسيو مالطبرون ، مع مجموعة خرائطه ، ودعا العشرة الأول إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحثاً لهم على متابعة الدرس والتحصيل .

يتجلى في هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس ، مبلغ قوة إرادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزين هذه الصفحة ، وهي بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة مرتباً شهرياً قيمته خمسون ومائتا قرش ، فجعل نصفها لأهله ، يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفي هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس .

وهذا البر بالأبوين يدلك على ما تحلت به نفس علي مبارك من الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ، ولا شك أن هذه المزايا لما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعاً وبهاء

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأول من أعضائها ، وهم علي مبارك ، وحماد عبد العاطي ، وعلي إبراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثاني في الجيش الفرنسي ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد أن أدوا الامتحان النهائي ألحقوا بالجيش الفرنسي ، فكان علي مبارك في الآلاي

ـب من فرقة المهندسين الحربية ، وتقضى به أقل من سنة ، ويبدو أنه اكتسب بانتظامه في هذه الفرقة خبرة كبيرة ، في الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التي نالها في مدرسة مهندسخانه بولاق ، ومدرسة باريس ، ومدرسة متز الحربية والهندسية ، فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه في إدارته مصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال في عصر إسماعيل

وكان إبراهيم باشا يرغب في أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً ، وأن يطيلوا مكثهم في الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجاربهم ، ثم يتنقلون في الديار الأوروبية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا ما فيها من المنشآت الهندسية والحربية . ولكن المنيه حالت دون إنفاذ هذا البرنامج ، إذ توفى إبراهيم وخلفه عباس الأول ، فطلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، إلى طور العمل والإنتاج

عمل المترجم في عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الإطلاع ، صادق العزم ، مقبلاً على العمل بكل ما به من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته في النهوض بأعمال التقدم والعمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضى نحو أربعة عشر عاماً ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة ، وخاصة في عهد سعيد الذى كان يبخسه حقه ، ولا يعرف قدره .

ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا في عصر إسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة إلى إحياء النهضة العلمية في البلاد

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم في عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والإهمال ، فتناقص عدد التلاميذ في هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة المفروزة ، واختارلها الطلبة من جميع

[illegible] [illegible] [illegible] ، فهو من مدرسة طره الإعدادية قبل من الطلبة للتقدم في [illegible] وأصبحت مدرسته في [illegible] حتى لم [illegible] في [illegible] التي بقى فيها على [illegible] دروسه [illegible] وحده

[illegible] [illegible] بلا عمل ، وليس هذا مما تميل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الجد والدأب على العمل ، وبعد حادثة [illegible] [illegible] عن المدرسة في إجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنهم ، فرغب إليه ناظر المدرسة في [illegible] حتى لا ينقطع [illegible] [illegible] إذ هو غاب عنهم

مصاحبته سليمان باشا الفرنساوى

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ليصطحبه في مهمة حربية وهي اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ما أراد ، وصحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوبا منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسماً مفصلاً لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ثم ذهب إلى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها

زيارته لأهله

فدخل البلدة ليلاً على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائبا بمصر ، ولم يكن بالمنزل سوى والدته وبعض إخوته ، وكان قد فارق أمه منذ أربع عشرة سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ، قيل من أنت ؟ فقال . ابنكم البار ، فقامت مدهوشة ، وقصدت إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر ، لتحقق الخبر ، وكان هو برداءه العسكرى ، متقلداً سيفه وحاملاً شعار [illegible] [illegible] [illegible] أنه هو ، حتى أعادت سؤاله وتحققت أنه هو ، ففتحت الباب ، وعـ [illegible] حتى [illegible] عنه [illegible] . ووقعت مغشياً عليها من دهشتها وفرحها وسرورها ، ثم [illegible] وجعلت تبكى ، وصاحت ، وزغردت ، فأقبل أهل البيت ، وجاء الأقارب والجيران يرحبون ، وملأت [illegible] [illegible] ، وقضى ليله حتى الصباح ، والناس بين رائح وغاد ، يهنئونه ، و[illegible] [illegible] لأمه [illegible] بعودته منها عزيزاً ، وبلوغه هذه الرتبة العالية ، وبعد يومين قصاهم

بين أهله وعشيرته ، عاد إلى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الإسكندرية

فذهب إليها المترجم ليتسلم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو وحماد بك ، وعلى بك إبراهيم . وكلفهم إمتحان مهندسى الاقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ، وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، إذ أحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً بهذا المشروع

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mougel كبير مهندسى القناطر الخيرية وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميليه على إبراهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن ألغى معظمها ، ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠,٠٠٠ كيس (١٠٠,٠٠٠ جنيه) ، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد ، وبإدارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة من المشروع ، لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه ، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنعم على المترجم بهذه المناسبة برتبة أميرالاى . وعهد إليه بتنفيذه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية ، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزة ، ووضع نظام التعليم فيها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، فاضطلع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا

وبذل جهداً عظيماً فى ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها ، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس ، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وألايات الجيش نحو ستين ألف نسخة ، من كتب متنوعة ، غير ما طبع فى كل من بمطبعة الحجر بالمهندسخانة ، من الكتب ذات الأطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويسهر على حسن معاملتهم ، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس .

فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مرضياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة ووصموها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلقوا عليها معايب كثيرة ، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ، صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها أحمد باشا المنكلى

وليس من عجب على الحكومة إذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم . فقد نال حظاً كبيراً من التعليم الحربى ، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية ، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم يكن الاستفادة من خبرة المترجم ،

لم يعهد إليه في حرب القرم بعمل حربي ذي شأن ، فحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير ، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بإلغاء مدرسة المهندسخانة ، فالغرض الحقيقي كان إذن إبعاد المترجم ، وإقصاؤه عن المعهد العلمي العظيم الذي أخذ على عاتقه ترقيته وإنهاضه ، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه ، وشره أكثر من خيره . ولكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائماً كثير التقلب في الرأي) جعلته يصغي لوشاية الدساسين ، ويوصد أبواب تلك المدرسة ، ثم يحرم البلاد خدمات علي بك مبارك العلمية . ذلك أن علي مبارك ، وإن كانت دراسته العليا عسكرية ، لكن نفسه اتجهت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية ، وهي ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه ، فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم في هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التي ازدهرت في عهد أبيه ، ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت في عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا في عصر إسماعيل .

ويستفاد مما ذكره المترجم أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « ومكثت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً . وقد لطف الله بي وأحسن إليّ .. ورد كيد الحاسدين في نحورهم ، فإني وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار .. وما يلحق المحاربين من الإرجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ، لكني رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ، ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم ، وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والأخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فإن الاشتراك في الحروب من شأنه أن يقوي في النفس روح الشجاعة والإقدام ، ولو اشترك المترجم في اقتحام المخاطر ، والبقاء في خط النار ، لكان أثر هذه الحملة في نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة . ولوقف من الحكومات المتعاقبة التي تولت الحكم في مصر مواقف أعظم شأناً من خطة اللين والمسالمة التي اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع في أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت في تلك الحرب

أقام المترجم عشرة أشهر في بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والمخابرات بين روسيا وتركيا . وأقام عدة أشهر أخرى في بلاد الأناضول ، أغلبها في مدينة (كرمشخانة) . وكان سفره ، [illegible] على الخيل من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، إلى مدينة أرض روم [illegible] وهي – هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية . فقد لاقى فيها شدائد وأهوالاً ، شدة البرد ، وكثرة الثلج في تلك الجهات ووعورة طرقها ، وصعوبة السير ما فيها من العقبات ، بين جبال شاهقة وأودية سحيقة

ولقد مرض كثير من الجند ، ومات بعضهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكرمشخانة ، نظمه تنظيماً حسناً . ونال بذلك ثناء قائده وأكابرها ورؤساء الجيش

عودته إلى مصر والوظائف التي تولاها

ولما عاد المترجم اعترضته عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد باشا أمر بإخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم علي بك مبارك ، فسكن في بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالته عندما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والتكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع إلى بلده والاشتغال بالزراعة وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً في نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ، ولا خرجنا منها » .

وبينما كان يتأهب للرجوع إلى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول

وبعد قليل عين معاوناً بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر في التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وضعته ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتي بالفرج القريب ، وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (إسماعيل باشا الفريق) في وضع رسم لبعض الدروب الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار في إتمامه . فاستدعى علي بك مبارك لما كان يعهده فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ، ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفى إسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بإلحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا ، ثم عهدت إليه وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلع بأعبائها بأمانة ونزاهة ، ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا ، فرفت منها ، وعاد لما بدأ ، عاطلاً من المنصب ، واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد إليه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماد (جبوق رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة إدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يراد ، ولكنه عندما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه إليه ، وتردد عليه آناً فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم يتيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد إلى بلد ، مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، إلى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة ، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه إليه ، فنظر فيه قليلاً ولم يزد عن قوله : « أبقه حتى نجد وقتاً لإمعان النظر فيه » ، وكانت هذه الإجابة نتيجة الانتظار مدة ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك ، ولكنه أمر بربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته زمناً طويلاً بلا عمل إلى أن أصدر سعيد أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب ، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة ، ليشغل نفسه بعمل ما ، مهما كان ضئيلا ، لأن نفسه كانت تعاف الكسل والبطالة ، فصار يدرس لهم حروف الهجاء ، والخط والمبادئ الأولية فى الرياضيات والقواعد الهندسية ، وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين ، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية سماه (تقريب الهندسة)

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على ما يقرؤه ، جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) ، يحتوى على فنون شتى مما يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة ، ولما اعتزم سعيد باشا السفر إلى أوروبا أمر برفت أغلب من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من مخلفات الحكومة التى اعتبرت « زائدة عن الحاجة » ، فدهش المترجم ، إذ رأى هذه النفائس تباع

بالمزاد بأبخس الأثمان ، ومن جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ، فدخل المزاد واشترى من هذه الأشياء ما أمكنه ابتياعه .

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فاتجر فيما اشتراه ، وعاشر التجار ، وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الإنفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر متجراً مدة شهرين ، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والإعراض عن مناصب الحكومة ، لما رآه من اضطراب الأحوال وتقلب الأمور ، مما كان يفقده ثمرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه ، فقد ما جمعه من الكد والتعب ، فآثر الاحتراف بالتجارة وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة يكون الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه . ففكر فى القيام به بنفسه ، وفيما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به طرق سعيد باشا طارق المنون فى أوائل سنة ١٨٦٣ . فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم ، ذلك أن إسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب ربيبه القديم فى البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك .

أعماله فى عهد إسماعيل

لما تولى إسماعيل الحكم ألحق المترجم بمعيته ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإقفال عيونها ، والمانع من إقفالها ما قرره المهندسون من أن القناطر لا تتحمل ضغط المياه بل تخربها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض على المترجم ارتأى إقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديو برأيه وأمر بإقفالها ، فانحدرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التى تروى منه منافع الرى وخيراته ، وأما الخلل الذى كان متوقعاً حصوله فى بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فتشكلت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه . وهكذا تبين صواب الرأى الذى ارتآه على بك مبارك

ولما حفر رياح المنوفية[11] أحيل على المترجم إنشاء قناطره ورياحه ، فأقامها على أحسن

---

[11] حفر رياح المنوفية لأول مرة فى عهد سعيد باشا وأعيد حفره وإصلاحه فى عهد إسماعيل

[illegible] . وفى سنة ١٨٦٥ ندبته الحكومة المصرية عضوًا فنيًا فى اللجنة التى ألفت لتقدير الأراضى التى صارت حقًا لشركة القناة طبقا لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الأداء .

وكالة وزارة المعارف

وفى سنة ١٨٦٧ جعل وكيلا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) ، وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته ، ويبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم ، إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذى يسمح له بإنفاذ إصلاحاته فى دائرة التعليم العام

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبذل كل ما فى وسعه ليقوم به على الوجه الأكمل ، فانتهز ندب الخديو إسماعيل إياه لرحلة مالية إلى باريس عقب تعيينه وكيلاً لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس فى فرنسا ، ليقتبس ما يراه صالحا لمصر، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يومًا بما فيها الذهاب والإياب ، فقد اطلع على مناهج التعليم فى المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام المجارى العامة المبنية تحت الأرض فى باريس .

توليه وزارة المعارف والأشغال

وبعد عودته إلى مصر أنعم عليه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران ، فصار يعرف من ذلك العهد بعلى باشا مبارك ، وأسند إليه إدارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والأشغال ، وبعد قليل ضمت إليه نظارة ديوان الأوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة ، مع بقائه ناظرًا للقناطر الخيرية والتحاقه بالمعية .

العصر الذهبى فى حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبى فى حياة المترجم ، وهو العصر الذى حفل بالأعمال العظيمة ، التى خلدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث ، وخاصة فى نهضتها العلمية

ومما يلفت النظر فى هذا الدور من حياته ، كفاءته الممتازة فى اضطلاعه بأعباء

الوزارات المختلفة . فقد كان فى وقت واحد وزيرًا للمعارف ، والأشغال ، والأوقاف ، ومديرًا عامًا للسكك الحديدية ، وناظرًا للقناطر الخيرية . وهى مهام جسام تنوء بالعصبة من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعا ، وأظهر من الكفاءة وقوة الإرادة والجلد على العمل ما يدعو حقًا للإعجاب ، وصدقت كلمته المتواضعة التى قالها فى هذا الصدد عن نفسه : « فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى ، فى مباشرة تلك المصالح وضبط نواحيها » .

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، تطالعنا بناحية من نواحى شخصيته ، وهى مقدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ، فقد يكون لعلى باشا مبارك أنداد فى العلم والذكاء بين زملائه الذين تولوا مختلف الوزارات والمناصب العالية ، ولكنا نعتقد أنه بذ أقرانه فى الجمع بين مزايا متعددة ، وهى الكفاءة والجلد على العمل ، والإخلاص ، والنزاهة فى أداء واجبه ، وإتقان الأعمال الكبيرة التى تعهد إليه ، على ما تقتضيه من جهود ومتاعب ، فترأس الذى يجمع وزارات المعارف والأشغال والأوقاف ، مع إدارة مصلحة متشعبة الأعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التى تضطلع بكل هاتيك المصالح ، والهمة التى تصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمة ، كل ذلك لا يصدر إلا عن نبوغ فذ ، وهذا يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم

ووزع على باشا مبارك أوقاته بين هذه الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف ، ومن بعد الظهر إلى الغروب لإدارة السكك الحديدية

فى وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة إلى ترقية شئون التعليم فى بلاده .

نقله المدارس إلى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز ، ذلك أنه رأى ما يتكبده التلاميذ وأهلوهم والأساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات ، فى ذهابهم إلى العباسية ، وإيابهم منها ، فاستصدر من الخديو إسماعيل إذنا بنقل المدارس إلى درب الجماميز ، وخصص

قد سراى الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لإيواء المدارس والمعاهد وخصص سلاملك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه ما تكون بالجامعة . وجعل بها أيضا وزارة الأشغال ، وديوان الأوقاف ، فسهل عليه القيام بأعباء الوزارات المجتمعة

ومع اضطلاعه بأعباء هذه الوزارات ، كان لا ينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ، وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم

لائحة التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته منذ تولى وكالة الوزارة إلى إصلاح التعليم فى الكتاتيب وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لذلك اللائحة المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ، ويبدوا آراءهم فيه ، فدرسوا اللائحة وقرروها ، وصدر أمر الخديو بإجراء العمل بمقتضاها فى مايو سنة ١٨٦٨

وأنشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات .

وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الأوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الأوقاف الخيرية استطاع إصلاح كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد إصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المبانى معطلة لا ينتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التى يقتضيها إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الإشراف على معاهد العلم الموقوفة أن ينظمها ويحولها إلى مدارس نظامية فأحيا هذه المعاهد بعد ما درست فى أيدى نظار الوقف الخاملين ، وكذلك أحسن إدارة أموال الأوقاف الخيريه ، واستخدم جانبا منها فى الإنفاق على التعليم بعد أن كانت تبدد وتضيع هباء

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقين مجانا ، واستوفى باقى نفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيريه الموقوفة على الكتاتيب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديو إسماعيل إيراد أطيان

تفتيش الوادى بالشرقية . كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على تلك المدارس عدا ما خصص لها فى الميزانية سنوية والمصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقتدار واليسار .

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ دار العلوم ، كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الإدارة (الحقوق) ، بأن يعملوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يصبحون معلمين استقلالا ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد أنشئت بعد

دار العلوم

هى من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة

ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، أنه لما أنشئت المدارس الابتدائية ، واتجه العزم إلى الإكثار منها ، مست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فارتأى المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ، ممن حفظوا القرآن الشريف وتلقوا دروس اللغة والفقه ، واختبرهم لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التى لا تدرس فى الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه

واختار المترجم للتدريس فى دار العلوم جماعة من جلة العلماء الأكفاء فى العلوم الأزهرية

والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، مع دفع مرتب شهرى للتلاميذ

وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج منها أساتذة اللغة والأدب العربية للمدارس الابتدائية فى القاهرة والأقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ؛ ويعد إنشاء دار العلوم أعظم خدمة أسداها المترجم لإحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر.

دار الكتب أسست سنة ١٨٧٠

أنشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد على ، فقد أنشأ مستودعاً لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، ولما ولى إسماعيل الحكم أضاف إليها نحو ألفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المانسترلى ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب

ويستفاد مما ذكره على باشا مبارك فى الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديو إسماعيل ، فإنه رغب فى إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف وفى المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر فى ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب فى سراى درب الجماميز بجوار المدارس

ولكن يؤخذ مما جاء فى الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) أن صاحب الفكرة فى هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته ، فقد قال فى هذا الصدد :

« ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية ، داخل الديار المصرية ، أضاهى بها كتبخانة باريس ، فاستأذنت الخديوى إسماعيل باشا فى ذلك ، فأذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والإفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظراً ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديوى إسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام ، للخاص والعام ».

وقد ابتاع إسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته ، وأهداها إلى دار الكتب

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول إليها لولا إنشاء هذه الدار ، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية

مجلة (روضة المدارس)

ومن حلى منشآته العلمية إنشاء مجلة « روضة المدارس » على نفقة وزارة المعارف وبإشرافها ، وسنتكلم عنها فيما يلى

مدرج المحاضرات (الأنفيتتر)

ورتبت دروساً عامة أو محاضرات دورية بالأنفيتاتر (المدرج) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ ، فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة . وكان يشجع هذه الحركة ويحضر المحاضرات بنفسه ، وحذا حذوه كبار الموظفين فى مختلف الوزارات ، وبخاصة وزارة المعارف ، وكان يحضرها أيضاً عدا طلبة المدارس العالية ، فريق من طلبة الأزهر ، وهم الذين صاروا نواة دار العلوم التى أنشئت سنة ١٨٧٢

وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار إليهم بالبنان ، فكان الشيخ حسين المرصفى يدرس الأدب العربية ، وإسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربية ، ومنصور أفندى أحمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقى محاضرات فى الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف فى المبانى ، وجيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع فى الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه الإمام أبى حنيفة ، والشيخ أحمد المرصفى فى التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت فى الطبيعيات ، ومحمد بك بد فى علم النبات وغيرهم إلخ إلخ[١٢]

---

[١٢] من كتاب (التعليم العام فى مصر) لأمين سامى باشا ص ٢٤

معمل الكيمياء والطبيعة

وأنشأ بدرب الجماميز معملاً للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ في العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاربها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية .

أعماله الهندسية

إن شهرة علي باشا مبارك تقوم في الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى في أعمال العمران التي تمت في عهد إسماعيل ، منها ما يختص بالري ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخرى .

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد إليه الخديو بمعظم الأعمال الهندسية التي استحدثت في ذلك العهد

فاشترك في تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وإنشاء أحيائها الجديدة ، ومعظم الأعمال التي تمت من هذا القبيل حدثت في عهده ، مثل شارع محمد علي ، وميدانه ، وشوارع الأزبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعابدين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها

قال في هذا الصدد : « وجرى العمل على ذلك . فظهرت كل هذه المباني الحسنة . والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور ، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التي كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديو إسماعيل للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المباني المشيدة ، والبساتين الجديدة ، وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها . التي يكل الوصف عن محاسن بهجتها » .

واشترك في استحداث الإنارة بغاز الاستصباح ، وإقامة وابور المياه لتغذية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتي النور والمياه ، وإقامة (كوبري) قصر النيل الفخم ، وغير ذلك من الأعمال النافعة

وساهم أيضاً في أعمال العمران بمدينة الإسكندرية والسويس .. وما أتمه في المديريات من الدواوين . والجسور . والقناطر . والترع . قال في هذا الصدد « وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك . لتعلقها بديوان الأشغال ، فكنت في مدة إحالة هذه الدواوين عليّ مشغولا بالمصالح الأميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلا ونهاراً ، حتى لا أرى وقتاً التفت فيه لأحوالي الخاصة بي ، ولا أدخل بيتي إلا ليلا . بل كنت أفكر في الليل فيما يعمل بالنهار » .

وكان متولياً وزارة الأشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد إليه الخديو إسماعيل إعداد معدات حفلاته الفخمة .

ومن أعماله في ديوان الأوقاف أنه حكّر كثيراً من أراضي القاهرة للراغبين في بنائها ، مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خراباً بلقعاً ، وأقيمت المباني والعمائر في أخطاط عديدة من المدينة .

وبإدارته مصلحة السكك الحديدية اشترك في مدّ كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء محطاتها

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (في سبتمبر سنة ١٨٧٠) ، وعن الأشغال ثم عن الأوقاف ، لخلاف وقع بينه وبين إسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديو إسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب في أن يضم إيراد السكك الحديدية إلى وزارة المالية ، فلم يقبل علي باشا مبارك هذا الضم إلا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى إسماعيل صديق بالمترجم عند الخديو ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التي كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلاً ، ولعل الخديو شعر بالفراغ الذي ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد إليه ثانياً بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الأوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الأشغال ، وبقي يتولى وزارة المعارف إلى أغسطس سنة ١٨٧٢

ثم عنّ للخديو أن يعين ابنه الأمير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظراً لهذه الدواوين في أغسطس سنة ١٧٨٢ . وبقي المترجم يتولى شئونها . وصار منصبه مستشاراً لها . وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برئاسة الأمير حسين كامل وجعل المترجم وكيلاً له

وفي أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضواً بالمجلس الخصوصي الذي كان بمنزلة مجلس الوزراء . وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه في حقه الواشون كإسماعيل باشا صديق وأضرابه وما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذي كلفه الخديو تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتجريح سياستها . فلزم بيته ثانياً .

وفي مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيساً لقسم الهندسة بديوان الأشغال . ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التي تولاها الأمير محمد توفيق ولي عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشاراً له ، ثم استقل ديوان الأشغال ، فبقي المترجم مستشاراً للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥)

ولاشك أن تعيين علي باشا مبارك في هذه المناصب الثانوية كان نتيجة الوشاية التي ألقاها إسماعيل صديق في حقه عند الخديو

في وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الأحداث المالية ، وحدث التدخل الأجنبي وعينت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنازل الخديو عن سلطته المطلقة لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وهي الوزارة التي دخلها الوزيران الأوربيان كما تراه مفصلاً فيما يلي ، واشترك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان الأوقاف ، فاستأنف عمله في إحياء نهضة التعليم ، فشرع في بناء بعض المدارس الابتدائية وظل قائماً بعمله في جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات ، إلى أن استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وثار عليها الضباط فرئيسها الأول فاستقالت في فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متوليا المعارف والأوقاف .

ثم دعى شريف باشا الوزير المشهور إلى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الأحرار فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية

وكان طبيعياً ألا يكون المترجم من أعضائها . لأن وزارة [illegible] مغضوب عليها من الشعب ، إذ كانت مهمتها موالاة الدول الأجنبية . ووزارة توفيق باشا لم يكن مرضياً عنها من [illegible]

وفي عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديو إسماعيل والدول الأوربية . وصدر خلعه نزولا على إرادة الدول

في عهد الخديو توفيق

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية وعهد إلى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة كان علي باشا مبارك عضواً فيها ، متقلداً وزارة الأشغال ، فبذل جهداً ملموساً في تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الري والعمران

الثورة العرابية

وفي عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن علي باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل إلى الاعتدال وتناول الأمور بالحكمة والهوادة ، ونصح العرابيين بالروية فلم يسمعوا له نصحاً ، وقد تبين أنه كان أبعد نظراً منهم ، لأنه لا يخفى أن التطرف والشطط في مسلك الثورة العرابية ، كان من الأسباب التي أدت إلى كارثة الاحتلال .

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضواً في وزارة رياض باشا التي تحركت الثورة لمناوأتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلا في سبتمبر سنة ١٨٨١ نزولا على إرادة الثوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة علي باشا واستقامته وإخلاصه ، إلا إنه لم يشركه في وزارته . لأنه كان عضواً في وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضواً في الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة وسقطتا نزولا على إرادة الثوار

فالأولى وزارة نوبار ، التي سقطت بتأثير ثورة الضباط في عهد إسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التي سقطت نزولا على إرادة العرابيين

ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامي باشا البارودي ، ظل علي مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفي عهد وزارة البارودي جاء الأسطول البريطاني إلى ثغر الإسكندرية ، ثم تلاحقت الأحداث إلى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزي

ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز ، وانحاز الخديو توفيق باشا إلى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية في القاهرة تضم أعيان البلاد وذوي المكانة فيها ، وحضر علي باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذي انتدبته الجمعية للسفر إلى الإسكندرية ، ومقابلة الخديو توفيق باشا ، لإبلاغه قرارات الجمعية ، فلما وصل إلى الإسكندرية سعى في طريقه لتهدئة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز إلى الخديو

في وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الأشغال . فعني بأعمال الري والعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه الوزارة .

ووزارة شريف باشا هي التي استقالت احتجاجاً على إخلاء السودان ، فللمترجم له نصيب في الموقف المشرف الذي وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية في يناير سنة ١٨٨٤ .

في وزارة رياض باشا
ظهور الخطط التوفيقية

وبعد إقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة في يونيه سنة ١٨٨٨ ، فكان علي باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزيراً للمعارف العمومية ، وهي الفترة التي ظهر فيها كتابه الخالد (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة)

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها في عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكملة وتجديداً لخطط المقريزي ، ولكتاب تخطيط مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقراها ، ونيلها ، وترعها ، وخلجانها وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودروبها ، ومياديها ، وما احتوت

عليه من المباني ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس ، والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع المترجم في هذه الموسوعة الكبرى ، كتب التاريخ والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الأوقاف والأملاك ، ومباحثه ومشاهداته ، وما وجده مسطوراً على الأحجار والجدران ، ولئن قيل إن علي باشا مبارك استعان في وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرؤوسيه في وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من قدره ، ولا يقلل من عظم العمل الذي اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته في البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى في جميع أبواب الكتاب ومباحثه

وتقع الخطط التوفيقية في عشرين مجلداً . ظهرت سنتي ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (١٨٨٧ ١٨٨٩) أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة . والجزء السابع للإسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصري وقراه . وخصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل . والتاسع عشر لترع مصر ورياحاتها ومنشآت الري فيها . والعشرين لنقودها القديمة والحديثة . وبالجملة فهذا الكتاب غرة في تاريخ مصر العلمي . ومأثرة خالدة للمترجم . وهو مرجع لكل باحث في شئون مصر العلمية والهندسية والتاريخية . وله أيضاً في عالم التأليف كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية قيمة وكتاب (تنوير الأفهام في تغذي الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م) و (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر)

ويقول الدكتور محمد بدري باشا في ترجمته لعلي باشا مبارك (ص ٦١) أنه وضع كتاباً سماه (آثار الإسلام في المدنية والعمران) فكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته شرح فيه ما أدخله الإسلام من العمران في الممالك . وما ترتب عليه من المدنية والنظام . قال : والذي نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفاً وتبييضاً أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليجيل نظره فيه ويدقق في مراجعته وهو باق مما بقي في خزانة مؤلفه رحمه الله .

وقد استأنف المترجم جهوده في عهد وزارة رياض باشا بنشر التعليم وإنشاء المدارس ، ومن جليل أعماله في هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) تأليف العلامة (محمد قدري باشا) .

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطاً ، فرأى العلامة علي باشا مبارك إخراجه للناس

مخطوطاً فلتعم فائدته اشتراه من ورثة المرحوم قدري باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه في مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظمى للعلوم الشرعية ، والقانونية ، والنهضة العلمية ، والتشريعية

ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة ، فعاد إلى مصر

وفاته

وألحّ عليه المرض ، إلى أن وافته المنية بمصر في منزله بالحلمية الجديدة ، في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأ المصباح الذي أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة ونيفا ، وأقفلت المدارس حداداً على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقيدها وانتقل المترجم إلى عالم الخلود ، تاركا ذكرى مجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلائل الأعمال .

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هي من الوسائل الفعالة في نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر تقدم الأفكار والثقافة في المجتمع ، وقد إزدان عصر إسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة .

المجمع العلمي

المجمع العلمي هو الهيئة العلمية التي أنشأها نابليون في مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨ — طبعة أولى —) ، وقد ألغي هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالإسكندرية في عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً في عهد إسماعيل يؤدي مهمته في نشر المباحث العلمية ، وهو قائم إلى اليوم واسمه (مجلس المعارف المصري) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هي أول جمعية علمية ظهرت في مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء في ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام . والغرض من هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتبويبها وتهذيبها وتصحيحها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولي عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكالتها ورآستها الفعلية محمد عارف باشا ، وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً[13] ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التي تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه في دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهبية وتولت الجمعية طبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والأدب . منها أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات . وتاج العروس من شرح جواهر القاموس والفتح الوهبي في شرح العتبي في مجلدين ، وتاريخ ابن الوردي . وشرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبي العلاء المعري) ، وديوان ابن خفاجة . والبيان والتبيين للجاحظ . وديوان ابن المعتز ، وشرح الشيخ خالد على البردة ، وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبي الحسن . والمختصر في أخبار البشر . ومحاضرات الراغب الأصفهاني ، ورسائل بديع الزمان الهمذاني . وغير ذلك من الكتب القيمة

ولقيت الجمعية إقبالا عظيماً وتعضيداً كبيراً من الطبقات الممتازة في المجتمع . إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ — ١٨٧٠ م) ٦٦٠ ونيف . وردت أسماؤهم في ذيل كتاب « الفتح الوهبي » ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجا للطبقات التي اشتركت في الجمعية ، ولكي نتبين مبلغ تعضيد المجتمع في ذلك العصر للمشروعات العلمية .

إبراهيم بك حلمي من قضاة محكمة الإستئناف . إبراهيم أدهم بك وكيل محافظة الإسكندرية . السيد إبراهيم جميعي من أعيان الإسكندرية . السيد إبراهيم بك المويلحي من أعضاء المجلس الابتدائي . أبو زيد أفندي إبراهيم باشمهندس القليوبية . أترك بك أبو العز من

---

[13] عن لائحة الجمعية المنشورة في الوقائع المصرية العدد ٣٠٩ ، ٧ يوليه سنة ١٨٦٩

أعضاء مجلس شورى النواب . أحمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى . الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى من علماء الأزهر . أحمد رشيد باشا من أعضاء مجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) أحمد خيرى بك مهردار الخديو . أحمد بك عبيد مترجم الكتب العربية . الشيخ أحمد البتنونى قاضى طنطا . الشيخ أحمد الأنصارى قاضى طهطا الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالآستانة . محمد بك فتحى ناظر مدرسة الإسكندرية . أمين بك فكرى . جعفر مظهر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشريعى . الشيخ حمزة الرواوى . حسين فخرى بك (باشا) حسين شيرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى الدكتور سالم بك سالم الشيخ عبد الرحمن الإبيارى الشيخ عبد الرحمن الرافعى وعبد اللطيف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . عزيز أفندى على عمدة السبلاوين ومن أعضاء مجلس شورى النواب . عمر بك محمد عارف باشا السيد محمد بيومى مكرم السيد محمد المويلحى الدكتور محمد شافعى بك مصطفى رياض باشا يوسف صالح عمدة كفر بيجنة أحمد رستم الملايلى من أعيان الإسكندرية الشيخ سراوى عاشور عمدة بيوت ، الدكتور حسن بك عوف الشيخ حسين حمزة من أعضاء مجلس شورى النواب حماد بك عبد العاطى على ذو الفقار باشا وزير الخارجية . محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام إبراهيم أفندى هلال مأمور ضبطية مصر أحمد صدقى باشا ناظر الدائرة السنية أحمد فريد بك ناظر قلم الخاصة السيد أحمد مشرفة . محمد دهنى بك ناظر [illegible] الشيخ أحمد باشا من علماء الإسكندرية . إسماعيل أفندى عبد الخالق وكيل ديوان الروزنامة إسماعيل بك رمزى ناظر مدرسة المبتديان أمين بك سيد أحمد السيد حسن موسى العقاد السيد حسن المرقى شفيق بك مصور إلخ إلخ

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدى مهمتها إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسهما على عرش الخديوية . وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، فهاجر إلى الآستانة خوفا من بطش إسماعيل ، وتعطلت الجمعية

الجمعية الجغرافية الخديوية (أسست سنة ١٨٧٥)

هى من أهم المنشآت العلمية فى مصر ، أسسها إسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألمانى الدكتور جورج شوينفرت Schweinfurth . ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات . وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعنا فى كثير من المواضع إلى المباحث القيمة والخرائط الدقيقة المنشورة فى مجلتها

الجمعية الخيرية الإسلامية

أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) بمسعى السيد عبد الله نديم ومساعده سعد الله بك حلابه من سراة الثغر ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الأجنبى فى البلاد ، وتدخل الأجانب فى شئونها ، واستئثارهم بمرافقها .

قامت هذه الجمعية بفتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق وإعانة الفقراء ، وقد أنشأت مدرسة بالإسكندرية لتعليم البنين والبنات ، وعقد فيها محفل للخطابة ، كانت تلقى فيه الخطب والمحاضرات مرة فى الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة راتبا «سنويا» على سبيل الإعانة ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة «التجارة»(١٤) لأديب اسحق نبأ إنشاء هذه الجمعية بالإسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة وأخرى بدمياط

وهى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى أسست سنة ١٨٩٢

الصحافة

لم يظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الوقائع المصرية» التى أنشأها محمد على باشا . وكانت الحكومة تتولى إصدارها . ولم يظهر غيرها من الصحف

---

(١٤) العدد ٢٩ من السنة الأولى - ابريل سنة ١٨٧٨

العربية ، وهذا من مظاهر الجمود الذى أصاب النهضة العلمية فى ذلك العهد

ثم نشطت حركة الصحافة والأدب فى عصر إسماعيل ، فكان من بعض عوامله تأسيس صحف علمية وأدبية وسياسية ، وقد نبغ بالصحافة فى ذلك العصر طائفة من نخبة الكتاب والأدباء المصريين ، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين ، وثمة عامل آخر كان له الأثر فى نهضة الصحافة ، والنهضة العلمية والأدبية عامة ، وهو تعضيد الخديو إسماعيل لها ، ومساعداته الأدبية والمالية للقائمين عليها .

وإنا ذاكرون هنا الصحف والمجلات التى ظهرت فى عصره

١ — حسبنا أولا أن نذكر «الوقائع المصرية» فقد استمرت تصدر بانتظام فى عهد إسماعيل ، ورقى أسلوبها الإنشائى ، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر ، فكانت تنشر من الفصول العلمية والأدبية ، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجية ، وتنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وتسهب فى وصف الحفلات العامة ، وخاصة الحفلات العلمية والمدرسية ، ثم حفلات سباق الخيل ، التى كان لها شأن كبير فى ذلك العصر ، وتعد «الوقائع» سجلا مصورا لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية فى عصر إسماعيل ، وهى من أهم المراجع الرسمية التى لا يستغنى عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث

ونشأ إلى جانب الوقائع صحف أخرى علمية ثم سياسية

• الصحف العلمية والأدبية والحربية

٢ - أسبقها مجلة (اليعسوب) ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وهى مجلة شهرية طبية ، أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وإبراهيم الدسوقى ، ولم تعمر طويلا

٣ - مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان ناظرا للمعارف العمومية ، وهى من حسنات عهده ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها ولا تبغى من ورائها والغرض منها إحياء الأدب العربى ونشر المعارف الحديثة ، أسندت رياستها إلى العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وتولى تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعة (باشا) ، مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) وقتئذ ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم فى ذلك العصر ، أمثال على مبارك باشا ، وعبد الله بك فكرى (باشا) ، والشيخ حسين المرصفى ، ورفاعة بك رافع ، وابنه على بك فهمى رفاعة ، والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومحمود باشا الفلكى ، وإسماعيل بك مصطفى الفلكى (باشا) ، ومحمد قدرى بك (باشا) والدكتور محمد بك بدر ، ومحمد بك بدا المعلم السابق الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، والسيد بك صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود أفندى ، محرر صحيفة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، فكانت المجلة ميدانا يبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها للمباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠) ، واستمرت تصدر ثمانى سنوات ، فأفادت الثقافة فائدة كبرى ، قال عنها المسيو دور بك مفتش التعليم العام على عهد إسماعيل فى كتابه(١٥) : «وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف ، لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابغين منهم لنشر أبحاثهم القيمة ، فكان ذلك يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم» .

وقد أصاب المسيو دور فى قوله ، فإن المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيت فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم إسماعيل باشا صبرى ، تتجلى فيها روح الشعر الحديث ، وكان وقتئذ «الشاب النجيب إسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة» ،

فمنها قصيدة فى مدح الخديو إسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الأولى(١٦) قال فى مطلعها :

سفرت فلاح لنا هلال سعود   وثنى الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية قال فى مطلعها(١٧) :

غرتك الغراء أم طلعة البدر   وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل أرخى سدوله   وثغرك أم عقد تنظم من در

---

(١٥) التعليم العام فى مصر ص ٢٥٣ للمسيو دور بك

(١٦) عدد [illegible] سنة ١٢٨٧

(١٧) ربيع الآخر سنة ١٢٨٨

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية(١٨) استهلها بقوله

لا والهوى العذرى والوجد عنك بعدول قلبك لا يجدى
إنى مع الصدّ وطول الجفا باق على ميثاق والعهد

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر فى مجلة روضة المدارس(١٩)

٤ و ٥ جريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية) وقد سبق الكلام عنها ص (١٨٤)

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية :

٦ صحيفة (وادى النيل) ، أنشأها الشاعر الناثر عبد الله أبو السعود أفندى سنة ١٨٦٧ وهى أقدم صحيفة سياسية ظهرت فى مصر ، وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع فى شكل المجلات ، وظلت تصدر إلى أن ألغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م)

٧ – جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ أنشأها إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عددان ، ثم عطلها إسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية ، إذ حذره عواقب نهجها وما تؤدى إليه من إثارة الخواطر

٨ – وأنشأ ميخائيل أفندى عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت سياستها وطنية ، ونهجها حرة ، وقد استمرت تصدر إلى ما بعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠

٩ و ١٠ – وظهرت سنة ١٨٧٧ جريدة (مصر) وهى جريدة أسبوعية ، محررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأ سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالإسكندرية باسم جريدة (التجارة) ، وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية ، تجلت فيها تعاليم جمال الدين الأفغانى وروحه ، وكانت له فى الجريدتين بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يمليها على تلاميذه وقد ألغاها

---

(١٨) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨
(١٩) من كتابنا ، عصر محمد على ، ص٤٩٧ (الطبعة الأولى)

رياض باشا سنة ١٨٨٠

١١ – جريدة روضة (الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى نجل عبد الله أبو السعود أفندى ، أنشأها بدل صحيفة (وادى النيل) التى عطلتها الحكومة كما أسلفنا ، وكان عبد الله أبو السعود أفندى حرر قسمها السياسى إلى آخر أيامه

وقد ذكرها على باشا فى الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٩ ، وذكرها نصاً أديب اسحق فى جريدة (التجارة) بالعدد الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨

١٢ – جريدة (الكوكب الشرقى) لصاحبها سليم (باشا) الحموى ، صدرت بالإسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعمر طويلا وذكرت « الوقائع المصرية » بالعدد ٤٢٩ الصادر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموى أنشأ مكتبة بالإسكندرية وقاعة للمطالعة بها

١٣ – جريدة (الأهرام) لسليم (بك) وبشارة (باشا) تقلا صدرت سنة ١٨٧٥ بالإسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت فى مبدأ صدورها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت فى مبدأ ظهورها أسبوعية ، ثم صدرت بجانبها جريدة (صدى الأهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انفردت (الأهرام) بالظهور وصارت يومية ، واستمرت تصدر إلى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية

١٤ جريدة (الإسكندرية) جاء ذكرها فى جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيه سنة ١٨٧٨ إذا قالت إن سليم أفندى حموى عزم على إصدار جريدة أسبوعية تسمى (الإسكندرية) ، وقد صدرت فعلاً فى يوليه سنة ١٨٧٨ .

١٥ جريدة (الكوكب المصرى) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد ٣ من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩)

١٦ – (مرآة الشرق) ، وهى جريدة سياسية أنشأها سليم عنحورى ، ثم تنحى عنها فى أبريل سنة ١٨٧٩ ، وتولاها إبراهيم أفندى اللقانى (بك) بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغانى

١٧ و ١٨ – وأنشأ الشيخ يعقوب صنوع صحيفتين سياسيتين ، وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهى صحيفة معارضة لإسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنوع مصرياً إسرائيلياً ، متعلقا بالصحافة ، يميل

وأنشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير فى إحياء نفائس الكتب القيمة فى الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة .

من هذه المطابع مطبعة جمعية المعارف المتقدم ذكرها .

والمطبعة الأهلية القبطية التى جلبها من أوروبا الأنبا كيرلس الرابع سنة ١٨٦٠ فى عهد سعيد باشا ، وهى أول مطبعة أنشئت فى مصر بعد مطبعة بولاق .

ومطبعة (وادى النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود أفندى ، وكان يطبع فيها صحيفة (وادى النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (المطبعة الوطنية) بالإسكندرية .

والمطبعة الوهبية ، أنشئت سنة ١٢٨٠ هـ لمؤسسها مصطفى أفندى وهبى (بك) ، ومطبعة أركان حرب الجيش المصرى التى سبق الكلام عنها .

ومن أمهات الكتب التى طبعت فى ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير فى النهضة العلمية والأدبية : كتاب المثل السائر ، لأبى الفتح الموصلى ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبى . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات ، وإحياء العلوم للغزالى ، وتفسير الفخر الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك من نفائس الكتب .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

اقترن عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية التى ظهرت فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولهذه النهضة عوامل شتى ، أولها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا فى مدارس والبعثات أو فى الأزهر من عهد محمد على وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالى السنين ، وخاصة فى عهد إسماعيل ، إذ كان يشجع أكثرهم ويعضدهم ، ويسند إليهم المراكز الممتازة فى الحكومة ويغدق عليهم بالمنح السخية ، فكانت هبات إسماعيل أكبر عضد للنهضة العلمية والأدبية ، وكان لانتشار التعليم فى المدارس

عامة أثر كبير فى نموها وتقدمها ، إذ تألفت بيئة صالحة من المتعلمين تؤيدها وتناصرها بالإقبال على ما تنتجه قرائح العلماء والأدباء ، ولولا هذا الإقبال لخمدت القرائح ، وكسدت سوق العلم والأدب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجىء السيد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٧١ إلى مصر وإقامته بها ، فقد نفخ فى الحياة العلمية والأدبية ثم السياسية روحاً من اليقظة خطت بها خطوات واسعة إلى الأمام .

ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقدم الطباعة ، وظهور الصحافة ، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ، ففى عصر إسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والأدبية التى هى أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الأدب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدا على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القريحة ، وبلاغة العبارة ، وتهذب أسلوب الكتابة والإنشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسجع المتكلف ، وغلبت عليه سمة الترسل البليغ والمعانى الطريفة .

وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين توفروا على إخراج الكتب القيمة فى الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما إلى ذلك .

وارتقى مستوى المناصب الحكومية ، إذ تولاها المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة فى فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول .

وكان للنهضة العلمية والأدبية أثرها فى تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، كما سنعود إليه فى موضعه

والآن يسوقنا الحديث إلى الكلام عن أعلام هذه النهضة ، وسنقصر القول على خلاصة وجيزة لتراجم أولئك الأعلام الذين اكتملت شخصياتهم فى هذا العصر ، فإن هذه الخلاصة تجمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية فى عصر إسماعيل .

أعلام الأدب في عصر إسماعيل

الشيخ
حسين
المرصفى

جمال الدين الأفغانى

الشيخ
عبد الهادى نجا
الأبيارى

عبد الله باشا فكرى

على باشا مبارك

الشيخ على الليثى

محمد بك عثمان جلال

محمود باشا سامى البارودى

ابراهيم بك المويلحى

على ابو النصر المنفلوطى
محمد عارف باشا
ابراهيم بك مرزوق
الزرقانى

على بك فهمى رفاعه
امين بك فكرى
الشيخ حمزه فتح الله

ابراهيم بك اللقانى
احمد بك فتحى
عثمان مدوخ

اديب اسحق

الشيخ محمد عبده

عبد الله نديم

عبد الله
ابو السعود

رفاعة بك رافع الطهطاوى

محمود
صفوت
الساعاتى

الشيخ محمد قطة العدوى
الشيخ حسن الطويل
ابو الوفا نصر الهورينى

عائشة عصمت تيمور

الشيخ احمد عبد الرحيم
الشيخ مصطفى سلامه
الشيخ ابراهيم الدسوقى

احمد بك عبيد
خليفه افندى محمود
محمد افندى عبد الرازق

السيد صالح مجدى بك

تادرس بك وهبى
محمد افندى حفنى
عبد السلام حلمى

أعلام الأدب فى عصر إسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعة بك عصر إسماعيل ، وله الفضل الكبير على العلم والأدب كما أسلفنا فى ترجمته (عصر محمد على ص ٤٧٠ من الطبعة الأولى و٣٨٢ من الطبعة الثانية) .

وعلى باشا مبارك هو صاحب الأيادى البيضاء على الأدب والعلم والتعليم فى مصر كما بينا ذلك فى ترجمته .

السيد جمال الدين الأفغانى

هو باعث روح الحياة فى النهضة العلمية والأدبية والسياسية ، فواجب أن نعده فى مقدمة أعلام الأدب فى عصر إسماعيل ، وسنترجم له فى الفصل الثانى عشر

الشيخ حسين المرصفى

(توفى سنة ١٨٨٩)

شيخ الأدباء فى ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ، نشأ فى (مرصفى) بالقليوبية ، وهى بلدة نجبت طائفة من أعلام الأدب والفقه واللغة ، كان والده الشيخ أحمد حسين المرصفى من أئمة العلم فى عصره ، وانقطع للتدريس بالأزهر ، ونشأ المترجم ميالا للعلم والأدب . ذكر عنه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) أنه من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له اليد الطولى فى كل فن ، وقل أن يسمع شيئا إلا وحفظه مع رقة المزاج ، وحدة الذهن ، وشدة الحذق ، ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر كثيرا من الكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب فى دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية . وله مؤلفات قيمة منها

١ – الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ هـ فى جزأين

٢ – وله كتاب فى الأدب والاجتماع سماه (الكلم الثمان) فى الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية

محمود باشا سامى البارودى

(١٨٤٠ – ١٩٠٤)

باكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الأدبية والحربية فى عصر إسماعيل ، وسطع نجمه فى سماء الأدب على ذلك العهد ، ثم اقترن اسمه بعصر الثورة العرابية ، وكان له فيها الدور الكبير ، وسنترجم له فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى)

عبد الله أبو السعود أفندى

(١٨٢٠ – ١٨٧٨)

أول صحفى سياسى ظهر فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى دهشور قرب الجيزة ، وأصله من برقة ، تلقى العلم فى مدرسة البدرشين ثم انتقل إلى مدرسة الألسن ، وتخرج فيها على يد رفاعة بك ، فهو من تلاميذه الأفذاذ . وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، ونبغ فى فنون الأدب والشعر ، وارتقى فى المناصب حتى صار فى عهد إسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) صحيفة (وادى النيل) كما تقدم بيانه .

ونظم حوادث مصر فى كتاب سماه (منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) ، ووضع كتاب (الدرس التام فى التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ ، وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمريت باشا ... إلخ وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة محمد على وشارك رفاعة بك وتلاميذه فى ترجمة الكود (قانون نابليون) ، وتولى هو وحسن أفندى فهمى المصرى تعريب قانون المرافعات

وعين سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفى فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من نوابغ الأدباء والعلماء فى عصر إسماعيل

الشيخ محمد عبده

(توفى سنة ١٩٠٥)

الأستاذ الإمام ، وفيلسوف الإسلام ، « وأكتب العلماء وأعلم الكتاب[٣٣] » ، كانت نشأته العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل ، وانضوى إلى لواء السيد جمال الدين الأفغانى ، وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فكان لهذه الفترة من الزمن الأثر الأكبر فى اتجاهه العلمى والروحى ، وكتب بعض الرسائل فى صحيفتى (التجارة) و (مصر) لأديب إسحق ، ثم عظمت شخصيته فى عصر الثورة العرابية كما سيجىء بيانه فى كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) .

إبراهيم بك المويلحى

(١٨٤٦ – ١٩٠٦)

زعيم الكتاب فى عصره ، وأستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب والإنشاء ، من أسرة المويلحى الشهيرة ، وهى أسرة عربية ، أصلها من « المويلح » من ثغور الحجاز التى كانت تابعة لمصر ، وكان جده السيد إبراهيم المويلحى من كبار موظفى الحكومة فى عهد محمد على ، يميل للأدب والأدباء ، فورث عنه المترجم هذا الميل ، وكان أبوه من سراة مصر ، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته

ولد المترجم فى أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) وترعرع فى حجر والده ، فى مهاد العز والنعمة ، إلى أن توفى أبوه سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وهو لا يتجاوز العشرين بكثير فتولى تجارة أبيه مشاركاً أخاه عبد السلام المويلحى (باشا) ، ولكنهما لم يوفقا فى التجارة وآل بيت المويلحى من الناحية المالية إلى الخسران ، لولا مروءة الخديو إسماعيل ، فقد نظر إلى هذا البيت نظرة عطف وسخاء ، فوهب المترجم وأخاه من المال ما فى ديونهما ثم أنعم على إبراهيم بالرتبة الثانية ، وجعله قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره وأنعم على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وأبقاه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم

---

[٣٣] تعبير « المنفلوطى » فى « مختاراته » .

وظهر ميل المترجم إلى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا فى تأسيس جمعية المعارف التى عنيت بإحياء الكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشترك مع محمد بك عثمان جلال فى إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها إلا عددان وصدر أمر إسماعيل بإلغائها

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد اتصل من طريقه بالحركة السياسية التى ظهرت فى عصر إسماعيل ، والتى انتهت بوضع اللائحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كما سيجىء بيانه فى موضعه ، وعين سكرتيراً لإسماعيل راغب باشا وزير المالية فى الوزارة الوطنية ، وكان المترجم من رجال إسماعيل المخلصين لشخصه ، المعروفين بكرمه ، ولازمه فى منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلالها بالصحافة حيناً ، ثم ذهب إلى الآستانة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف ، وظل فى هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وكتب فى الصحف مقالات جامعة فى الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها فى كتاب سماه (ما هنالك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق) وهى صحيفة أسبوعية نالت فى عالم الأدب والكتابة مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التى كادت تبلغ عليا مراتب البلاغة والإنشاء لولا ما شابها من الإبداع فى السجع ، والتقلب مع الأهواء ، وتوفى فى ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ .

محمد بك عثمان جلال

(١٨٢٨ – ١٨٩٨)

واضع أساس القصة الحديثة فى الأدب المصرى ، ولد فى (وناالقس) بمديرية بنى سويف ، وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى (وكانت لم تزل مدرسة إعدادية) ، ثم فى مدرسة أبى زعبل ، ثم فى مدرسة الألسن ، فهو من تلاميذ رفاعة بك رافع الطهطاوى ونبغ فى العلوم وبدا عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائى يجمع تعريبه مع تمصير ما يعربه أحياناً وله كتاب (العيون اليواقظ) وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه . ويعد هذا الكتاب أعظم آثاره الأدبية وأشهرها ، وعرب رواية (بول وفرجينى)

عن الفرنسية . ووضع كتاب (التحفة السنية في لغتي العرب والفرنسوية) منظومة ، وعرب بعض الروايات التمثيلية ، منها (ترتوف) لموليير ، عربها بتصرف وأسماها (الشيخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية ، وقد مثلت هذه الرواية على المسارح في مصر ، وله أرجوزة في رحلة الخديو سنة ١٨٨٠ .

أدرك المترجم عصر محمد علي وخلفائه إلى أوائل عهد عباس الثاني ، وتنقل في مناصب عدة في الحكومة ، وآخر ما تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ ، وأحيل إلى المعاش سنة ١٨٩٣ ، وتوفي سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

عائشة عصمت تيمور

(١٨٤٠ - ١٩٠٢)

« طليعة اليقظة النسوية[٢٤] » في تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من المصريات في الشعر والأدب ، نشأت من بيت كريم ، إذ كان أبوها إسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام في عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهي بين السابعة والثالثة عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعني بتثقيفها ، وأحضر لها أساتذين لتأخذ عنهم الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهي في الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحبب إليها إجادته ، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ، وتزوجت في الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولي ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب حينا . فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت إليها شئون المنزل ، وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب . وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم في هذا العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت إلى نظم الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا ، ثم عادت إلى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ .

---

(٢٤) تعبير الكاتبة الأديبة (الآنسة مي) في رثائها لعائشة عصمت تيمور

وحاصل [illegible] أدبه [illegible] وهو [illegible] شعره [illegible] وشكره [illegible] ديوان [illegible] ونتائج الأحوال في الأقوال والأعمال ، وهي قصة أدبية كتبها بأسلوب [illegible]

عبد الله باشا فكري

(١٨٣٤ - ١٨٨٩)

من علماء الأدب في عصر إسماعيل ، ولد بمكة المشرفة ، وكان أبوه محمد أفندي بليغ قد تخرج في المدارس الملكية التي أنشأها محمد علي ، ومهر في العلوم الرياضية ، إلى أن صار من المهندسين والتحق بخدمة الحكومة وحضر مواقع حربية ، أهمها في حرب الموره ، فعقد في الموره على والدة المترجم ، وعاد بها إلى الحجاز ، فوضعت بمكة غلاما هو صاحب الترجمة ، وسمي باسم جده الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر ، ثم عاد بليغ أفندي إلى مصر ، وما زال في خدمة الحكومة ، حتى تقلد منصب باشمهندس الشرقية ، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفي سنة ١٢٦١ هـ والمترجم لم يتجاوز الحادية عشرة ، فأخذ بطلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق ، وتعلم اللغة التركية أيضا . والتحق بالمناصب مع استمراره حينا على تلقي العلوم بالأزهر ، وانتظم في عهد سعيد باشا بالمعية السنية ، وتولى كتابة الإنشاءات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية إلى عهد إسماعيل ، ورافقه في رحلته إلى الآستانة ، وظل متصلا به ، مشمولا برعايته وعهد إليه سنة ١٢٨٤ ملاحظة تعليم أنجاله الأمراء فاضطلع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التي تلقى إليهم وأحيانا يدرس لهم بنفسه .

وكان يتولى كتابة رسائل الخديو إسماعيل في مهام الدولة ، فنهض بأسلوب الكتابة الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور في (الفوائد الفكرية) ، وتدرج في المناصب على عهد إسماعيل وعين [illegible] المكاتب الأهلية بوزارة المعارف فجعل وكيلا لها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلا لنظارة المعارف في يوليه ١٨٧٩ . واستمر يشغل هذا المنصب إلى ديسمبر سنة ١٨٨١ . ولما تألف مجلس النواب على عهد الثورة العرابية ، فجعل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامي البارودي الوزارة في فبراير سنة ١٨٨٢ ،

اشترك المترجم فيها متولياً وزارة المعارف العمومية . فكان عضواً فى « وزارة الثورة » التى عارضت الخديو توفيق باشا واستقالت احتجاجاً على مسلكه فى مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديو على المترجم ، فلما أخفقت الثورة كان من المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك فى الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أثبت براءته منها . ولكن معاشه كان موقوفاً من يوم اعتقاله ، والتمس من توفيق باشا العفو عنه فى قصيدة طويلة أبان فيها عن إخلاصه وولائه لسدته ، فأمر بإعادة معاشه ، وفى سنة ١٣٠٦ هـ ندبته الحكومة لرآسة الوفد المصرى فى المؤتمر الذى انعقد بمدينة استوكهلم عاصمة السويد والنرويج ، وعرج على بعض بلاد أوروبا ، يصحبه نجله أمين باشا فكرى ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أديباً وشاعراً مجيداً

الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى

(١٨٢١ – ١٨٨٨)

من كبار الأدباء والكتاب فى ذلك العصر ، وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالحبر الهمام وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب واللوذعى الأديب ، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الابيارى ، ولد فى إبيار غربية ، وتلقى العلم فى الأزهر على يد شيوخه ، ونبغ فى علوم اللغة والفقه والأدب ، فذاعت شهرته ، وعهد إليه الخديو إسماعيل تثقيف أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الأمير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر للتدريس فى الأزهر وفى بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء كالشيخ حسين المرصفى والشيخ محمد البسيونى . ولما تولى توفيق مسند الأريكة الخديوية قربه إليه وجعله إماماً للمعية ومفتيها . وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أديباً . راسل أعلام الأدب فى سائر الأقطار كأحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ إبرهيم الأحدب . وله مؤلفات قيمة فى الأدب واللغة بلغت أربعين كتاباً » .

السيد عبد الله نديم

(١٨٤٣ – ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الأديب ، والخطيب الوطنى المفوّه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن الذين استمسكوا بتعاليمه ومبادئه طول حياته ، ولد بالإسكندرية ، ونشأ محباً للأدب ، ميالاً للخطابة والشعر ، جريئاً مقداماً ، مولعاً بالحرية . بدأت شخصيته الأدبية والسياسية تظهر فى أواخر عهد إسماعيل ، وبدأ ينشر رسائله فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، التى ضمت أعيان الثغر ووجهاءه ، وكانت باكورة أعمالها إنشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ، وهو أكبر خطباء الثورة ، وله فيها دور كبير سنفصله فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) .

أديب إسحق

(١٨٥٦ – ١٨٨٥)

الشاعر الناثر ، والصحفى السياسى الحر ، ولد فى دمشق ، وبدا منه منذ صباه الميل إلى الشعر والأدب ، والتعلق بالحرية ، فما أن جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من أخص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازتا بالأسلوب البليغ والروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيهما أحياناً ، وكذلك الشيخ محمد عبده ، ولقيت الصحيفتان إقبالاً عظيماً ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب إسحق مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل إلى باريس حيث أصدر فيها جريدته باسم (القاهرة) ، وهناك أصيب بعلة الصدر ، وعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى مصر فى عهد الثورة العرابية ، وعاد إصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيساً لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتباً ثانياً لمجلس النواب ، ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا إلى سوريا ، واشتدت به علة الصدر ، فجاء مصر للاستشفاء ، فلم تتقدم صحته ، فعاد إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوماً حتى عاجلته المنية سنة ١٨٨٥ وهو فى ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره فى كتاب اسمه « الدرر » .

الشيخ الليثى

(توفى سنة ١٨٩٦)

شاعر الخديو إسماعيل، وشيخ الندماء فى عصره، كان أديباً ذكى الفؤاد، حاضر البديهة، لطيف العشرة، حلو الحديث، خفيف الروح، محباً للخير، محبوباً من معاصريه، قربه إليه الخديو، وجعله مفتشاً بالمعية، وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته، ويحترمه ويأنس بسمره وأحاديثه، وله ديوان شعر لم يطبع

على أبو النصر المنفلوطى

(توفى سنة ١٨٨١)

من شعراء صدر العصر الحديث، ولد فى منفلوط، وتعلق منذ صباه بالشعر والإنشاء، فقربه إسماعيل إليه وجعله مفتشاً بالمعية، ونال جوائزه وهباته، ورافقه فى سفره إلى الأستانة فى عهد السلطان عبد العزيز، وله ديوان شعر طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ

الشيخ حسن الطويل

(توفى سنة ١٨٩٩)

هو أنبغ من درس المنطق فى مصر قبل حضور السيد جمال الدين الأفغانى، ومن كبار علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم، وجهابذة المنطق والعلوم الرياضية، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخبة من علماء مصر ونبغائها. توفى فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٩

السيد صالح مجدى بك

(١٨٢٧ – ١٨٨١)

كاتب شاعر، ومعرب ومؤلف، ولد بقرية أبى رجوان القبلية سنة ١٢٤٣ هـ وتلقى العلم فى مكتب حلوان من المكاتب النظامية التى أنشأها محمد على باشا، ثم فى مدرسة الألسن، فأتقن علوم اللغة العربية، ودرس الفرنسية، ومهر فى التعريب على يد أستاذه رفاعة بك رافع الطهطاوى، وبعد أن تخرج فى مدرسة الألسن التحق بقلم الترجمة، وتخصص فى تعريب كتب الرياضيات، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسخانة، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة. وعرب كثيراً من الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس فى المدارس، «وله غير ذلك من الكتب التى تجل عن الحصر» كما يقول عنه العلامة على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص ٢٢)، وبعد أن قضى عشر سنوات يتولى التدريس فى مدرسة المهندسخانة انتقل إلى الآلاى الهمايونى والكبورجية، وتولى ترجمة وتصحيح ما يعرب من الفنون الحربية، وانتقل فى عهد إسماعيل إلى قلم الترجمة المستجد، واشترك فى ترجمة (الكود) قانون نابليون، وتولى هو تعريب قانون تحقيق الجنايات، واستمر يرقى فى المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧ هـ مأموراً لإدارة المدارس ولما أنشئت المحاكم المختلطة عين قاضياً بمحكمة مصر المختلطة، وشغل هذا المنصب حتى توفى سنة ١٨٨١، وكان شاعراً أديباً، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢ هـ، وله مقالات أدبية فى مجلة (روضة المدارس)، ووضع كتاباً لم يطبع فى ترجمة حياة رفاعة بك رافع اسمه (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن)، وقد أحصى العلامة على باشا مبارك مؤلفاته وتراجمه فبلغت خمسة وستين كتاباً ورسالة، وكتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر

إبراهيم بك مرزوق

(١٨١٧ – ١٨٦٦)

شاعر أديب، أدرك أوائل عهد إسماعيل، وهو من تلاميذ رفاعة بك، توفى بالخرطوم سنة ١٨٦٦، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظهر باشا حكمدار السودان وسماه «الدر البهى المنسوق، بديوان إبراهيم بك مرزوق» طبع ببولاق سنة ١٢٩٤ هـ

أبو الوفاء نصر الهورينى

(توفى سنة ١٨٧٤)

من خريجى بعثات محمد على، وكان يجيد الفرنسية، وله كتاب «المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية»، وكتاب «سلوة المصاب على فراق الأحباب»

محمود صفوت الساعاتى

(توفى سنة ١٨٨٠)

شاعر أديب، توجه إلى الحجاز، فأكرم أمير مكة مثواه، وأبقاه عنده مدة ثم عاد إلى مصر والتحق بالمعية، وعرف بالساعاتى لبراعته فى فن الساعات، وإن لم يحترفه، وله ديوان مطبوع سنة ١٩٢٢

محمد عارف باشا

من أفاضل علماء ذلك العصر وأدبائه فى اللغتين العربية والتركية، وقد تجلى ميله إلى العلم والأدب فى إنشائه جمعية المعارف التى سبق الكلام عنها.

أحمد بك عبيد

(توفى سنة ١٨٨٠)

من نوابغ خريجى مدرسة الألسن، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية، وله تراجم فى العلوم الحربية والرياضية، وترجم عن الفرنسية تاريخ بطرس الأكبر، وكان وكيلاً للمحكمة التجارية بالقاهرة، ثم قاضياً بمحكمة الإسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥

خليفة أفندى محمود

من خريجى مدرسة الألسن، ومن أنبغ تلاميذ رفاعة بك، التحق بقلم الترجمة وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والأدبيات فى هذا القلم، وله تراجم كثيرة فى التواريخ منها (إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ الأمبراطور شارلكان الذى عربه بعنوان (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شارلكان) لروبرتسون وليم المؤرخ الانجليزى فى ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦ هـ وأدرك أوائل عصر إسماعيل وتوفى سنة ١٢٨١ هـ(٢٥) (١٨٦٤)

---

(٢٥) كما جاء فى الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٣

بقية أعلام الأدب

وثمة أدباء آخرون مثل الشيخ محمد قطه العدوى أحد كبار الأساتذة فى مدرسة الألسن، وقد أدرك أوائل عصر إسماعيل، والشيخ أحمد عبد الرحيم الأستاذ بمدرسة الألسن، والشيخ مصطفى سلامة، وكلاهما من محررى الوقائع المصرية، والشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى كبير مصححى الكتب العلمية واستاذ المستشرق (لين) والمتوفى سنة (١٨٨٣)، وإبراهيم بك اللقانى أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى، وكان يكتب فى جريدتى (مصر) و(التجارة) ثم فى (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف والزرقانى الشاعر الأديب ومحمد أفندى عبد الرازق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب (غاية الأرب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سيديو طبع سنة ١٢٨٩ هـ والشيخ حمزة فتح الله وقد بدأت كتاباته اللغوية تظهر فى ذلك العهد، وأمين بك فكرى نجل عبد الله باشا فكرى، وعلى بك فهمى رفاعة نجل رفاعة بك، وأحمد بك فتحى ناظر مدرسة رأس التين. وتادرس أفندى وهبى (بك). ومحمد أفندى فنى، وعبد السلام أفندى سلمى. والشيخ عثمان مدوخ، وهؤلاء ظهرت باكورة آثارهم الأدبية فى مجلة (روضة المدارس) .. إلخ. إلخ.

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك. مصطفى بهجت باشا، محمد مظهر باشا. أحمد فايد باشا، حسين باشا فهمى المعمار، أحمد بك السبكى. حسن بك نور الدين. وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى «عصر محمد على» ص ٥١٥ وما بعدها (من الطبعة الأولى).

حسين حسنى باشا وقد ترجمنا له فى الكتاب الحالى ص ٢٥٣

محمود باشا الفلكى

(١٨١٥ - ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكى، أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات، ولد سنة ١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م ببلدة الحصة بمديرية الغربية، وعنى أخوه بتربيته وأدخله مدرسة الإسكندرية التى أنشئت سنة ١٨٢٤ فى عهد محمد على، فارتقى إلى رتبة بلوك أمين.

وكان أخوه قد سبقه إلى دخول هذه المدرسة وتخرج منها ضابطاً فى الأسطول ، ثم سعى [illegible] المترجم إلى مدرسة المهندسخانة بمصر ، فبذ أقرانه من التلاميذ فى العلم والذكاء وحسن الاستعداد ، وتخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ وكان من أوائل الناجحين ، فعين مدرساً مساعداً للعلوم الرياضية بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) . وبقى يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض الكتب الفرنسية فى الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية فى المؤلفات التى وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المهندسخانة ومن تلاميذه بها إسماعيل (باشا) الفلكى ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويما لسنة ١٢٦٤ هـ تدرج فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبيّن مواقع الشمس والقمر لتلك السنة . وعُرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكى) ، الذى لازمه طول حياته .

وفى سنة ١٢٦٦ هـ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعتزم عباس باشا الأول إعادة تنظيم رصدخانة بولاق (دار الرصد) المنشأة فى عهد محمد على ، فأوفد ثلاثة من نوابغ المهندسين إلى باريس للتخصص فى الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسخانة وحسين أفندى إبراهيم ، وإسماعيل مصطفى الفلكى ، وكانا قد أتما دراستهما بالمدرسة . فسافروا إلى أوروبا سنة ١٨٥١ ، ومكث المترجم نحو تسع سنوات مكبا على استكمال العلوم حتى نبغ فى الرياضيات والفلك

وكان يواصل الحضور بدار الرصد فى باريس ، وزار دور الرصد فى مختلف النواحى بأوروبا ، وظهر نبوغه هناك بإدخاله بعض إصلاحات فى الآلة المسماة بالتيودوليت ، ونشر بعض مباحث فلكية فى المجلات الأوروبية ، ووضع أثناء دراسته بباريس الرسائل الآتية

١ – رسالة عن التقاويم الإسلامية والإسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل .

٢ – رسالة عن التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها مولد النبى عليه الصلاة والسلام ونشرت فى المجلة الأسيوية ثم عربها الأستاذ أحمد زكى (باشا) بعنوان (نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام)

٣ – رسالة عن عمل (كات)

٤ – رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ إلى المجمع العلمى بفرنسا ونال [illegible] أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد إلى مصر فى عهد سعيد باشا سنة

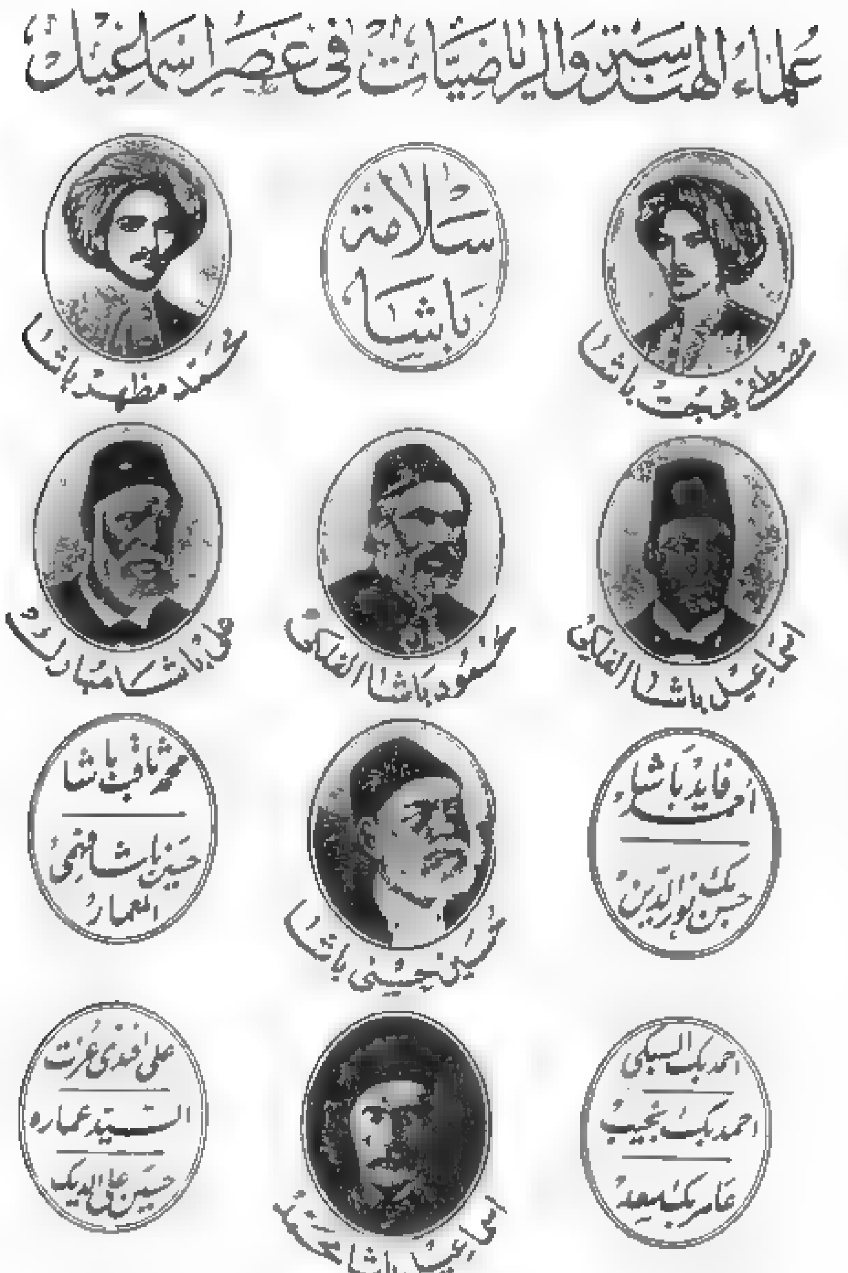
علماء الهندسة والرياضيات فى عصر إسماعيل

مصطفى بهجت باشا
سلامة باشا
محمد مظهر باشا
إسماعيل باشا الفلكى
محمود باشا الفلكى
على باشا مبارك
أحمد فايد باشا
حسين بك نور الدين
حسين حسنى باشا
محمد ثاقب باشا
حسين باشا فهمى المعمار
أحمد بك السبكى
أحمد بك نجيب
عامر بك سعد
إسماعيل باشا محمد
على أفندى عزت
السيد عمارة
حسين على الديك

١٨٥٩ . فأنعم عليه برتبة أميرالاى ، وعهد إليه وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى فاضطلع بهذه المهمة وشرع فى تخطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين . «ورتب [illegible] وأبرز من جليل صنعه وجميل وضعه ما تحيرت منه العقول ووقفت على مقدار براعته »[٢٦]

فأنجز خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه إليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع خريطة أخرى للوجه القبلى ، وأخرى عن مدينة الإسكندرية .

وفى سنة ١٢٧٦ هـ عهد إليه سعيد باشا بالرحلة إلى دنقلة لملاحظة كسوف الشمس الكلى ، فأدى هذه المهمة ، وانتهز هذه الفرصة فحقق المواقع الفلكية على النيل ، ووضع رسالة مسهبة عن هذا الكسوف قدمها إلى سعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم بباريس فنالت استحسان العلماء

وخطط معالم الإسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أول عالم مصرى كشف عن آثار الإسكندرية وموقع سورها القديم ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ، وشوارعها ، وأقنيتها ، ومراسيها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات الموسعة على عمليات الحفر عالم مصرى من الأفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب[٢٧] ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الإسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Saint genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الإسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Description de L'Egypte ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى ، بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبير Gratien Lepere بحثاً فى وصف الإسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الأفرنج والعرب ، وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان نقلا أغلبه من بحث

سان جيمس وجراتيان لوبير ، منشور فى الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب .

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم مصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهوداً كبيرة . وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض فى عهد الخديو إسماعيل باشا . أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة ، وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق .

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الإسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا فى أبحاثهم .

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم . فعين لمدينة (كانوب) مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة تابوزيريس (بوصير – غربى الإسكندرية) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب .

وله رسالة ممتعة فى التوضيح عن عمر الأهرام والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى .

قال الأميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد : «وكنت موجوداً معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى ، وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف بها يوم ثم تسم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثث المتوفين بها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء»

وله رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة إنشاء دار الرصد بمصر ، وأخرى فى توحيد موازين العملة فى الديار المصرية ، ورسالة فى المقاييس والمكاييل فى مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل)

وعين سنة ١٨٧١ ناظراً للمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذ كان وكيلا للجمعية الجغرافية ، فقد ناب عن الحكومة المصرية فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد بباريس سنة

---

(٢٦) عن ترجمة حياته بقلم إسماعيل بك (باشا) الفلكى والأميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى محاضرة ألقياها بالجمعية الجغرافية بجلسة ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ونشرت فى مجلة الجمعية بمجموعة ٢ عدد ١٢

(٢٧) عن كتابنا تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦ (طبعة أولى)

١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الآخر الذى عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١ ومن عجائبه أنه صنع مدفع الظهر بالقلعة ، وأنشأ على سطح منزله (عيدان الفلكى) مزولة تبين ساعات النهار ، ورصد من مكتبها بعد وفاته

وقد تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢ فى عهد وزارة إسماعيل راغب باشا ، وعين وكيلا لوزارة المعارف فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ ١٨٨٤

ثم عهد إليه بوزارة المعارف فى عهد وزارة نوبار باشا الثالثة سنة ١٨٨٤ ، وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية ، وظل يتولاها مع الوزارة إلى أن توفى فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٥

وقد أبنته الجمعية الجغرافية الخديوية فى اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، وألقى كل من إسماعيل بك مصطفى الفلكى والأميرالاى محمد مختار بك محاضرة فى ترجمة حياته ومآثره ، واقترح الأميرالاى محمد مختار بك اقتناء مكتبة المترجم ، وما فيها من نفائس الكتب ، وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختباراته العلمية ، وكان المترجم يفكر فى إعداد قاعة عامة للمطالعة بداره يعرض فيها لمن يرغب من محبى الإطلاع كل ما وصل إليه من نفائس الكتب والخرائط والمخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وهبت كريمته مكتبة الفقيد إلى الحكومة .

إسماعيل باشا الفلكى

(توفى سنة ١٩٠١)

هو إسماعيل باشا مصطفى الفلكى ، من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، ومن نوابغ علماء الرياضيات والفلك . ثم درسته فى مدرسة المهندسخانة ببولاق والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد محمد على بالرصدخانة القديمة التى كانت ببولاق ، ثم أوفده عباس الأول سنة ١٨٥٠ ضمن البعثة التى خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدى (باشا) الفلكى ، ومن المترجم وحسين أفندى إبرهيم ، ومكث إسماعيل أربعة عشر عاما فى فرنسا يدرس علوم الفلك . وتعمق فيه ، ومارسها فى دور الرصد ، فحاز بحق هو ومحمود باشا لقب (الفلكى) ، ومارس أيضا صناعة الآلات الفلكية ، وأتمها فى باريس ، وعاد إلى مصر فى أوائل عهد إسماعيل ، فقدر كفاءته وأنعم عليه بالرتبة الثانية ، ولما أنشأ الرصدخانة بالعباسية

عهد إليه بنظارتها ، وقد عهد إليه دراسة مشروع سكة حديد سواكن — بربر ماسود له ، فبحثه ووضع تصميما له ، ولكنه لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ فى مؤتمر الإحصاء الدولى بموسكو ، فأعجب العلماء بكفاءته وسعة إطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة ونظارة مدرسة المهندسخانة

ومن أعماله أن أصلح مقياس النيل فى أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها

١ — الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة ، طبع ذيلا لمجلة روضة المدارس .

٢ — الدرر التوفيقية

٣ — تقاويم فلكية كان ينشرها كل عام بالعربية والفرنسية

٤ — الرسالة المرضية فى المقاييس والموازين المترية معربة عن الفرنسية شاركه فى تعريبها صادق بك شنن .

سلامة باشا

هو سلامة باشا إبراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، ثم مفتش عموم ديوان (وزارة) الأشغال ، وهو من كبار المهندسين فى ذلك العصر ، وأصله من الإسكندرية . وأبوه السيد إبراهيم شرابيه بن صالح شرابيه من أهالى الثغر[٢٨] ، وله آثار يشهد له بالكفاءة فى الأعمال الهندسية ، منها أنه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلا لمظهر بك مفتش بحر الشرق (فرع دمياط) على عهد سعيد باشا . واشترك مع مصطفى بهجت باشا فى إنشاء ترعة الإبراهيمية ، وهى من أجل أعمال العمران التى شيدت فى ذلك العصر ، وفى إقامة قناطر لتقسيم على الترعة المذكورة ، وهى من أعظم قناطر الرى فى العالم .

محمد ثاقب باشا

من أهالى القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين فى عصر محمد على وإسماعيل ، حضر بعض المواقع الحربية على عهد محمد على ، وعاون مصطفى بهجت باشا فى بناء القناطر الخيرية . وصار مفتش هندسة الوجه القبلى ، توفى سنة ١٨٧٤

---

[٢٨] من حجة شرعية حررها سلامة باشا فى يوم الأحد ١٥ المحرم سنة ١٣٠٠ مسجلة بمحكمة مصر الشرعية

إسماعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس إدارة دروس المدارس الملكية ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، واشترك فى إتمام ترعة الإبراهيمية وقناطرها ، وهو الذى صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أحمد بك نجيب

أستاذ الرياضة بمدرستى أركان حرب والطوبجية ، وله كتاب (التحفة البهية فى الهندسة الوصفية) ، طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

حسين أفندى على [illegible]

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيّم فى مسك الدفاتر اسمه (عمدة الحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩) وله كتاب (عمل الدولوين المتواتر فى بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١ .

على أفندى عزت

أستاذ العلوم الرياضية بالمهندسخانة ، توفى سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصنيعة فى علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ هـ ، و (التحفة المزية فى تهذيب الأصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة المرعية فى تهذيب الأصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥ .

عامر بك سعد

أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (النفحة الزهرية فى الأعمال الجبرية) طبع سنة ١٢٦٩ هـ ، و (أحسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ ، وهو ملخص القواعد النظرية فى تصريف المياه من البحيرات والجداول

السيد عمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات فى فن أعمال المساحات) عربه عن الفرنسية بإرشاد رفاعة بك

علماء الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا ، أحمد حسن الرشيدى بك ، محمد الشافعى بك ، حسين عوف باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى «عصر محمد على» ص ٥٧١ وما بعدها (طبعة أولى)

محمد درى باشا

(١٨٤١ – ١٩٠٠)

كبير الجراحين فى عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ هـ ، وأبوه السيد عبد الرحمن أحمد من محلة أبى على القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميالا إلى الطب ، فما زال يسعى فى الانتقال إلى مدرسة قصر العينى حتى وفق إلى غرضه سنة ١٢٦٩ هـ ، والتحق بها ، وأكب على الدراسة ، ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بإلغاء مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألحقوا بإحدى الأورط العسكرية فى الجيش ، فلم يتسرب اليأس إلى نفسه ، وأخذ يعنى بالاطلاع على المعلومات الطبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . واشتغل ممرضًا فى الجيش ، وظل كذلك إلى أن أعاد سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علائم الذكاء والنبوغ ، فعين مساعداً ومعيداً للجراحة بالمدرسة

وفى سنة ١٢٧٩ هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الأطباء لإتمام دراستهم فى باريس مؤلفة من الأطباء محمد بك فوزى ، ومحمد بك عامر ، وقاسم بك فتحى ، ومحمد بك القطاوى ، وعلى بك رياض ، ومحمد بك زهران ، وعثماوى أفندى ، والمترجم ، وكان أصغرهم سنا ، وقد استدعت الحكومة هؤلاء الأطباء فى أوائل عهد إسماعيل ، قبل تمام دراستهم ، لاحتياج

حكومة إبراهيم ، فرجعوا إلى مصر ، عدا المترجم فقد استبقى منهم لصغر سنه ، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى العالم وقتئذ ، وبقى يوالى الدرس والتخصص فى باريس نحو سبع سنوات ، ونبغ فى الجراحة نبوغاً عظيماً ، شهد له به أساتذته ، وفى خلال هذه المدة قابل الخديو إسماعيل فى باريس ، فشمله بعطفه ورعايته ، إذ سمع من أساتذته الثناء المستطاب على كفاءته واجتهاده .

وعاد المترجم إلى مصر ، فتقلد المناصب الطبية ، وأهم ما تقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العينى ، والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب ، وأنعم عليه بالرتب إلى أن نال الباشوية سنة ١٣١٥ هـ ، وسطع نجمه فى الجراحة ، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد ، وبلغ ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه ، والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والدقة فى تشخيص الداء والدواء ، والتفانى فى الإخلاص لعمله وفنه ، وحب الإنسانية ، والبر بالفقراء والمعوزين ، هذا إلى تعلقه بالعلم والتأليف ، فقد اقتنى مكتبة علمية من أنفس المكاتب ، وألف مجموعة تشريحية من أعظم ما جمعه الأطباء ، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته ورسائله ، سماها المطبعة الدرية ، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التى ظهرت فى عصره ، وقد ظل مخلصاً لفنه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ ، وأهم مؤلفاته الطبية « بلوغ المرام فى جراحة الأجسام » طبع بالمطبعة الدرية فى أربعة مجلدات ، وله « الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية » طبع سنة ١٣٠٠ هـ

حسن بك عبد الرحمن

(توفى سنة ١٨٧٥)

تخرج من مدرسة الطب بقصر العينى ثم تولى تدريس التشريح فيها ، ونبغ فى هذا الفن ، وترجم كتاب (القول الصحيح فى علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بإرشاد محمد على باشا البقلى إذ كان ناظراً لمدرسة الطب

علماء الطب والجراحة فى عصر إسماعيل

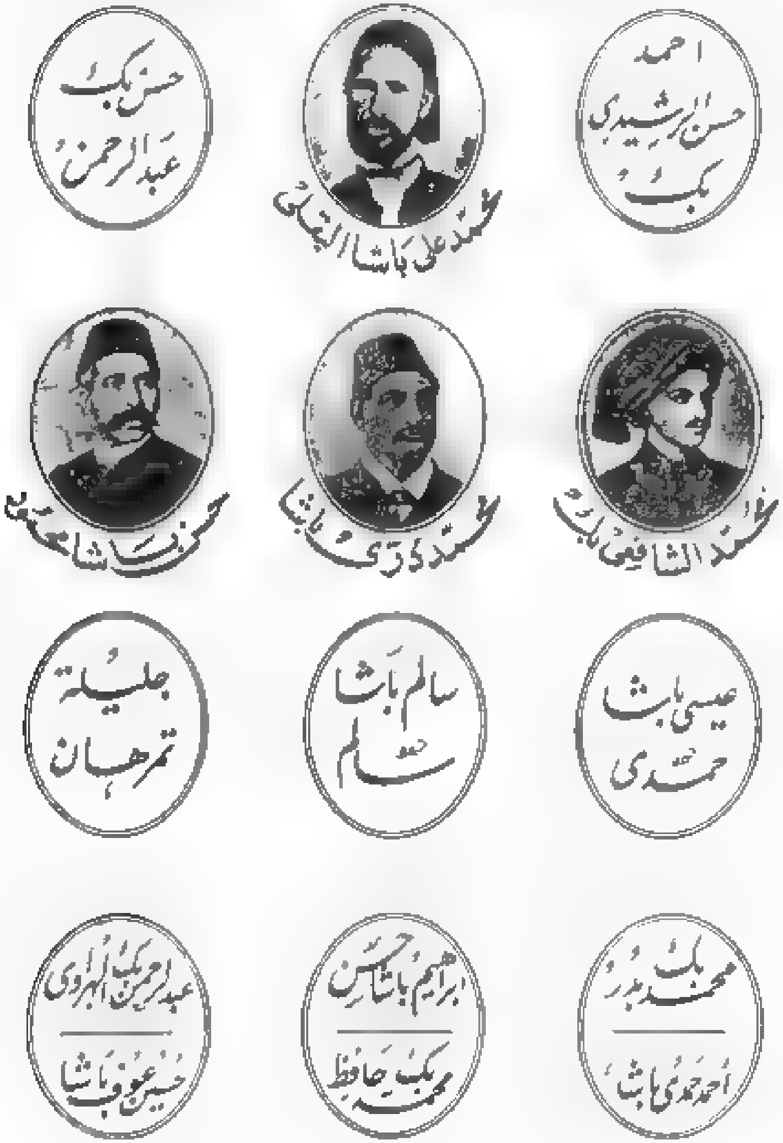
أحمد حسن الرشيدي بك
محمد على باشا البقلى
حسن بك عبد الرحمن
محمد الشافعي بك
محمد دري باشا
حسن باشا محمود
عيسى باشا حمدي
سالم باشا سالم
جليلة تمرهان
محمد بك بدر
أحمد حمدي باشا
إبراهيم باشا حسن
محمد بك حافظ
عبد الرحمن بك الهراوي
حسين عوف باشا

محمد بك حافظ

(توفى سنة ١٨٨٧)

تخرج فى مدرسة قصر العيني ، وأتقن فن الرمد بأوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العيني ؛ وله كتاب (مطمح الأنظار فى تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار) طبع سنة ١٢٩٩ هـ .

سالم باشا سالم

(توفى سنه ١٨٩٣)

من القنايات بمديرية الشرقية ، تعلم فى مدرسة الألسن ، ثم فى مدرسة الطب ، وأوفدته الحكومة فى عهد عباس باشا الأول لإتمام دراسة الطب فى مونيخ بألمانيا ، فأكمل دراسته علماً وعملا ، وعاد إلى مصر ، وارتقى فى المناصب الطبية وجعله الخديو توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات :

١ – وسائل الابتهاج إلى الطب الباطنى والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ هـ فى أربعة مجلدات .
٢ دليل المحتاج فى الطب والعلاج .
٣ الينابيع الشفائية والمياه المعدنية

جليلة تمرهان

(توفيت سنه ١٨٩٩)

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ، ولها فى فن الولادة كتاب (محكم الدلالة فى أعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ هـ

محمد بك بدر

(توفى سنة ١٩٠٢)

من زاوية البقلى بمديرية المنوفية ، ومن خريجى مدرسة الطب بقصر العيني ، وأحد تلاميذ محمد على باشا البقلى ، أتم دراسته فى انجلترا وعاد منها فى عهد سعيد ، فتولى مناصب عدة

حتى صار أستاذاً فى مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى اسماعيل ، وله من المؤلفات

١ – الفرائد الدرية فى علم الشفاء والمادة الطبية طبع ١٣٠٧ هـ
٢ الدرر البدرية المنضبطة فى شرح الأدوية المفردة طبع سنة ١٣١ هـ
٣ – الصحة التامة والمنحة العامة طبع سنة ١٢٩٦ هـ

أحمد حمدى باشا

(توفى سنة ١٩٠٣)

هو نجل الدكتور محمد على باشا البقلى ، ومن خريجى مدرسة قصر العينى ، ثم أتم دراسته فى باريس وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذاً للعمليات الجراحية فى حياة أبيه ، وحذا حذوه فى التأليف .

حسن باشا محمود

(١٨٤٧ – ١٩٠٦)

ولد بقرية الطالبية فى طريق الأهرام وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفدته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية إلى ألمانيا لدراسة الطب ، وعاد ١٨٧٠ ، فعين أستاذاً للتشريح فى مدرسة قصر العينى ، وتقلد مناصب عدة ، إلى أن صار ناظراً لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومباحث طبية كان ينشرها فى المجلات العلمية كروضة المدارس ثم المقتطف

ابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى

كلاهما من [illegible] الأطباء ، وللأول كتاب (روضة الآسى فى الطب [illegible]) طبع سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) ، وتولى الثانى نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات طبية

عبد الرحمن بك الهراوى

(توفى سنة ١٩٠٦)

من خريجى مدرسة قصر العينى ، أتم دراسته بأوروبا ، وعين بعد عودته أستاذاً للفسيولوجيا وأمراض الجلد ، ثم صار وكيلا للمدرسة سنة ١٨٨٠ ، وله كتاب فى الفسيولوجيا لم يطبع

علماء الطبيعيات

أحمد بك ندا ، عبد الهادى إسماعيل ، وقد ترجمنا لها فى كتابنا (عصر محمد على) ص ٥٣٤ (الطبعة الأولى)

على بك رياض

(توفى سنة ١٨٨٩)

تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته فى أوروبا ، وتولى تدريس الأقرباذين والكيمياء فى مدرسة الطب ، وعمل كبير صيادلة مستشفى القصر العينى ، وله من المؤلفات :

١ – النفحة الرياضية فى الأعمال الأقرباذينية طبع سنة ١٢٨٩ هـ

٢ – الأزهار الرياضية فى المادة الطبية سنة ١٢٩٨ هـ .

٣ التوفيقات الإلهية فى التاريخ الطبيعى ، طبع سنة ١٢٩٨ هـ

منصور أفندى أحمد

أستاذ الكيمياء بمدرسة المهندسخانة ومؤلف كتاب (عمدة المحتاجين فى فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين) طبع سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦)

علماء الفقه والقانون

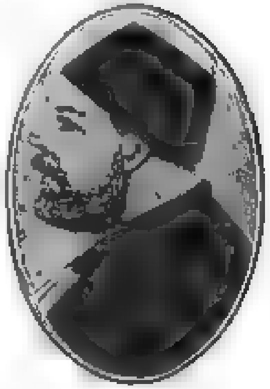

محمد قدرى باشا

(١٨٢١ – ١٨٨٦)

العالم المشترع الكبير ، ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ ، من أب أناضولى وأم مصرية ، وتلقى التعليم الأولى بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الألسن على عهد رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، وبعد أن تخرج فيها جُعل مترجماً مساعداً بها ، واتجه ميله إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وأقبل على كتب الشرع يدرسها ويستوعبها ، وتقلد شتى مناصب [illegible] فى الحكومة فى [illegible] الخديو إسماعيل واختاره مربياً لولى عهده الأمير محمد توفيق ، ثم عين [illegible] بالمحكمة التجارية بالإسكندرية ، [illegible] ، ومشاركته وبراعته فى تعريب الكود (قانون نابليون) وعين عضواً بلجنة ترتيب قوانين المحاكم المختلطة تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وعين مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عدة ، أهمها كتبه الثلاثة العالية التى جمع فيها أحكام الشريعة

الإسلامية ، وصاغها في مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الأوروبية ، وهذه الكتب هي : (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في المعاملات المدنية الشرعية . وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف) ، وتعد هذه الكتب هي مرجع رجال القضاء والقانون في المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة ، وعمدة كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية

وله أيضاً كتاب لم يطبع في (تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقاً لمذهب أبي حنيفة) .

وتولى وزارة الحقانية في وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الخديو توفيق باشا ، ووضع في هذا العهد مشروع النظام القضائي للمحاكم الأهلية الجديدة ، وفي سنة ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم وصدرت قوانينها ، وهي القانون المدني وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات ، وكان المترجم وقتئذ وزيراً للمعارف في عهد وزارة شريف باشا الرابعة . وهي الوزارة التي استقالت احتجاجاً على إخلاء السودان .

الشيخ محمد العباسي المهدي

(١٨٢٧ – ١٨٩٧)

شيخ الإسلام ، ومفتي الديار المصرية ، وصاحب الفتاوى المهدية التي تعد مرجع العلماء في الفقه الإسلامي ، وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدي مفتي الديار المصرية الأسبق ابن الشيخ محمد المهدي أحد كبار علماء مصر في عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد علي (ترجمنا له في كتابنا الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩ ـ الطبعة الأولى) .

تلقى العلم بالأزهر ، ونبغ في علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره ، على عهد إبراهيم باشا . وظهرت مزاياه التي رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجة ، وقد وقف من الحكومات المتعاقبة موقف الكرامة والاستمساك بالحق ، حتى استهدف في بعض المواطن لتغضب ولاة الأمور ، فلم يكن يبالي غضبهم ، ولم ينحرف عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علواً في عهد إسماعيل ، إذ جمع بين الإفتاء ومشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الخديو وثقته ،

وكان يرجع إلى رأيه في كل ماله مساس بالشريعة الإسلامية . وبدأ على يده إصلاح نظام التعليم في الأزهر كما تقدم بيانه ص ٢٠٨ . واستمر محتفظاً بمكانته في عهد الخديو توفيق . ولما قامت الثورة العرابية لم يكن من أنصارها ، فاستهدف لغضب العرابيين ، وعزل من مشيخة الأزهر . ولما انتهت الثورة أعيد إلى مشيخة الأزهر واستمر متقلداً الإفتاء والمشيخة حتى عزل عنها لمعارضته الحكومة على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشريعة ، ثم عاد إليه الإفتاء فتقلده إلى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنة ١٣١٥ هـ .

* * *

ومن علماء الفقه المعدودين في هذا العصر : الشيخ محمد عليش ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوي ، والشيخ حسونة النواوي إلخ

علماء الفنون الحربية والبحرية

علي باشا إبراهيم ، حماد عبد العاطي باشا ، وقد ترجمنا لها في كتابنا (عصر محمد علي) ص ٥٣٠ (الطبعة الأولى) .

محمود باشا فهمي

(توفي سنة ١٨٩٤)

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ في الشنطور بمركز ببا من مديرية بني سويف ، وتخرج في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومهر في الفنون الهندسية والحربية وانتظم في سلك الجيش ، ثم جعل أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية في المدارس الحربية ، على عهد سعيد وإسماعيل ، وعهد إليه الخديو إسماعيل تحصين شواطىء مصر الشمالية من أبو قير إلى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة ، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصونا جديدة ، وارتقى في الرتب العسكرية ، واشترك في حرب البلقان سنة ١٨٧٦ – ١٨٧٧ ، وكان من أركان حرب الفرقة المصرية بها .

محمود باشا فهمى

(توفى سنة ١٨٩٤)

ولما شبت الثورة العرابية كان من رجالها كما سيجىء بيانه فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية) ، وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصرى ، وحوكم ضمن زعماء الثورة ، ونفى إلى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر) ، وتوفى فى منفاه سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤) وبعد وفاته طبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ فى أربعة مجلدات

محمد مختار باشا

(١٨٣٥ – ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد فى بولاق سنة ١٨٣٥ ، وتلقى التعليم الابتدائى ، ثم تلقى الفنون الحربية ، وانتظم فى خدمة الجيش وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وارتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء فى سنة ١٨٨٦ ، واشترك فى حملة هرر كما تقدم بيانه ص ١٤٠ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وبقى يتولى هذا المنصب إلى أن توفى فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٧

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، ويحسب من المؤلفين والعلماء أكثر مما يعد من رجال الحرب ، وحسبك أنه صاحب الكتاب القيم (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هـ طبع سنة ١٣١١ هـ

وقد ذكر إزاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التى وقعت فى مصر والعالم . وله كتاب (المجموعة الشافية فى علم الجغرافيا) ورسائل أخرى فى الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتعة فى مجلة الجمعية الجغرافية

شحاتة عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب فى عهد الخديو إسماعيل

محمد صادق باشا

(توفى سنة ١٩٠٢)

من تلاميذ مدرسة الخانكة الحربية المنشأة فى عهد محمد على ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطاً فى سلك الجيش ، وهو الذى رافق سعيد باشا فى رحلته بالحجاز ، وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برئاسة استون باشا ، وله مبحث قيمة فى مجلة الجمعية الجغرافية .

سليمان قبودان حلاوه

(توفى سنة ١٨٨٥)

من المنوفية ، ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتخرج فى مدرسة الطوبجية على عهد محمد على ، وحذق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذاً للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهر فى الفنون البحرية وأتقنها ، وصار ريّاناً للباخرة محمود ، فأظهر براعة فى قيادتها ، وطاف بها حول القارة الإفريقية ، وجعل فى عهد إسماعيل سنة ١٨٧٠ مدرساً للفنون الحربية والفلكية ، فأفاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف فى الملاحة كتابا اسمه (الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر) وتوفى سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م

النهضة الفنية

إن النهضة الفنية تشتمل على الفنون المعروفة بالفنون الجميلة ، وهى الفنون التى تستثير فى النفس إحساس الجمال ، وتنمى فيها ملكته ، ولا مراء فى أنها من عوامل نهضة الأمة ، لما تنتجه من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف ، وتوسيع المدارك ، وتمتع

لأذهان إلى دقة الملاحظة ، وصواب النظر

والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل ، والرسم ، والتصوير ، والنقش والزخرفة والعمارة

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد على ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم فى المدارس العالية والثانوية والابتدائية ، ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تنل حظًا من الازدهار فى ذلك العهد .

وتخرج فى مدرسة المهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين فى النقش والبناء ، وتقدم فن العمارة بما أقامه أولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى تشهد لهم بحسن الذوق والحذق فى هندسة البناء ، وظهر أيضاً حذقهم فيما شيدوه من القناطر على النيل والرياحات والترع الكبرى ، فإن بعض هذه المنشآت تعد قطعة من الفن

التمثيل والغناء

كان المجتمع فى عصر إسماعيل ميالا إلى المرح والحبور ، وكان إسماعيل ذاته طروباً ، محباً للتمتع بالملاهى والمسرات ، وهذه الميول هى غذاء النهضة الفنية وخاصة الغناء[29] (الموسيقى) ، والتمثيل .

أما التمثيل فقد ساعد إسماعيل الناحية الأوروبية منه ، ثم تعدت منه الثقافة قليلة الجدوى إلى التمثيل العربى ، فأنشأ أول ما أنشأ بالقاهرة مسرح (الكوميدى) بالأزبكية ، وكان الشروع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ [30] ثم بنى دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وتم بناؤها فى خمسة أشهر ، وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها (ريجوليتو) ، وكانت الأمبراطورة أوجينى عقيلة نابليون الثالث فى مقدمة من شهدوا التمثيل فى تلك الليلة ، وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير (فردى) أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسى ماريت باشا موضوع الرواية ، وهى رواية

---

[29] الغناء والموسيقى بمعنى واحد

[30] كتاب (باريسى فى القاهرة) للمسيو فرير ص ١١٧ un Parisien au Caire par Ferrieres

(عايدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ . ونالت نجاحاً عظيماً ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقات الإفرنجية وأغدقت عليها الأموال والهبات ، فبلغ ما صرف على فرد إحدى الجوقات فى شتاء سنة من سنى إسماعيل ١٢٠ ألف جنيه ، ولا غرابة فى ذلك فإن الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحياناً ألف ومائة جنيه فى الشهر

وأنشىء فى الإسكندرية مسرح (زيزينيا) ، ومسرح آخر اسمه Alfieri بشارع سطاسى

وقد وفد على مصر حوالى سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ، منهم يوسف خياط ، فمثلوا على مسرح زيزينيا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقته إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعضيداً من الخديو إسماعيل ، وأذن له أن يمثل رواياته فى دار الأوبرا ، فمثل رواية « الظلوم » وحضرها الخديو ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعريض بالظالمين ، إذ ظن أنه المقصود بهذا التعريض ، فأمر بإخراج الخياط وجوقته من مصر فعادوا إلى سوريا ، ووقفت النهضة التمثيلية فى عهد إسماعيل عند هذا الحد .

الموسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنون يتبعون إلى ذلك العهد الأساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبده الحمولى) المغنى الشهير ، فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الأساليب وإدخال روح العصر والتجديد فيها

عبده الحامولى
عميد الغناء فى عصر إسماعيل

ولد عبده الحامولى فى طنطا حوالى سنة ١٨٤٥ ، أى أنه استقبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعى ، فحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجر بن فى طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سناً ، وكان أبوهما يقسو فى معاملتهما ويسىء إليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبراً على هذه المعاملة ، ففرا من عنده وسارا هائمين فى الأرياف ، وساقتهما المصادفة إلى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبده ، فأطربه وأعجب به إعجاباً كبيراً ، وعاد به إلى طنطا ، وهناك أخذ يغنى معه ، ثم جاء به إلى مصر ، لما أن سمعه محبو الطرب حتى اجتذبهم بصوته الجميل ، وظهرت عليه علائم النبوغ الموسيقى فترك صاحبه وأستاذه القديم ، وانتقل إلى مغن مشهور اسمه (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته ، وأخذت شهرته تذيع فى الأوساط الاجتماعية ، وبدأ يبتكر أساليب جديدة فى الغناء نالت إعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبلغت شهرته الخديو إسماعيل فاجتلبه وألحقه بمعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، إذ أعجب فيه الخديو صوته الجميل ، فأخذه معه فى حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه فى رحلاته إلى الآستانة ، وهناك التقى عبده بالموسيقيين الترك وسمع ألحانهم ، فاقتبس منها ما يلائم الروح المصرية ، وابتكر فى الغناء ألحاناً جديدة هى مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، فصار زعيم المجددين فى الموسيقى

مصرية . واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرب الناس طول حياته ، ولا غرو فهو بلبل الصداح الذى كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة . ولقد ظل ثلاثين سنة ونيفاً مصدر السرور والطرب ، للأفراد والجماعات ، وكان رقيق المزاج دمث الأخلاق ، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصاً لفنه متفانياً فيه ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ، وكانت وفاته سنة ١٩٠١

واشتهر فى عصره بعض السيدات فى الغناء ، منهن (ألماس) المغنية المشهورة ، وقد تزوج بها عبده ، ومنعها من الغناء فى مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لغضب إسماعيل ، إذ طلب يوماً أن تحضر (ألماس) إلى قصره وتغنى به ، فرفض عبده أن تذهب ، فغضب الخديو ، وأمر بإحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبده ، وأصر على الإباء ، ووسط الشيخ على الليثى شاعر الخديو فى الأمر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديو عن طلبه

وفى هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقى المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » فى العصر الحديث ، وقد أدرك عصر إسماعيل ، وإن كانت شهرته لم تكتمل إلا من بعد ، وصحب عبده الحامولى ، وحاكاه فى توقيعه وأنغامه .

وصفوة القول أن عصر إسماعيل كان للنهضة الفنية عصر الإحياء والتجديد ، وظهر فيه عباقرة الفن الذين رفعوا شأنه ، وأحلوه من النفوس مكاناً علياً

تم الجزء الأول
ويليه الجزء الثانى
(وفيه ختام الكلام على عصر إسماعيل)

راجع هذا الكتاب المستشار
حلمى السباعى شاهين
نائب رئيس قضايا الحكومة

الفهرس

صفحة
صورة المؤلف ٣
مقدمة الطبعة الثالثة ٥
مقدمة الطبعة الثانية ٧
مقدمة الطبعة الأولى ٩

الفصل الأول
الرجعية فى عهد عباس الأول

نشأة عباس ١٥
ولايته الحكم ١٦
أخلاقه ١٦
أعماله ١٧
سياسته العامة ١٧
إصلاح الطريق بين مصر والسويس ١٨
السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ٢٠
ضبط الأمن ٢١
المدارس والمصانع ٢١
البعثات ٢٢
السودان ٢٢
الجيش والبحرية ٢٢
اشتراك مصر فى حرب القرم ٢٣
مقتل عباس ٢٤
سيرة عباس ٢٦

الفصل الثانى
النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا

نظرة عامة ٢٩
نشأة سعيد ٢٩
أخلاقه ٣٠
إصلاحاته الزراعية ٣٠
اللائحة السعيدية ٣٠
لائحة المعاشات للموظفين ٣٢
أعمال العمران ٣٢
تطهير ترعة المحمودية ٣٢
السكك الحديدية والتلغراف ٣٣
إصلاحاته الحربية وفيه
روح القومية فى الجيش ٣٤
البحرية ٣٧

صفحة
اضمحلال الأسطول ٣٧
شركة الملاحة النيلية ٣٩
شركة للملاحة البحرية ٤٠
إصلاح ميناء السويس ٤٠
حروب مصر فى عهد سعيد باشا ٤١
١ – حرب القرم ٤١
٢ – حرب المكسيك ٤٣
السودان ٤٤
رحلة سعيد باشا إلى الحجاز ٤٦
التعليم ٤٨
نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد ٤٩
النظام السياسي ٤٩
المجلس المخصوص ٤٩
الوزارات ٥٠
النظام القضائي ٥٠
مجلس الأحكام ٥٠
مجالس أو محاكم الأقاليم ٥٠
ولاية القضاء ٥١
إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته ٥١
قضاء الأجانب ٥٢
ثمرات التدخل الأجنبي ٥٣

١

صفحة
امتياز قناة السويس ٥٣
نظرة عامة ٥٣
لمحة فى تاريخ المشروع ٥٧
فى عهد الفراعنة والفتح الإسلامى ٥٧
فى عهد الحملة الفرنسية ٥٨
فى عهد محمد على ٥٨
لجنة سنة ١٨٤٦ ٥٩
فى عهد سعيد باشا ٦٠
منح امتياز القناة ٦٢
حصص التأسيس ٦٢
لجنة دولية لدرس المشروع ٦٣
شروط الامتياز ٦٣
مقاومة إنجلترا للمشروع ٦٦
مناصرة سعيد للمشروع ٦٦
تأليف الشركة ٦٧
البدء فى حفر القناة ٦٧

٢

بدء القروض الأجنبية ٦٩
قرض سنة ١٨٦٢ ٧٠
الدين السائر ٧٠
وفاة سعيد باشا ٧١

الفصل الثالث

عصر إسماعيل

صفحة
نظرة عامة فى عصر إسماعيل ٧٣
نشأة إسماعيل ٧٤
ولايته الحكم ٧٦
سياسة مصر الخارجية فى عهد إسماعيل ٧٦
كلمة عامة ٧٦

١

سياسة إسماعيل حيال تركيا ٧٨
العلاقات الودية ٧٨
زيارة السلطان عبد العزيز لمصر ٧٩
تغيير نظام توارث العرش وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ ٧٩
فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب (خديو) ٨٢
تطور العلاقات ثم الجفاء بين مصر وتركيا ٨٢
فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وما فيه من القيود ٨٤
تحسين العلاقات ٨٥
فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢ ٨٥
الفرمان الجامع (٨ يونية سنة ١٨٧٣) ٨٥
عودة الجفاء ٨٦

٢

سياسة إسماعيل حيال الدول الأوروبية ٨٧
فرنسا ٨٨
إنجلترا ٩٠

الفصل الرابع

قناة السويس

همة إسماعيل فى إتمام القناة ٩٣
سعيه فى تخفيف شروط الامتياز ٩٣
تحكيم نابليون الثالث ٩٥
الحكم فى النزاع ٩٥
جسامة التعويضات ٩٦
مناقشة الحكم ٩٦
اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ ٩٨
تصديق السلطان واتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ ٩٩
انتهاء العمل وافتتاح القناة ٩٩
خسائر مصر المالية فى القناة ١٠٤
بيع أسهم مصر فى القناة ١٠٥
خسائر فادحة ١٠٦
قناة السويس وتواريخها الهامة ١٠٧

الفصل الخامس

السودان فى عهد إسماعيل

صحيفة
توسيع نطاق السودان المصرى ١٠٩
كلمة إجمالية ١٠٩
فتح فاشودة ١١٠
ضم سواكن ومصوع ١١١
فتح إقليم خط الاستواء والوصول إلى منابع النيل ١١٢
مهمة السير صموئيل بيكر ١١٢
رحلته فى عهد سعيد ١١٢
مهمته فى عهد إسماعيل ١١٣
رفع العلم المصرى على غندكرو ١١٦
فتح مملكة أونيورو ١١٨
ولاء ملك أوغندة لمصر ١١٩
تعيين الكولونل غردون مديرًا لخط الاستواء ١٢١
توسيع نطاق الحكم المصرى فى مديرية خط الاستواء ١٢٢
بسط حماية مصر على مملكة أوغندة ١٢٤
مذكرة شريف باشا إلى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات ١٢٦
موقف غردون ١٢٧
اكتشاف بحيرة إبراهيم ١٢٨
استعفاء غردون من منصبه ١٣٠
مصير مديرية خط الاستواء ١٣٠

صحيفة
منع تجارة الرقيق ١٣١
ظهور الزبير باشا رحمت ١٣٣
فتح سلطنة دارفور ١٣٤
معركة منواشى ١٣٤
ضم زيلع وبربره ١٣٦
فتح هرر ١٣٨
حملة الصومال ١٤٢
اعتراف إنجلترا بسلطة مصر فى الصومال ١٤٣
النزاع بين مصر والحبشة ١٤٤
الحرب بين الإنجليز والحبشة ١٤٥
منزنجر باشا ١٤٦
فتح سنهيت وضم إقليم البوغوس ١٤٧
حرب الحبشة ١٤٧
حملة أرندروب بك ١٤٨
معركة جونديت ١٤٩
حملة منزنجر باشا ١٤٩
مقتل منزنجر باشا ١٤٩
الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا ١٥٠
معركة قرع ١٥١
عقد الصلح مع الحبشة ١٥١
نتائج حرب الحبشة ١٥٢
حكمدارو السودان فى عهد إسماعيل ١٥٣
موسى باشا حمدى ١٥٣

صحيفة
جعفر صادق باشا ١٥٣
إخماد ثورة كسلا ١٥٣
جعفر مظهر باشا ١٥٤
ممتاز باشا ١٥٥
إسماعيل باشا أيوب ١٥٦
غردون باشا ١٥٦
التقسيم الإدارى ١٥٩
الجيش المصرى فى السودان ١٦٠
أعمال العمران ١٦٢
استتباب الأمن ١٦٢
الزراعة ١٦٢
طرق المواصلات ١٦٣

صحيفة
المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم ١٦٤
الملاحة البحرية والمنارات ١٦٤
مشروع السكة الحديدية ١٦٥
المدارس ١٦٥
التجارة ١٦٧
البريد ١٦٨
التلغرافات ١٦٨
ميزانية السودان ١٦٩
الرحلات والبعثات الجغرافية ١٦٩
الحكم المصرى فى السودان وشهادة الثقات من الأجانب ١٧٤
حدود السودان المصرى أمس واليوم ١٧٦

الفصل السادس

الجيش

كلمة إجمالية ١٨١
المدارس الحربية التى أنشأها إسماعيل ١٨١
مدرسة المشاة ١٨٢
مدرسة الفرسان ١٨٢
مدرسة المدفعية ١٨٢
مدرسة أركان الحرب ١٨٣
المدارس الأخرى ١٨٣

هيئة أركان حرب الجيش ١٨٣
الصحافة الحربية ١٨٤
تجديد السلاح والمصانع الحربية ١٨٥
إنشاء ميدان للرماية ١٨٦
إدخال النظام الألمانى ١٨٦
إحصاء الجيش ١٨٧
افتقار الجيش إلى قائد عظيم ١٨٧

الفصل السابع
البحرية

صفحة
الأسطول الحربى ١٨٩
خدمات الأسطول ١٩٠
إحصاء الأسطول ١٩١
الأسطول التجارى ١٩٢
الشركة العزيزية ١٩٢
وابورات البوستة الخديوية ١٩٣
صفحة
إتمام ميناء السويس ١٩٤
إصلاح ميناء الإسكندرية ١٩٤
الفنارات ١٩٥
فى البحر الأبيض المتوسط ١٩٥
فى البحر الأحمر ١٩٥

الفصل الثامن
حروب مصر فى عهد إسماعيل

إخماد ثورة العسير ١٩٧
حرب الجبل الأسود وكريت ١٩٨
حرب البلقان ١٩٩
حروب السودان والحبشة ٢٠٠

الفصل التاسع
التعليم والنهضة العلمية والأدبية

المدارس التى أنشئت فى عهد إسماعيل ٢٠١
المدارس الحربية ٢٠١
المدارس العالية ٢٠١
مدرسة المهندسخانة ٢٠٢
مدرسة الحقوق ٢٠٢
مدرسة دار العلوم ٢٠٢
مدرسة الطب والولادة ٢٠٣
مدارس البنات ٢٠٣
المدارس الصناعية ٢٠٤
المدارس الخصوصية ٢٠٥
المدارس التجهيزية ٢٠٥
المدارس الابتدائية ٢ ٦
المحلات المدرسية ٢٠٧
الأزهر ٢٠٨

صفحة
البعثات ٢٠٨
مدارس الأقباط الأرثوذكس ٢٠٩
المدارس الأوربية ٢٠٩
وزارة المعارف ٢١٠
ميزانية التعليم ٢١٠
ترجمة حياة على باشا مبارك ٢١٢
الجمعيات العلمية ٢٤٤
المجمع العلمى ٢٤٤
جمعية المعارف ٢٤٥
الجمعية الجغرافية الخديوية ٢٤٧
الجمعية الخيرية الإسلامية ٢٤٧
الصحافة ٢٤٧
الصحف العلمية والأدبية والحربية ٢٤٨
اليعسوب ٢٤٨
روضة المدارس ٢٤٨
جريدة أركان حرب الجيش المصرى ٢٥٠
الجريدة العسكرية المصرية ٢٥٠
الصحف السياسية ٢٥٠
وادى النيل ٢٥٠
نزهة الأفكار ٢٥٠
الوطن ٢٥٠
مصر و (التجارة) ٢٥٠
روضة الأخبار ٢٥١
الكوكب الشرقى ٢٥١
الأهرام ٢٥١
الاسكندرية ٢٥١
الكوكب المصرى ٢٥١
مرآة الشرق ٢٥١
مرآة الأحوال ٢٥١
صفحة
أبو نظارة ٢٥١
الصحف الإفرنجية ٢٥٢
الطباعة ٢٥٣
حسين حسنى باشا ٢٥٣
مطبعة بولاق ٢٥٣
معمل الورق ٢٥٣
المطابع الأخرى ٢٥٤
الكتب التى طبعت فى ذلك العصر ٢٥٤
مظاهر النهضة العلمية والأدبية ٢٥٤
أعلام الأدب فى عصر إسماعيل ٢٥٨
رفاعة بك ٢٥٨
على باشا مبارك ٢٥٨
السيد جمال الدين الأفغانى ٢٥٨
الشيخ حسين المرصفى ٢٥٨
محمود باشا سامى البارودى ٢٥٩
عبد الله أبو السعود أفندى ٢٥٩
الشيخ محمد عبده ٢٦٠
إبراهيم بك المويلحى ٢٦٠
محمد بك عثمان جلال ٢٦١
عائشة عصمت تيمور ٢٦٢
عبد الله باشا فكرى ٢٦٣
الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ٢٦٤
السيد عبد الله نديم ٢٦٥
أديب إسحق ٢٦٥
الشيخ على الليثى ٢٦٦
على أبو النصر المنفلوطى ٢٦٦
الشيخ حسن الطويل ٢٦٦
السيد صالح مجدى بك ٢٦٦
إبراهيم بك مرزوق ٢٦٧

صفحة
ابو بكر ، عمر الكردى ٢٦٧
محمود صفوت الساعاتى ٢٦٨
محمد عارف باشا ٢٦٨
احمد بك عبيد ٢٦٨
خليفة أفندى محمود ٢٦٨
بقية أعلام الأدب ٢٦٩
علماء الهندسة والرياضيات ٢٦٩
على باشا مبارك . بهجت باشا . مظهر باشا . فايد باشا . حسنى باشا . فهمى النجار . أحمد بك السبكى . حسن بك نور الدين . حسين باشا حسنى ٢٦٩
محمود باشا الفلكى ٢٦٩
إسماعيل باشا الفلكى ٢٧٤
سلامة باشا ٢٧٥
محمد لبيب باشا ٢٧٥
إسماعيل باشا محمد ٢٧٦
أحمد بك نجيب ٢٧٦
حسنى أفندى على الشيت ٢٧٦
على أفندى عزت ٢٧٦
عامر بك سعد ٢٧٦
السيد عمارة ٢٧٧

علماء الطب والجراحة

محمد على باشا البقلى . أحمد حسن الرشيدى بك . محمد الشافعى بك
حسن عوف باشا ٢٧٧
محمد درى باشا ٢٧٧
حسن بك عبد الرحمن ٢٧٨

صفحة
محمد بك حافظ ٢٨٠
سالم باشا سالم ٢٨٠
حلبلة ترهان ٢٨٠
محمد بك بدر ٢٨٠
أحمد حمدى باشا ٢٨١
حسن باشا محمود ٢٨١
إبراهيم باشا حسن ٢٨١
عيسى باشا حمدى ٢٨١
عبد الرحمن بك الهراوى ٢٨٢

علماء الطبيعيات

أحمد بك ندا ٢٨٢
عبد اللطيف إسماعيل ٢٨٢
على بك رياض ٢٨٢
منصور أفندى أحمد ٢٨٢

علماء الفقه والقانون

محمد قدرى باشا ٢٨٣
الشيخ محمد العباسى المهدى ٢٨٤

علماء الفنون الحربية والبحرية

على باشا إبراهيم ٢٨٥
حماد عبد العاطى ٢٨٥
محمود باشا فهمى ٢٨٥
محمد مختار باشا ٢٨٧
شحاته عيسى بك ٢٨٨
محمد صادق باشا ٢٨٨
سليمان ، دان حلاوة ٢٨٨

صفحة

النهضة الفنية

التمثيل والغناء ٢٨٩
الموسيقى ٢٩٠
عبده الحامولى ٢٩١

صفحة
ألماظ ٢٩٢
محمد العقاد ٢٩٢
فهرست الجزء الأول ٢٩٣
فهرست الخرائط والصور ٣٠٤

فهرست الخرائط والصور

صفحة

عباس باشا الأول والى مصر ١٩
سعيد باشا والى مصر ٤٧
إبتداء العمل فى حفر القناة ٦٨
إسماعيل باشا خديو مصر ٧٥
حفلة افتتاح قناة السويس ببورسعيد ١٠٠
دخول البواخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس ١٠١
وليمة العشاء التى أقامها الخديو إسماعيل ابتهاجاً بافتتاح القناة ١٠٢
حفلة الرقص التى أقامها الخديو إسماعيل ابتهاجاً بافتتاح القناة ١٠٣
خريطة قناة السويس ١٠٧
نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل فى صحراء النوبة سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء ١١٤
الأسطول النيلى الذى تحرك من الخرطوم لفتح إقليم خط الاستواء ١١٥
حفلة رفع العلم المصرى على غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧١ ١١٦
المعسكر المصرى فى غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢ ١١٧
ريونجا ملك أونيورو يصافح صموئيل بيكر باشا سنة ١٨٧٢ ١١٨
صموئيل بيكر باشا مدير خط الاستواء فى عهد إسماعيل وأركان حربه ١٢٠
خريطة مديرية خط الاستواء ١٢٥
السودان المصرى فى عهد إسماعيل ١٣٥
مدينة هرر سنة ١٨٧٦ ١٣٩
مديريات السودان المصرى فى عهد إسماعيل ١٦١
رأس جردفون (جردفوى) ١٦٦
الرحلات والبعثات الجغرافية فى عصر إسماعيل ١٧١
حدود الدولة المصرية أمس واليوم ١٧٧
على باشا مبارك ٢١٦
أعلام الأدب فى عصر إسماعيل ٢٥٦-٢٥٧

صفحة

علماء الهندسة فى عصر إسماعيل ٢٧١
علماء الطب والجراحة فى عصر إسماعيل ٢٧٩
محمد قدرى باشا ٢٨
محمود فهمى باشا ٢٨٦
محمد مختار باشا ٢٨٧
عبده الحمولى ٢٩١

* * *

فصول الجزء الثانى من الكتاب

الفصل العاشر : أعمال العمران
الفصل الحادى عشر : مأساة الديوان
الفصل الثانى عشر : الحركة الوطنية والحياة النيابية
الفصل الثالث عشر : ختام النزاع بين الخديو والدائنين
الفصل الرابع عشر : نظام الحكم
الفصل الخامس عشر : الحالة المالية والاقتصادية
الفصل السادس عشر : الحالة الاجتماعية
الفصل السابع عشر : شخصية إسماعيل والحكم على عصره

* * *

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان. طبع سنة ١٩١٢.

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشأه فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية. طبع سنة ١٩١٤.

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها. طبع سنة ١٩٢٢.

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر. وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩).

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)
الجزء الثانى : ويليه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢).

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧).

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢).

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩).

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية
تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١).

ثورة سنة ١٩١٩ في جزأين :
تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦.

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة. وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى نشوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم.

الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر. والحوادث التي لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة في مشروع ملنر. والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية. ونتائج الثورة في حياة مصر القومية.

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧).

الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩).

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١).

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :
(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)
الكفاح في القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢.
وزارات المؤقتين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة.

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :
تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :
من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣)

مذكراتي (١٨٨٩ - ١٩٥١) :
خواطري ومشاهداتي في الحياة.

شعراء الوطنية في مصر :
تراجمهم، وشرحهم الوطني، والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوالي وأعمالي في البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عاماً في البرلمان .
في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥
وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١١٥١ (طبع سنة ١٩٥٥)

كتب مختصرة

مصطفى كامل :
باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)
بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١١٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابي :
(الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغاني : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :
استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :
(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة في العصر الحديث :
في ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢.

تاريخ مصر القومي :
من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

(تحت الطبع)
مختاراتي من دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام.

To:

WWW.AL-MOSTAFA.COM